



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

مباحث

في علوم القرآن

سليمان القطان

مطبعة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مباحث فى علوم القرآن

كاتب:

مناع القطان

نشرت فى الطباعة:

مؤسسة الرسالة

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٦	مباحث فى علوم القرآن
١٦	اشارة
١٦	مقدمة الطبعة الثالثة
١٦	مقدمة الطبعة الثانية
١٧	١- التعريف بالعلم و بيان نشأته و تطوره
٢١	٢- القرآن
٢١	اشارة
٢٢	تعريف القرآن
٢٣	أسمائه و أوصافه
٢٤	الفرق بين القرآن و الحديث القدسى و الحديث النبوى.
٢٤	الحديث النبوى:-
٢٥	الحديث القدسى:-
٢٥	الفرق بين القرآن و الحديث القدسى:-
٢٦	الفرق بين الحديث القدسى و الحديث النبوى:-
٢٧	٣- الوحى
٢٧	إمكانية الوحى و وقوعه:
٢٩	معنى الوحى
٢٩	كيفية وحي الله إلى ملائكته
٣١	كيفية وحي الله إلى رسله
٣١	اشارة
٣١	أ- منه الرؤيا الصالحة فى المنام،
٣٢	ب- و منه الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة يقظة:

- ٣٢ كيفية وحى الملك إلى الرسول -
- ٣٣ شبه الجاحدين على الوحي -
- ٣٨ متاهات المتكلمين:-
- ٣٩ - ٤- المكى و المدنى -
- ٣٩ اشارة
- ٤٠ عناية العلماء بالمكى و المدنى و أمثلة ذلك و فوائده
- ٤١ أمثلة:-
- ٤٣ فوائد العلم بالمكى و المدنى:-
- ٤٤ معرفة المكى و المدنى و بيان الفرق بينهما
- ٤٤ الفرق بين المكى و المدنى:-
- ٤٥ مميزات المكى و المدنى
- ٤٥ ضوابط المكى و مميزاته الموضوعية
- ٤٦ ضوابط المدنى و مميزاته الموضوعية:-
- ٤٦ - ٥- معرفة اول ما نزل و آخر ما نزل -
- ٤٦ اشارة
- ٤٧ اول ما نزل:
- ٤٩ آخر ما نزل:
- ٥٠ أوائل موضوعية:
- ٥١ فوائد هذا المبحث:-
- ٥١ اشارة
- ٥١ أ- بيان العناية التى حظى بها القرآن الكريم صيانة له و ضبطا لآياته:
- ٥٢ ب- إدراك أسرار التشريع الإسلامى فى تاريخ مصدره الأصيل:
- ٥٢ - ٦- اسباب النزول -
- ٥٢ اشارة

- ٥٢ عناية العلماء به:
- ٥٢ ما يعتمد عليه في معرفة سبب النزول
- ٥٣ تعريف السبب
- ٥٤ هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.
- ٥٤ فوائد معرفة سبب النزول
- ٥٦ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
- ٥٨ صيغة سبب النزول
- ٥٩ تعدد الروايات في سبب النزول
- ٦٢ تعدد النزول مع وحدة السبب:-
- ٦٢ تقدم نزول الآية على الحكم
- ٦٣ تعدد ما نزل في شخص واحد
- ٦٤ الاستفادة من معرفة أسباب النزول في مجال التربية والتعليم
- ٦٤ المناسبات بين الآيات و السور
- ٦٦ -٧- نزول القرآن
- ٦٦ اشارة
- ٦٦ نزول القرآن جملة
- ٦٩ نزول القرآن منجما
- ٧٠ حكمة نزول القرآن منجما
- ٧٠ اشارة
- ٧٠ ١- الحكمة الأولى:- تثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه و سلم:
- ٧١ ٢- الحكمة الثانية: التحدي و الإعجاز.
- ٧٢ ٣- الحكمة الثالثة: تيسير حفظه و فهمه:
- ٧٢ ٤- الحكمة الرابعة: مسابرة الحوادث و التدرج في التشريع.
- ٧٥ ٥- الحكمة الخامسة: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد:

- ٧٥ الاستفادة من نزول القرآن منجما في التربية و التعليم
- ٧٦ ٨- جمع القرآن و ترتيبه
- ٧٦ اشارة
- ٧٦ (١)- أ- جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي صلى الله عليه و سلم:-
- ٨٠ ٢- جمع القرآن في عهد أبي بكر رضى الله عنه:-
- ٨٢ ٣- جمع القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه:-
- ٨٥ شبه مردودة
- ٨٧ ترتيب الآيات و السور
- ٨٧ ترتيب الآيات:
- ٨٨ ترتيب السور:-
- ٩٠ سور القرآن و آياته
- ٩١ الرسم العثماني
- ٩٣ تحسين الرسم العثماني
- ٩٤ الفواصل و رؤوس الآى
- ٩٦ ٩- نزول القرآن على سبعة احرف
- ٩٦ اشارة
- ٩٧ [اختلف العلماء في المراد بها و الترجيح بينها]
- ١٠٣ حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف
- ١٠٣ ١٠- القراءات و القراء
- ١٠٣ اشارة
- ١٠٤ كثرة القراء و السبب في الاقتصار على السبعة
- ١٠٦ أنواع القراءات و حكمها و ضوابطها
- ١٠٨ فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة
- ١١٠ الوقف و الابتداء «١»

- التجويد و آداب التلاوة ١١١
- تعلم القرآن و الأجره عليه ١١٥
- ١١- القواعد التي يحتاج إليها المفسر ١١٥
- اشارة ١١٥
- ١- الضمائر ١١٦
- ٢- التعريف و التنكير ١١٧
- ٣- الإفراد و الجمع ١١٩
- ٤- مقابلة الجمع بالجمع أو بالمفرد ١١٩
- ٥- ما يظن أنه مترادف و ليس من المترادف ١٢٠
- ٦- السؤال و الجواب ١٢٠
- ٧- الخطاب بالاسم و الخطاب بالفعل ١٢١
- ٨- العطف ١٢١
- الفرق بين الإيتاء و الإعطاء ١٢٢
- اشارة ١٢٢
- لفظ «فعل» ١٢٣
- لفظ «كان» «١» ١٢٣
- «و كان للماضي الذي ما انقطعا» ١٢٣
- لفظ «كاد» ١٢٤
- لفظ «جعل» ١٢٥
- «لعل» و «عسى» ١٢٥
- ١٢- الفرق بين المحكم و المتشابه «١» ١٢٥
- اشارة ١٢٦
- الإحكام العامّ و التشابه العامّ ١٢٦
- الاحكام الخاصّ و التشابه الخاصّ ١٢٧

- الاختلاف فى معرفة المتشابهه ١٢٧
- التوفيق بين الرايين بفهم معنى التأويل ١٢٨
- التأويل المذموم ١٢٩
- ١٣- العام و الخاص ١٢٩
- اشارة ١٢٩
- تعريف العام و صيغ العموم ١٢٩
- أقسام العام ١٣١
- الفرق بين العام المراد به الخصوصى و العام المخصوص ١٣١
- تعريف الخاص و بيان المخصّص ١٣٢
- تخصيص السنّة بالقرآن ١٣٣
- صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقى ١٣٣
- ما يشمله الخطاب ١٣٣
- ١٤- الناسخ و المنسوخ ١٣٤
- اشارة ١٣٤
- تعريف النسخ و شروطه ١٣٤
- ما يقع فيه النسخ ١٣٥
- ما به يعرف النسخ و أهميته ١٣٥
- الآراء فى النسخ و أدلته ثبوته ١٣٦
- أقسام النسخ ١٣٧
- أنواع النسخ فى القرآن ١٣٨
- حكمة النسخ ١٣٩
- النسخ الى بدل و الى غير بدل ١٣٩
- شبه النسخ ١٤٠
- امثلة للنسخ ١٤٠

- ١٤٢ ١٥- المطلق و المقيد
- ١٤٢ اشارة
- ١٤٢ تعريف المطلق و المقيد
- ١٤٢ أقسام المطلق و المقيد و حكم كل منها
- ١٤٤ ١٦- المنطوق و المفهوم
- ١٤٤ اشارة
- ١٤٤ تعريف المنطوق و أقسامه
- ١٤٥ دلالة الاقتضاء و دلالة الاشارة
- ١٤٥ تعريف المفهوم و أقسامه
- ١٤٦ الاختلاف فى الاحتجاج به
- ١٤٧ ١٧- إعجاز القرآن
- ١٤٧ اشارة
- ١٤٨ تعريف الإعجاز و إثباته
- ١٤٩ وجوه إعجاز القرآن «١»
- ١٥١ القدر المعجز من القرآن
- ١٥١ الإعجاز اللغوى
- ١٥٤ الإعجاز العلمى
- ١٥٧ الإعجاز التشريعى
- ١٥٩ ١٨- أمثال القرآن
- ١٥٩ اشارة
- ١٦٠ تعريف المثل
- ١٦١ أنواع الأمثال فى القرآن
- ١٦٣ فوائد الأمثال
- ١٦٤ ١٩- اقسام القرآن

- ١٦٤ اشارة
- ١٦٤ تعريف القسم و صيغته
- ١٦٤ فائدة القسم فى القرآن
- ١٦٥ المقسم به فى القرآن
- ١٦٥ أنواع القسم
- ١٦٦ احوال المقسم عليه
- ١٦٧ القسم و الشرط
- ١٦٧ إجراء بعض الأفعال مجرى القسم:
- ١٦٨ - ٢٠- جدل القرآن «١»
- ١٦٨ اشارة
- ١٦٨ تعريف الجدل
- ١٦٩ طريقة القرآن فى المناظرة
- ١٧٠ أنواع من مناظرات القرآن و أدلته
- ١٧١ - ٢١- قصص القرآن
- ١٧١ اشارة
- ١٧١ معنى القصص
- ١٧٢ انواع القصص فى القرآن
- ١٧٢ فوائد قصص القرآن
- ١٧٢ تكرار القصص و حكمته
- ١٧٣ القصة فى القرآن حقيقة لا خيال
- ١٧٤ أثر القصص القرآنى فى التربية و التهذيب
- ١٧٤ - ٢٢- ترجمة القرآن
- ١٧٤ اشارة
- ١٧٥ معنى الترجمة

- ١٧٥ حكم الترجمة الحرفية
- ١٧٦ الترجمة المعنوية
- ١٧٦ حكم الترجمة المعنوية
- ١٧٦ الترجمة التفسيرية
- ١٧٧ القراءة في الصلاة بغير العربية
- ١٨٠ ٢٣- التفسير و التأويل
- ١٨٠ اشارة
- ١٨٠ معنى التفسير و التأويل
- ١٨٢ الفرق بين التفسير و التأويل
- ١٨٢ شرف التفسير
- ١٨٣ ٢٤- شروط المفسر و آدابه
- ١٨٣ اشارة
- ١٨٣ شروط المفسر
- ١٨٤ آداب المفسر
- ١٨٥ ٢٥- نشأة التفسير و تطوره «١»
- ١٨٥ اشارة
- ١٨٦ التفسير في عهد النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه
- ١٨٧ التفسير في عصر التابعين
- ١٨٩ التفسير في عصور التدوين
- ١٩٠ التفسير الموضوعي
- ١٩٠ طبقات المفسرين
- ١٩٢ التفسير بالمأثور و التفسير بالرأى
- ١٩٣ الاختلاف فيه
- ١٩٣ تجنب الاسرائيليات

- ١٩٤ حكم التفسير بالمأثور
- ١٩٤ التفسير بالرأى
- ١٩٥ حكم التفسير بالرأى
- ١٩٦ الاسرائليات
- ١٩٧ تفسير الصوفية
- ١٩٨ التفسير الإشارى
- ١٩٨ غرائب التفسير
- ١٩٩ التعريف بأشهر كتب التفسير
- ١٩٩ اشهر الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور
- ١٩٩ اشارة
- ١٩٩ ١- تفسير ابن عباس
- ٢٠١ ٢- جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى
- ٢٠٢ ٣- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية
- ٢٠٢ ٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير
- ٢٠٣ اشهر الكتب المؤلفة فى التفسير بالرأى
- ٢٠٣ اشارة
- ٢٠٣ ١- مفاتيح الغيب للرازى
- ٢٠٤ ٢- البحر المحيط لأبى حيان
- ٢٠٤ ٣- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأفاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى
- ٢٠٥ اشهر كتب التفسير فى العصر الحديث
- ٢٠٥ اشاره
- ٢٠٥ ١- الجواهر فى تفسير القرآن للشيخ طنطاوى جوهرى
- ٢٠٦ ٢- تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا
- ٢٠٦ ٣- فى ظلال القرآن لسيد قطب

- ٢٠٧-----٤- التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ
- ٢٠٨----- تفسير الفقهاء
- ٢٠٨----- اشارة
- ٢٠٨----- ١- أحكام القرآن للجصاص
- ٢٠٩----- ٢- أحكام القرآن لابن العربي
- ٢١٠----- ٣- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي
- ٢١٠----- - ٢٦- تراجم لبعض مشاهير المفسرين
- ٢١٠----- ابن عباس
- ٢١١----- مجاهد بن جبر
- ٢١٢----- الطبري
- ٢١٢----- ابن كثير
- ٢١٣----- فخر الدين الرازي
- ٢١٣----- الزمخشري
- ٢١٤----- الشوكاني
- ٢١٥----- المراجع
- ٢١٥----- تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

مباحث في علوم القرآن

إشارة

نام كتاب: مباحث في علوم القرآن

نويسنده: مناع القطان

موضوع: علوم قرآني

تاريخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربي

تعداد جلد: ١

ناشر: مؤسسة الرسالة

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ١٤٢١ / ٢٠٠٠

نوبت چاپ: سوم

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه. وبعد فهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ «مباحث في علوم القرآن» كانت طبعته الاولى استجابة لرغبة بعض إخواننا في تقديم أبحاث مختصرة عن أهم مباحث علوم القرآن. يستطيع شبابنا المسلم الذي لا يتيسر له التعمق في الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مؤونة البحث في مراجع هذا العلم و يجنبه عناء فهم أساليبها. وقد حظى الكتاب - على اختصاره - في تلك الطبعة برواج لم أكن أتوقعه. و نفذ من المكتبات.

ثم أحسست بالحاجة الملحة إلى طبعه مرة ثانية، فراجعته، و توافرت لدى الدواعي لتوضيح بعض فصوله، و زيادة موضوعات أخرى، فخرجت الطبعة الثانية أو في بحثا، و أكثر تنقيحا. و احتوت على خلاصة ما كتب في هذا الفن قديما و حديثا من غير حشو و لا تطويل، و لم يمض عليها سوى عام واحد حتى نفذ الكتاب كذلك.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦

ثم تتابع الطلب على الكتاب من رواد الثقافة الإسلامية. و من الجهات التعليمية المختلفة التي تعنى بهذا العلم، فلم أجد بدا من إخراجه في طبعته الثالثة مزيدا منقحا، و إن كانت الزيادة هذه المرة أقل من سابقتها. و أسأل الله تعالى ان يجعله نافعا مفيدا، و أن يرزقنا التوفيق و السداد.

مناع خليل القطان مدير المعهد العالي القضاء بالرياض

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله، نحمده و نستعينه و نستغفره، و نعوذ به من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله.

أما بعد:

فهذه مباحث في علوم القرآن توخيت فيها الإمام بما يحتاج إليه الطالب الدارس في دراسته، و الشاب المسلم في ثقافته، مع وضوح المعنى، و سهولة اللفظ، و جودة السبك، و حسن الترتيب ما استطعت إلى ذلك سبيلا، و الله المستعان.

هذا و قد طبع الكتاب الطبعة الأولى ثم نفذت، و هذه هي الطبعة الثانية أقدمها للقراء مزيدة منقحة، عسى الله أن ينفع بها، إنه سميع الدعاء.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩

١- التعريف بالعلم و بيان نشأته و تطوره

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدتها التقدم العلمي إلا رسوخا في الإعجاز، أنزله الله على رسولنا محمد صلى الله عليه و سلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، و يهديهم إلى الصراط المستقيم، فكان صلوات الله و سلامه عليه يبلغه لصحابته- و هم عرب خلص- فيفهمونه بسليقتهم، و إذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألو رسول الله صلى الله عليه و سلم عنها.

روى الشيخان و غيرهما عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ٨٢- الأَنْعَام) شق ذلك على الناس، فقالوا يا رسول الله: و أين لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، أ لم تسمعوا ما قال العبد الصالح (إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. ١٣- لقمان)؟ إنما هو الشرك».

و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يفسر لهم بعض الآيات.

أخرج مسلم و غيره عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول و هو على المنبر: (وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ. ٦٠-

الأَنْفَال) ألا إن القوة الرمي».

و حرص الصحابة على تلقي القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه و سلم و حفظه و فهمه، و كان ذلك شرفا لهم

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٠

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان الرجل منا إذا قرأ البقرة و آل عمران جدّ فينا» أي عظم.- رواه أحمد في مسنده.

و حرصوا كذلك على العمل به و الوقوف عند أحكامه.

روى عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن، كعثمان بن عفان و عبد الله بن مسعود و غيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعا». رواه عبد الرزاق بلفظ قريب من هذا.

و لم يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم في كتابة شيء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:

«لا تكتبوا عني، و من كتب عني غير القرآن فليمحاه، و حدثوا عني و لا حرج، و من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

و لئن كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك في كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و في خلافة أبي بكر و عمر رضي الله عنهما.

جاءت خلافة عثمان «١» رضي الله عنه، و اقتضت الدواعي- التي سندكرها فيما بعد «٢»- إلى جمع المسلمين على مصحف واحد، فتم

ذلك، وسمى بالمصحف الإمام، وأرسلت نسخ منه إلى الأمصار، وسميت كتابته بالرسم العثماني، نسبة إليه، و يعتبر هذا بداية «لعلم رسم القرآن».

ثم كانت خلافة علي رضي الله عنه، فوضع أبو الأسود الدؤلي بأمر منه قواعد النحو، صيانته لسلامة النطق، و ضبطا للقرآن الكريم، و يعتبر هذا كذلك بداية «لعلم إعراب القرآن».

(١) لقد جمع القرآن الكريم أول جمع في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله تعالى عنه بعد معركة اليمامة كما سيأتي.

(٢) أنظر بحث جمع القرآن في عهد عثمان.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١

استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن و تفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، و تفاوت ملازمتهم لرسول الله صلى الله عليه و سلم، و تناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين.

و من أشهر المفسرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة، و ابن مسعود، و ابن عباس، و أبي بن كعب، و زيد بن ثابت، و أبو موسى الأشعري، و عبد الله ابن الزبير.

و قد كثرت الرواية في التفسير عن: عبد الله بن عباس، و عبد الله بن مسعود، و أبي بن كعب. و ما روى عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن، و إنما يقتصر على معاني بعض الآيات، بتفسير غامضها، و توضيح مجملها.

أما التابعون، فاشتهر منهم جماعة، أخذوا عن الصحابة، و اجتهدوا في تفسير بعض الآيات.

فاشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبيرة، و مجاهد، و عكرمة، مولى ابن عباس، و طاوس بن كيسان اليماني، و عطاء بن أبي رباح.

و اشتهر من تلاميذ أبي بن كعب بالمدينة: زيد بن أسلم، و أبو العالبي، و محمد بن كعب القرظي.

و اشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق: علقمة بن قيس، و مسروق، و الأسود بن يزيد، و عامر الشعبي، و الحسن البصري، و قتادة بن دعامة السدوسي.

قال ابن تيمية: «و أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، و عطاء بن أبي رباح، و عكرمة مولى ابن عباس، و غيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاوس، و أبي الشعثاء، و سعيد بن جبيرة و أمثالهم، و كذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن

مسعود، و من ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، و علماء أهل المدينة في التفسير، مثل: زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، و أخذ عنه أيضا ابنه عبد الرحمن، و عبد الله بن وهب» «١»

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة ١٥.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢

و الذي روى عن هؤلاء جميعا يتناول: علم التفسير، و علم غريب القرآن، و علم أسباب النزول، و علم المكي و المدني، و علم الناسخ و المنسوخ، و لكن هذا كله ظل معتمدا على الرواية بالتلقين.

جاء عصر التدوين في القرن الثاني، و بدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة، و شمل ذلك ما يتعلق بالتفسير، و جمع بعض العلماء ما روى من تفسير للقرآن الكريم عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو عن الصحابة، أو عن التابعين.

و اشتهر منهم: يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هجرية، و شعبة ابن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية، و وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية، و سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية، و عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية.

و هؤلاء جميعا كانوا من أئمة الحديث، فكان جمهم للتفسير جمعا لباب من أبوابه، و لم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب. ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملًا للقرآن وفق ترتيب آياته، و اشتهر منهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هجرية.

و هكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقي و الرواية، ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم دون على استقلال و انفراد، و تتابع التفسير بالمأثور، ثم التفسير بالرأى.

و بإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعى فى موضوعات تتصل بالقرآن و لا يستغنى المفسر عنها.

فألف على بن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤ هجرية فى أسباب النزول.

و ألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية فى النسخ و المنسوخ، و فى القراءات.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٣

و ألف ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هجرية فى مشكل القرآن.

و هؤلاء من علماء القرن الثالث الهجرى.

و ألف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية الحاوى فى علوم القرآن.

و ألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية فى علوم القرآن.

و ألف أبو بكر السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية فى غريب القرآن.

و ألف محمد بن على الأدفوى المتوفى سنة ٣٨٨ هجرية «الاستغناء فى علوم القرآن».

و هؤلاء من علماء القرن الرابع الهجرى.

ثم تتابع التأليف بعد ذلك.

فألف أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ ه فى اعجاز القرآن و على بن إبراهيم ابن سعيد الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية فى اعراب

القرآن و الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ ه فى أمثال القرآن.

و العز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية فى مجاز القرآن.

و علم الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية فى علم القراءات.

و ابن القيم المتوفى ٧٥١ هجرية فى «أقسام القرآن».

و هذه المؤلفات يتناول كل مؤلف منها نوعاً من علوم القرآن و بحثاً من مباحثه المتصلة به.

أما جمع هذه المباحث و تلك الأنواع - كلها أو جلها - فى مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه «مناهل

العرفان فى علوم القرآن» (١) أنه ظفر فى دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط لعلى بن إبراهيم ابن

(١) انظر صفحة ٢٧ و ما بعدها ج ١، ط الحلبى.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٤

سعيد الشهير بالحوفى، اسمه «البرهان فى علوم القرآن» يقع فى ثلاثين مجلداً، يوجد منها خمسة عشر مجلداً غير مرتبة و لا متعاقبة، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشتمل عليه من علوم القرآن، مفرداً كل نوع بعنوان، فيجعل العنوان العام فى الآية (القول فى قوله عز و جل) و يذكر الآية، ثم يضع تحت هذا العنوان (القول فى الإعراب) و يتحدث عن الآية من الناحية النحوية و اللغوية، ثم (القول فى المعنى و التفسير) و يشرح الآية بالمأثور و المعقول، ثم (القول فى الوقف و التمام) و يبين ما يجوز من الوقف و ما لا- يجوز، و قد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول: (القول فى القراءات) و قد يتكلم عن الأحكام التى

تؤخذ من الآية عند عرضها.

و الحوفى بهذا النهج يعتبر أول من دون علوم القرآن، و إن كان تدوينه على النمط الخاص الآنف الذكر، و هو المتوفى سنة ٣٣٠ هـ. ثم تبعه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية في كتابه «فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن» (١). ثم جاء بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية و ألف كتابا و افيا سماه «البرهان في علوم القرآن» (٢). ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٢٤ هجرية في كتابه «مواقع العلوم من مواقع النجوم». ثم ألف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتابه المشهور «الإتقان في علوم القرآن». و لم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف فى عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى. فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامى اتجاها سديدا فى

(١) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة فى المكتبة التيمورية.

(٢) نشره و حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فى أربعة أجزاء.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٥

معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر، مثل كتاب «إعجاز القرآن» لمصطفى صادق الرافعى، و كتابى: «التصوير الفنى فى القرآن» و «مشاهد القيامة فى القرآن» للشهيد سيد قطب. و «ترجمة القرآن للشيخ محمد مصطفى المراعى»، بحث فيها لمحج الدين الخطيب، و «مسألة ترجمة القرآن» لمصطفى صبرى و «النبا العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز، و مقدمته تفسير «محاسن التأويل» لمحمد جمال الدين القاسمى.

و ألف الشيخ طاهر الجزائرى كتابا سماه «التيبان فى علوم القرآن» و ألف الشيخ محمد على سلامة كتابه «منهج الفرقان فى علوم القرآن» تناول فيه المباحث المقررة بكلية أصول الدين بمصر تخصص الدعوة و الارشاد و تلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فألف كتابه «مناهل العرفان فى علوم القرآن».

ثم الشيخ أحمد أحمد على فى «مذكرة علوم القرآن» التى ألقاها على طلابه بالكلية، قسم إجازة الدعوة و الإرشاد.

و صدر أخيرا «مباحث فى علوم القرآن» للدكتور صبحى الصالح.

و للاستاذ أحمد محمد جمال أبحاث على مائدة القرآن هذه المباحث جميعها هى التى تعرف بعلوم القرآن، حتى صارت علما على العلم المعروف بهذا الاسم.

و العلوم: جمع علم، و العلم: الفهم و الإدراك. ثم نقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطا علميا.

و المراد بعلوم القرآن: العلم الذى يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، و جمع القرآن و ترتيبه، و معرفة المكى و المدنى، و الناسخ

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٦

و المنسوخ، و المحكم و المتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن.

و قد يسمى هذا العلم بأصول التفسير، لأنه يتناول المباحث التى لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها فى تفسير القرآن (١).

(١) اكتفينا بهذا العرض التاريخى مع التعريف الاجمالى عن البحث فى لفظ «علوم القرآن» باعتباره مركبا اضافيا، و باعتباره علما على هذا الفن.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٧

-٢- القرآن

إشارة

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدى بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة، تقوده إلى الخير، وترشده إلى البر فحسب، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولا يحمل من الله كتابا يدعو إلى عبادة الله وحده، و يبشر و ينذر، لتقوم عليه الحجة (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لِيَلْمَا يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ. ١٦٥- النساء).

وظلت الإنسانية في تطورها و رقيها الفكرى و الوحي يعاودها بما يناسبها و يحل مشاكلها الوقتية في نطاق قوم كل رسول، حتى اكتمل نضجها، و أراد الله لرسالة محمد صلى الله عليه و سلم أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل.

ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة، و كتابه المنزل عليه، و هو القرآن الكريم ... «مثلى و مثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه و أجمله إلا موضع لبنه من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، و يعجبون منه، و يقولون: لو لا هذه اللبنة، فأنا اللبنة، و أنا خاتم النبيين» (١).

فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة، و قد تواترت النصوص الدالة على ذلك

(١) متفق عليه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٨

في الكتاب و السنة (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا. ١٥٨- الأعراف) (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا- ١- الفرقان) «و كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة، و بعث إلى الناس كافة» (١). و لن يأتى بعده رسالة أخرى (ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ٤٠- الأحزاب).

فلا غرو من أن يأتى القرآن و افيا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ- ١٣- الشورى).

و تحدى رسول الله صلى الله عليه و سلم العرب بالقرآن، و قد نزل بلسانهم، و هم أرباب الفصاحة و البيان، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله. أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، فثبت له الإعجاز، و بإعجازه ثبتت الرسالة.

و كتب الله له الحفظ و النقل المتواتر دون تحريف أو تبديل، فمن أوصاف جبريل الذى نزل به (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ - ١٩٣- الشعراء) و من أوصافه و أوصاف المنزل عليه (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ، وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ، وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ، وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ١٩- ٢٤- التكوير) (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، ٧٧- ٧٩- الواقعة).

و لم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة لأنها جاءت موقوته بزمن خاص، و صدق الله إذ يقول (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ - ٩- الحجر).

و تجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن

(١) فى الصحيحين من حديث «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ...»

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٩

(وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا

كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ - ٢٩ - ٣١ - (الأحقاف).

و القرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية في شتى مرافق الحياة، الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجا حكيما، لأنه تنزيل الحكيم الحميد، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافي في أسس عامه، ترسم الإنسانية خطاها، وتبنى عليها في كل عصر ما يلائمها، فاكسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان، فهو دين الخلود، وما أروع ما قاله داعية الإسلام في القرن الرابع عشر «الإسلام نظام شامل، يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة سواء بسواء» (١).

و الإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها، المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها، لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها الا القرآن (فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى - ١٢٣، ١٢٤ - طه).

و المسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى، فحري بهم أن ينفذوا أيديهم من كل بهرج زائف، و أن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام. و كما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر.

(١) من رسالة التعاليم للإمام الشهيد حسن الينا.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠

تعريف القرآن

قرأ: تأتي بمعنى الجمع والضم، والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، و القرآن في الأصل كالقراءة، مصدر قرأ قراءة و قرآنا.

قال تعالى (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ - ١٧، ١٨ - القيامة) أي قراءته، فهو مصدر على وزن «فعلان» بالضم كالغفران والشكران، تقول:

قرأته قراء و قراءة و قرآنا، بمعنى واحد. سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر.

و قد خص القرآن بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فصار له كالعلم الشخصي.

و يطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن، و على كل آية من آياته، فاذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن (وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا - ٢٠٤ - الأعراف).

و ذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمره كتبه، بل لجمعه ثمره جميع العلوم. كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله (وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ - ٨٩ - النحل) و قوله (مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ - ٣٨ - الأنعام) (١).

و ذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل في الاشتقاق، إما لأنه وضع علما مرتجلا على الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم و ليس مشتقا من قرأ، و إما لأنه من قرن الشيء بالشيء إذا ضمه إليه، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضا فالنون أصلية - و هذا رأى مرجوح، و الصواب الأول.

و القرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس و الفصول و الخواص. بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا، و الحد الحقيقي له هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو

(١) سياق الآية يدل على أن المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، و لكن القرآن مثبت كذلك في اللوح المحفوظ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١

مقروءاً باللسان فتقول هو ما بين هاتين الدفتين، أو تقول: هو (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... إلى قوله: مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ).

و يذكر العلماء تعريفاً له يقرب معناه و يميزه عن غيره، فيعرفونه بأنه:

كلام الله، المنزل على محمد صلى الله عليه و سلم، المتعبد بتلاوته. «فالكلام» جنس في التعريف، يشمل كل كلام، و إضافته إلى «الله» يخرج كلام غيره من الإنس و الجن و الملائكة.

و «المنزل» يخرج كلام الله الذي استأثر به سبحانه (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا- ١٠٩- الكهف) (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ- ٢٧- لقمان).

و تقييد المنزل بكونه «على محمد صلى الله عليه و سلم» يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة و الإنجيل و غيرهما.

و «المتعبد بتلاوته» يخرج قراءات الآحاد، و الأحاديث القدسية- إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها- لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة و غيرها على وجه العبادة، و ليست قراءة الآحاد و الأحاديث القدسية كذلك.

أسماءه و أوصافه

و قد سماه الله بأسماء كثيرة:

منها «القرآن» (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ٩- الإسراء) و «الكتاب» (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ١٠- الأنبياء).

و «الفرقان» (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا- ١- الفرقان).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢

و «الذكر» (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ- ٩- الحجر) و «التنزيل» (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٢- الشعراء) إلى غير ذلك مما ورد في القرآن.

و قد غلب من أسمائه: القرآن و الكتاب، قال الدكتور محمد عبد الله دراز:

«روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابا كونا مدونا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

و في تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور و السطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول الينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، و لا ثقة لنا بكتابه كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

و بهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز، إنجازا لوعده الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) و لم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف و التبديل و انقطاع السند» (١).

و بين سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد، و أن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من

الكتب و مهيمنا عليها، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدا عليها بما شاء الله زيادته، و كان سائرا مسيرها، و لم يكن شىء منها ليسد مسده، ففضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، و إذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه- و هو الحكيم العليم- و هذا تعليل جيد.

(١) النبأ العظيم- صفحة ١٢، ١٣- طبعه دار القلم بالكويت.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣

و وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك:- منها «نور» (يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ١٧٤- النساء).

و «هدى» و «شفاء» و «رحمة» و «موعظة» (يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٧- يونس).

و «مبارك» (و هذا كتاب أنزلناه مبارك مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ٩٢- الأنعام).

و «مبين» (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ ١٥- المائدة).

و «بشرى» (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧- البقرة).

و «عزيز» (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ٤١- فصلت).

و «مجيد» (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ٢١- البروج).

و «بشير» و «نذير» (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَ نَذِيرًا ٣، ٤- فصلت).

و كل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معاني القرآن.

الفرق بين القرآن و الحديث القدسي و الحديث النبوي.

سبق تعريف القرآن، و لكي نعرف الفرق بينه و بين الحديث القدسي و الحديث النبوي نعطي التعريفين الآتيين:

الحديث النبوي:-

الحديث في اللغة: ضد القديم، و يطلق و يراد به كل كلام يتحدث به و ينقل و يبلغ الانسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه، و بهذا المعنى

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤

أسمى القرآن حديثا (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ٨٧- النساء) و سمي ما يحدث به الإنسان في نومه (وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ١٠١- يوسف).

و الحديث في الاصطلاح: ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

فالقول: كقوله صلى الله عليه و سلم: «إنما الأعمال بالنيات، و إنما لكل امرئ ما نوى ...» (١).

و الفعل: كالذي ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي» (٢) و ما ثبت من كيفية حجه، و قد قال: «خذوا عني مناسككم» (٣).

و الإقرار: كأن يقر أمرا علمه عن أحد الصحابة من قول أو فعل. سواء أ كان ذلك في حضرته صلى الله عليه و سلم، أم في غيبته ثم بلغه، و من أمثله «أكل الضب على مائدته صلى الله عليه و سلم» (و ما روى من أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث رجلا على سرية، و كان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم ب (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة و السلام، فقال: سلوه لأى

شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن و أنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: أخبروه أن الله يحبه» (٤).

و الصفة! كما روى: «من أنه صلى الله عليه و سلم، كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب ولا فحاش ولا عتاب...».

(١) من حديث طويل رواه البخارى و مسلم عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه البخارى.

(٣) أخرجه مسلم و أحمد و النسائى.

(٤) رواه البخارى و مسلم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥

الحديث القدسى:-

عرفنا معنى الحديث لغه، و القدسى: نسبة إلى القدس، و هى نسبة تدل على التعظيم، لأن مادة الكلمة داله على التنزيه و التطهير فى اللغه، فالتقدیس: تنزيه الله تعالى، و التقديس: التطهير، و تقدس: تطهر، قال الله تعالى على لسان ملائكته (وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ ۝٣١- البقرة) أى نطهر أنفسنا لك.

و الحديث القدسى فى الاصطلاح: هو ما يضيفه النبى صلى الله عليه و سلم إلى الله تعالى: أى أن النبى صلى الله عليه و سلم يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول راو لكلام الله بلفظ من عنده و إذا رواه أحد رواه عن رسول الله مسندا إلى الله عز و جل، فيقول:- قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما يرويه عن ربه عز و جل، أو يقول:- قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى.

و مثال الأول: عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما يرويه عن ربه عز و جل: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل و النهار..» (١).

و مثال الثانى: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بى، و أنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، و إن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه..» (٢).

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أخرجه البخارى و مسلم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦

الفرق بين القرآن و الحديث القدسى:-

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم و الحديث القدسى أهمها:- ١- أن القرآن الكريم كلام الله أوحى به إلى رسول الله بلفظه، و تحدى به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، و لا يزال التحدى به قائما، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين.

و الحديث القدسى لم يقع به التحدى و الإعجاز.

٢- و القرآن الكريم لا ينسب إلّا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى.

و الحديث القدسي - كما سبق - قد يروى مضافاً إلى الله و تكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى، و قد يروى مضافاً إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و تكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه الصلاة و السلام هو المخبر به عن الله، فيقال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما يرويه عن ربه عز و جل.

٣- و القرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر، فهو قطعي الثبوت. و الأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد، فهي ظنية الثبوت. و قد يكون الحديث القدسي صحيحاً، و قد يكون حسناً، و قد يكون ضعيفاً.

٤- و القرآن الكريم من عند الله لفظاً و معنى، فهو وحى باللفظ و المعنى.

و الحديث القدسي معناه من عند الله و لفظه من عند الرسول صلى الله عليه و سلم على الصحيح فهو وحى بالمعنى دون اللفظ، و لذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين.

٥- و القرآن الكريم متعبد بتلاوته، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة (فَأَقْرُؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ٢٠- المزمّل) و قراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء في الحديث «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، و الحسنه بعشر أمثالها،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧

لا أقول الم حرف، و لكن ألف حرف، و لام حرف، و ميم حرف «١».

و الحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة، و يثيب الله على قراءته ثواباً عاماً، فلا يصدق فيه الثواب الذي ورد ذكره في الحديث على قراءة القرآن، بكل حرف عشر حسنة.

الفرق بين الحديث القدسي و الحديث النبوي:-

الحديث النبوي قسمان:

«قسم توقيفي» و هو الذي تلقى الرسول صلى الله عليه و سلم مضمونه من الوحي فينبه للناس بكلامه، و هذا القسم و إن كان مضمونه منسوبا إلى الله فإنه - من حيث هو كلام - حرى بأن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم، لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله و إن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره.

و «قسم توفيقى» و هو الذي استنبطه الرسول صلى الله عليه و سلم من فهمه للقرآن، لأنه مبين له، أو استنبطه بالتأمل و الاجتهاد. و هذا القسم الاستنباطى الاجتهادى يقره الوحي اذا كان صواباً، و اذا وقع فيه خطأ جزئى نزل الوحي بما فيه الصواب «٢» و ليس هذا القسم كلام الله قطعاً.

و يتبين من ذلك: أن الأحاديث النبوية بقسميها: التوقيفي، و التوفيقى الاجتهادى الذي أقره الوحي، يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعاً بجملتها إلى الوحي، و هذا معنى قوله تعالى في رسولنا صلى الله عليه و سلم (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ٣، ٤- النجم).

و الحديث القدسي معناه من عند الله عز و جل، يلقى إلى الرسول صلى الله عليه و سلم بكيفية من كفيات الوحي - لا على التعيين. أما ألفاظه فمن

(١) رواه الترمذى عن ابن مسعود و قال حديث حسن صحيح.

(٢) و مثاله ما كان في أسرى بدر، فان رسول الله صلى الله عليه و سلم أخذ برأى أبى بكر و قبل منهم الفداء، فنزل القرآن الكريم معاتباً له (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى... - ٦٧ الأنفال).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨

عند الرسول صلى الله عليه وسلم على الراجح ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن، ولوقع التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته.

و يرد على هذا شبهتان! الشبهة الأولى: أن الحديث النبوي وحى بالمعنى كذلك، واللفظ من الرسول صلى الله عليه وسلم فلما ذالا نسميه قدسيا أيضا؟

والجواب: أننا نقطع في الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله بقوله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى» ولذا سميناه قدسيا، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص، ويجوز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلما بالوحي (أى توقيفيا) وأن يكون مستنبطا بالاجتهاد (أى توفيقيا) ولذا سميناه الكل نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به، ولو كان لدينا ما يميز الوحي التوقيفي لسميناه قدسيا كذلك.

الشبهة الثانية: أنه إذا كان لفظ الحديث القدسي من الرسول صلى الله عليه وسلم فما وجه نسبته إلى الله بقوله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى».

والجواب: أن هذا سائغ في العريضة، حيث ينسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه، فأنت تقول حينما تشر بيتا من الشعر: يقول الشاعر كذا، وحينما تحكى ما سمعته من شخص: يقول فلان كذا، وقد حكى القرآن الكريم عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم، وأسلوب غير أسلوبهم، ونسب ذلك إليهم (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى، أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ، فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩

العالمين، أَنْ أَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ، فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُزْسَلِينَ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ - ١٠ - ٢٤ - الشعراء) (١).

(١) من ذهب إلى أن الحديث القدسي وحى باللفظ كذلك يجعل هذا فرقا أساسيا بينه وبين الحديث النبوي، ويبقى الفرق بينه وبين القرآن الكريم في عدم التحدى وعدم الإعجاز وعدم التعبد بتلاوته وعدم التواتر في معظمه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠

٣- الوحي

إمكانية الوحي ووقوعه:

ازدهرت الحياة العلمية وهددت أشعتها كل ريبه كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح، وآمن العلم المادى الذى وضع جل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالما غيبيا وراء هذا العالم المشاهد، وأن عالم الغيب أدق وأعمق من عالم الشهادة، وأكثر المخترعات الحديثه التى أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفى الذى عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره، وقرب هذا بعد الشقه بين التنكر للأديان والإيمان بها مصداقا لقوله تعالى (سُرِّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي

أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣- فصلت) و قوله (وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥- الإسراء).

فالبحوث النفسية الروحية لها في مضممار العلم الآن مكائنها، و يساندها و يقربها إلى الأفهام تفاوت الناس في مداركهم و ميولهم و غرائزهم، فمن العقول العبقري الفذ الذي يبتكر كل جديد، و منها الغبي الذي يستعصى عليه إدراك بديهي الأمور، و بين المنزلتين درجات. و النفوس كذلك، منها الصافي المشرق، و الخبيث المعتم.

و جسم الإنسان يطوى وراءه روحا هي سر حياته، و اذا كان الجسم

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١

تبلى ذراته و تفتنى أنسجته و خلاياه ما لم يتناول قسطه من الغذاء فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمددها بالطاقة الروحية كي تحتفظ بمقوماتها و قيمها.

و ليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوسا لها من نقاء الجوهر و سلامة الفطرة ما يعدها للفيض الالهي، و الوحي السماوي، و الاتصال بالملا الأعلى، ليلقى إليها برسالاته التي تسد حاجة البشر في رقي وجدانه، و سمو أخلاقه، و استقامة نظامه، و هؤلاء هم رسله و أنبيأؤه.

و لا غرابه في أن يكون هذا الاتصال بالوحي السماوي.

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسي، و هو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يحدث أثرا يقرب إلى الأفهام ظاهرة الوحي - حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة أن يتسلط بإرادته على من هو أضعف منه فينام نوما عميقا، و يكون رهن اشارته، و يلقيه ما يريد فيجري على قلبه و لسانه، و إذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة؟ «١».

و يسمع الناس الأحاديث المسجلة التي تحملها اليوم موجات الأثير، عابرة الوهاد و النجاد، و السهول و البحار، دون رؤية ذويها، بل بعد وفاتهم.

و أصبح الرجلان يتخاطبان في الهاتف، أحدهما في أقصى المشرق، و الآخر في أقصى المغرب، و قد يتراءيان مع هذا التخاطب، و لا يسمع الجالسون بجانبهما شيئا سوى أزيز كدوى النحل الذي في صفة الوحي.

و من منا ليس له حديث نفس في يقظته أو منامه يدور في خلده دون أن يرى متكلما أمامه؟ هذه و غيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحي.

و قد شاهد الوحي معاصروه، و نقل بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم

(١) أنظر النبا العظيم صفحة (٧٥).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢

القطعي إلى الأجيال اللاحقة، و لمست الإنسانية أثره في حضارة أمته، و قوة أتباعه، و عزتهم ما استمسكوا به، و انهيار كيانهم و خذلانهم ما فرطوا في جنبه، مما لا يدع مجالا للشك في إمكان الوحي و ثبوته، و ضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظلم النفسى بمتله العليا، و قيمه الروحية.

و لم يكن رسولنا صلى الله عليه و سلم أول رسول أوحى إليه، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَ يُونسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦٣، ١٦٤- النساء).

فليس هناك في نزول الوحي على محمد صلى الله عليه و سلم ما يدعو إلى العجب، و لذا أنكر الله على العقلاء هذا في قوله (أَكَانَ

لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ٢- يونس).

معنى الوحي

يقال: وحيت إليه و أوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، و الوحي:

الإشارة السريعة، و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز و التعريض، و قد يكون بصوت مجرد، و بإشارة ببعض الجوارح. و الوحي مصدر، و مادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: الخفاء و السرعة، و لذا قيل في معناه: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره، و هذا معنى المصدر، و يطلق و يراد به الموحى، أى بمعنى اسم المفعول. و الوحي بمعناه اللغوي يتناول:

١- الإلهام الفطرى للإنسان، كالوحي إلى أم موسى (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ٧- القصص).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٣

٢- و الإلهام الغريزى للحيوان، كالوحي إلى النحل (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨- النحل).

٣- و الإشارة السريعة على سبيل الرمز و الإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١- مريم).

٤- و وسوسة الشيطان و تزيينه الشر فى نفس الإنسان (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ١٢١- الأنعام) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ١١٢- الأنعام).

٥- و ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه (إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ١٢- الأنفال).

و وحي الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعا بأنه: - كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه. و هو تعريف له بمعنى اسم المفعول أى الموحى.

و عرفه الأستاذ محمد عبده فى رسالته التوحيد بأنه:

«عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، و الأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. و يفرق بينه و بين الإلهام بأن الإلهام: وجدان تستيقنه النفس فتتناسق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى؟ و هو أشبه بوجدان الجوع و العطش و الحزن و السرور.» (١)

و هو تعريف للوحي بالمعنى المصدرى، و بدايته و إن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف إلا أن الفرق بينه و بين الإلهام الذى جاء فى عجز التعريف ينفى هذا.

(١) انظر كتاب «الوحي المحمدي» للشيخ محمد رشيد رضا ص ٤٤.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٤

كيفية وحي الله إلى ملائكته

١- جاء فى القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا... - ٣٠- البقرة).

و على إيحائه إليهم:

(إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُّوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ ١٢- الأنفال).

و على قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره:

(فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ۚ ٤- الذاريات) (فَالْمِدْبَرَاتِ أَمْرًا ۚ ٥- النازعات) و هذه النصوص متآزره تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطه بكلام يفهمونه.

و يؤيد هذا ما جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة- أو قال رعدة- شديدة خوفا من الله عز و جل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا و خروا لله سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها، ما ذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل (قال الحق و هو العلى الكبير) فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز و جل». (١)

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحي تكلم من الله، و سماع من الملائكة، و هول شديد لأثره، و إذا كان ظاهره- فى مرور جبريل و انتهائه بالوحي- يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامه، و أصله فى الصحيح «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان».

(١) أخرجه الطبرانى.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٥

٢- و ثبت أن القرآن الكريم كتب فى اللوح المحفوظ لقوله تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ٢١، ٢٢- البروج) كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ١- القدر) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ٣- الدخان).

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ١٨٥- البقرة).

و فى السنة ما يوضح هذا النزول، و يدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب رسول الله صلى الله عليه و سلم، فعن ابن عباس موقوفا: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا) (١) (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (٢) (٣) و فى روايه «فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه و سلم» (٤).

و لذلك ذهب العلماء فى كيفية وحي الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية:- ١- أن جبريل تلقفه سماعا من الله بلفظه المخصوص.

ب- أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ.

ج- أن جبريل ألقى إليه المعنى- و الألفاظ لجبريل، أو لمحمد صلى الله عليه و سلم.

و الرأى الأول هو الصواب، و هو ما عليه أهل السنة و الجماعة، و يؤيده حديث النواس بن سمعان السابق.

(١). ٢٣- الفرقان.

(٢). ١٠٦- الإسراء.

(٣) أخرجه الحاكم و البيهقى و النسائى.

(٤) أخرجه الحاكم و ابن أبي شيبة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦

و نسبة القرآن إلى الله في أكثر من آية:- (وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ -٦- النمل).

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ -٦- التوبة).

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِنَا نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ١٥- يونس).

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد.

أما الرأي الثاني فلا- اعتبار له، إذ أن ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التي لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها.

و الرأي الثالث أنسب بالسنة لأنها وحي من الله أوحى إلى جبريل ثم إلى محمد صلى الله عليه و سلم بالمعنى، فعبر عنه رسول الله بعبارة (وَ مَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ٣، ٤- النجم) و لذا جازت رواية السنة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعاني دون القرآن.

و سبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن و الحديث القدسي و الحديث النبوي.

فمن خصائص القرآن: ١- أنه معجز- ٢- قطعي الثبوت ٣- يتعبد بتلاوته- ٤- و يجب اداؤه بلفظه، و الحديث القدسي- على القول بنزول لفظه- ليس كذلك.

و الحديث النبوي قسمان: الأول: ما اجتهد فيه الرسول صلى الله عليه و سلم، و هذا ليس وحيا و يكون إقرار الوحي له بسكوته إذا كان صوابا، و الثاني:

ما أوحى إليه بمعناه و اللفظ لرسول الله، و لذا يجوز روايته بالمعنى. و الحديث القدسي على القول الراجح بنزول معناه دون لفظه يكون من هذا القسم و نسبته إلى الله في الرواية لو ورد النص الشرعي على ذلك دون الأحاديث النبوية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧

كيفية وحي الله إلى رسله

إشارة

يوحي الله إلى رسله بواسطة و بغير واسطة.

فالأول: بواسطة جبريل ملك الوحي و سيأتي بيانه.

و الثاني: و هو الذي لا واسطة فيه.

أ- منه الرؤيا الصالحة في المنام،

فعن عائشة رضي الله عنها قالت:

«أول ما بدئ به صلى الله عليه و سلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» (١) و كان ذلك تهيئة لرسول الله حتى ينزل عليه الوحي يقظته، و ليس في القرآن شيء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظته، خلافا لمن ادعى نزول سورة «الكوثر» مناما للحديث الوارد فيها، ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه «بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم بين

أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءً ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «نزلت على آتفا سورة، فقرأ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)» ففعل الإغفاء هذه هي الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي.

و مما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب اتباعه ما جاء في قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل (٢) «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى؟ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبْتَلَى، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ - ١٠١ - ١١٢ - الصافات)

(١) متفق عليه.

(٢) هذا هو الصواب، خلافاً لمن ذهب إلى أنه اسحاق، فان البشارة كانت أولاً بإسماعيل قبل اسحاق، وإسماعيل هو الذي نشأ في الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح، وهو الحرى بأن يوصف بالحلم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨

و لو لم تكن هذه الرؤيا وحيًا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لو لا أن من الله عليه بالفداء. و الرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول، فهي باقية للمؤمنين و إن لم تكن وحيًا كما قال عليه الصلاة والسلام «انقطع الوحي و بقيت المبشرات، رؤيا المؤمن». (١)

و الرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي المذكور في قوله تعالى (ما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجابٍ أو يُرسلَ رسولًا فيوحى بإذنه ما يشاء إنَّه علىٰ حكيمةٍ ٥١- الشورى).

ب- و منه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة:

و هو ثابت لموسى عليه السلام (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ١٤٣- الأعراف) (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦٤- النساء).

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء و المعراج. و هذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) و ليس في القرآن شيء منه كذلك.

كيفية وحي الملك إلى الرسول

وحي الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة، و هو ما ذكرناه آنفاً، و كان منه الرؤيا الصالحة في المنام، و الكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة- و إما أن يكون بواسطة ملك الوحي و هو الذي يعيننا في هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به. و لا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول من إحدى حالتين:-

(١) أصل الحديث في الصحيحين و غيرهما، و لفظ البخاري: «لم يبق من النبوة إلا- المبشرات، قالوا و ما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة».

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٩

الحالة الأولى:- وهي أشد على الرسول- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس و الصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتهيأ النفس بكل قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول صلى الله عليه و سلم نزل عليه و هو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه و حفظه و فهمه، و قد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه في الحديث «إذا قضى الله لأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان» (١) و قد يكون صوت الملك نفسه في أول سماع الرسول له.

و الحالة الثانية:- أن يتمثل له الملك رجلا و يأتيه في صورة بشر، و هذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون تناسب بين المتكلم و السامع، و يأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي، و يطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

و الهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته، و لا يعنى أن ذاته انقلبت رجلا. بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنسا للرسول البشرى، و لا شك أن الحالة الأولى- حالة الصلصلة- لا يوجد فيها هذا الإيناس، و هي تحتاج إلى سمو روحى من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك فكانت أشد الحاليتين عليه، لأنها كما قال ابن خلدون «انسلاخ من البشرية الجسمانية و اتصال بالملكية الروحانية، و الحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضه إلى البشرية الجسمانية». و كلتا الحاليتين مذكور فيما روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال:

يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

«أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس، و هو أشده على، فيفصم عنى و قد وعيت عنه ما قال. و أحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول»؟ و روت

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٠

عائشة رضى الله عنها ما كان يصيب رسول الله صلى الله عليه و سلم من شدة فقالت: «و لقد رأيتہ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه و إن جبينه ليتفصد عرقا» (١).

و الحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهى المشار إليه في الآية (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ. ١- إِلَّا وَحِيًّا ٢- أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ٣- أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥١- الشورى).

أما النفث في الروح، أى القلب، فقد ذكر في قول الرسول صلى الله عليه و سلم «إن روح القدس نفث في روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها و أجلها، فاتقوا الله و أجملوا فى الطلب» (٢) و الحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحاليتين المذكورتين فى حديث عائشة، فيأتيه الملك فى مثل الصلصلة و ينفث فى روعه، أو يتمثل له رجلا و ينفث فى روعه. و ربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم.

شبه الجاحدين على الوحي

و قد حرص الجاهليون قديما و حديثا على إثارة الشبه فى الوحي عتوا و استكبارا، و هى شبه واهية مردودة.

١- زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد صلى الله عليه و سلم، ابتكر معانيه، و صاغ أسلوبه، و ليس وحيا يوحى.

و هذا زعم باطل، فإنه عليه الصلاة و السلام إذا كان يدعى لنفسه الزعامه و يتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له فى

أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره، و كان فى استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه، و يكون ذلك كافيا

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية بسند صحيح.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٤١

لرفعة شأنه، و التسليم بزعامته، ما دام العرب جميعا على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته، بل ربما كان هذا أذى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه.

ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحي الإلهي أن يجعل لكلامه حرمة تفوق كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته و إنفاذ أوامره، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوي و لم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئا، و لو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى.

و هذا الادعاء يفترض فى رسول الله أنه كان من أولئك الزعماء الذين يعبرون الطريق فى الوصول إلى غايتهم على قنطرة من الكذب و التمويه، و هو افتراض ياباه الواقع التاريخي فى سيرته عليه الصلاة و السلام، و ما اشتهر به من صدق و أمانة شهد له بهما أعداؤه قبل أصدقائه.

لقد اتهم المنافقون زوجته عائشة بحديث الإفك، و هى أحب زوجاته إليه، و اتهامها يمس كرامته و شرفه، و أبطأ الوحي، و تخرج الرسول صلى الله عليه و سلم و تخرج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر، و بذل جهده فى التحرى و الاستشارة، و مضى شهر بأكمله، و لم يزد على أن قال لها آخر الأمر «أما إنه بلغنى كذا و كذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، و إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله» (١) و ظل هكذا إلى أن نزل الوحي ببراءتها، فما ذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلاما يقطع به السنة المتخربين، و يحمى عرضه؟ و لكنه ما كان ليذر الكذب على الناس و يكذب على الله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ٤٤-٤٧-الحاقة).

و استأذن جماعة فى التخلف عن غزوة تبوك و أبدوا أعدارا و كان منهم من

(١) راجع حديث الإفك فى الصحيحين و فى غيرهما، و تفسير القصة فى سورة النور.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٤٢

انتحل هذه الأعدار من المنافقين و أذن لهم، فنزل القرآن الكريم معاتباً له لخطأ رأيه (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ؟ ٤٣- التوبة) و لو كان هذا العقاب صادرا عن وجدانه تعبيراً عن ندمه حين تبين له فساد رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد و العتاب القاسى.

و نظير هذا معاتبته صلى الله عليه و سلم فى قبول الفداء من أسرى بدر (ما كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْ لَا- كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٧، ٦٨- الأنفال) و معاتبته فى توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضى الله عنه اهتماما بنفر من أكابر قريش فى دعوتهم إلى الإسلام (عَبَسَ وَ تَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذُّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَ مَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى، وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَ هُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى، كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ١- ١١- عبس).

و المعهود فى سيرته صلى الله عليه و سلم أنه كان منذ نعومة أظفاره مثلاً فريداً فى حسن الخلق، و كريم السجيا .. و صدق اللهجة، و إخلاص القول و العمل، و قد شهد له بهذا قومه عند ما دعاهم فى مطلع الدعوة و قال لهم: «أ رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بظهر هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أ كنتم مصدقياً؟ قالوا نعم، ما جربنا عليك كذبا» و كانت سيرته العطرة مهوى أفئدة الناس إليه للدخول

في الإسلام، عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله، قدم رسول الله، فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استتبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب». (١)

و صاحب هذه الصفات العظيمة التي يتوجها الصدق ما ينبغي لأحد أن

(١) رواه الترمذى بسند صحيح.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٣

يمتري في قوله حينما أعلن عن نفسه بأنه ليس واضع ذلك الكتاب (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ١٥- يونس).

٢- و زعم الجاهليون قديما و حديثا أنه عليه الصلاة و السلام كان له من حدة الذكاء، و نفاذ البصيرة، و قوة الفراسة، و شدة الفطنة، و صفاء النفس، و صدق التأمل، ما يجعله يدرك مقاييس الخير و الشر، و الحق و الباطل، بالإلهام، و يتعرف على خفايا الأمور بالكشف و الوحي النفسى، و لا يخرج القرآن عن أن يكون أثرا للاستنباط العقلى، و الإدراك الوجدانى عبر عنه محمد بأسلوبه و بيانه.

و أى شىء فى القرآن يعتمد على الذكاء و الاستنباط و الشعور؟

فالجانب الأخبارى- و هو قسم كبير من القرآن- لا يمارى عاقل فى أنه لا يعتمد إلا على التلقى و التعلم.

لقد ذكر القرآن أنباء من سبق من الأمم و الجماعات و الأنبياء و الأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذى يضرب فى أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر و دقة الفراسة، و لم يعاصر محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأمم و هذه الأحداث فى قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها و ينقل أنبائها، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها و يروى أخبارها (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرُبَىٰ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مِوَسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَ لَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٤٤، ٤٥- القصص) (تلك من أنباء الغيب يُوحى إليك ما كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ٤٩- هود) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ٣- يوسف) (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ٤٤- آل عمران).

و منها أنباء دقيقة تناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٤

ففى قصة نوح (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سِنٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ ١٤- العنكبوت) و هذا موافق لما جاء فى سفر التكوين من التوراة. و فى قصة أصحاب الكهف (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِتِّينَ وَ أَزْدَادُوا تِسْعًا ٢٥- الكهف) و هى عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية، و السنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية و القمرية.

فمن أين أتى محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يوحى إليه و هو الرجل الأمى الذى عاش فى أمة أمية لا تكتب و لا تحسب؟

و قد كان أهل الجاهلية الأولى أذكى من ملاحدة الجاهلية المعاصرة، فإن أولئك لم يقولوا إن محمدا استقى هذه الأخبار من وحي نفسه كما يقول هؤلاء، بل قالوا إنه درسها و أمليت عليه (وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا ٥- الفرقان) و لم يتلق رسول الله صلى الله عليه وسلم درسا على معلم قط- كما سيأتى- فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة بعد أن بلغ سن الأربعين؟ (إن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ٤- النجم).

هذا فى الجانب الأخبارى.

أما في سائر العلوم التي تضمنها القرآن فإن قسم العقائد يتناول كذلك أمورا تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته. و الحياة الآخرة و ما فيها من الجنة و نعيمها، و النار و عذابها، و ما يتبع ذلك من الملائكة و أوصافهم و وظائفهم- و هذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل و قوة الفراسة البتة (و ما جعلنا أضيحاب النار إلا ملائكة و ما جعلنا عدتهم إلا فتنه للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب و يزداد الذين آمنوا إيمانا ٣١- المدثر) (و ما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٣٧- يونس).

ناهيك بما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل التي تجرى على سنن الله الاجتماعية، في القوة و الضعف، و الصعود و الهبوط، و العزة و الذلة،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٥

و البناء و الدمار (وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم و وليدلتهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ٥٥- النور) (و ليصبرن الله من ينصبره إن الله لقيوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و أمرؤا بالمعروف و نهؤا عن المنكر و لله عاقبة الأمور ٤٠، ٤١- الحج) (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٥٣- الأنفال).

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم قد حكي عن رسول الله اتباعه للوحي (و إذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ٢٠٣- الأعراف) و أنه بشر لا يعلم الغيب و لا يملك من أمر نفسه شيئا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد ١١٠- الكهف) (قل لا أمالك لنفسي نفعا و لا ضرا إلا ما شاء الله و لو كنت أعلم الغيب لاستتكرت من الخير و ما مسني الشوء إن أنا إلا نذير و بشير ١٨٨- الأعراف).

و قد كان عليه الصلاة و السلام عاجزا عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ليقضى بينهما و هو يسمع أقوالهما فهو بلا شك أشد عاجزا عن إدراك ما فات و ما هو آت: «سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر و إنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضى له بذلك.

فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليركها» (١).

قال الدكتور محمد عبد الله دراز «هذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأى علمي جديد، و ما هو بجديد، و إنما هو الرأي الجاهلي القديم، لا يختلف عنه في جملته و لا في تفصيله، فقد صوروا النبي صلى الله عليه و سلم رجلا ذا خيال واسع

(١) رواه البخاري و مسلم و أصحاب السنن

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٦

و إحساس عميق فهو إذا شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيرا على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى و يسمع شخصا يكلمه، و ما ذاك الذي يراه و يسمعه إلا صورة أخيلته و وجداناته فهو إذا الجنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطبقوا الثبات طويلا على هذه التعليقات، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة «الوحي النفسي» حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية و المستقبلية، فقالوا: لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة، فهو إذا قد علمه بشر، فأى جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثا معادا يضاؤون به قول جهال قريش؟ و هكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منتسخة، بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه، و كان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمدا من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ١١٨- البقرة).

و إن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله أنه كان صادقا أميناً، و أنه كان معذورا في نسبه رؤاه إلى الوحي الإلهي، لأن أحلامه القوية صورتها له و حيا إلهيا، فما شهد إلا بما علم، و هكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول (فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ٣٣- الأنعام) فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه و سماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنبياء لا هو لا- قومه من قبل هذا، بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا إذا إنه افتراه ليتهم بذلك محاكاة كل الأقبائل، و لكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف و التعقل، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون «١».

٣- و زعم الجاهليون قديما و حديثا أن محمدا قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم.

(١) راجع النبأ العظيم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٧

و هذا حق، إلا أن المعلم الذي تلقى عنه القرآن هو ملك الوحي، أما أن يكون له معلم آخر من قومه، أو من غير قومه فلا. إنه عليه الصلاة و السلام قد نشأ أميا و عاش أميا، في أمه أمية لم يعرف فيها أحد يحمل و سام العلم و التعليم، و هذا واقع يشهد به التاريخ، و لا مريه فيه.

أما أن يكون له معلم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع في التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقي أحدا من العلماء حدثه عن الدين قبل إعلان نبوته.

حقيقته إنه رأى في طفولته بحيرا الراهب في سوق بصرى بالشام، و لقي في مكه ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحي، و لقي بعد الهجرة علماء من اليهود و النصارى، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئا من الأحاديث قبل نبوته، أما بعد النبوة، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه و يأخذون عنه، و لو كان رسول الله صلى الله عليه و سلم أخذ شيئا عن واحد منهم لما سكت التاريخ عنه.

لأنه ليس من الهنات الهيئات التي يتغاضى عنها الناس، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد، و الكلمات التي ذكرها التاريخ عن راهب الشام أو ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوته عليه الصلاة و السلام «١» أو اعترافا بها «٢».

و نقول لهؤلاء الذين يزعمون أن محمدا كان يعلمه بشر: ما اسم هذا المعلم؟

و عندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعي في «حداد رومي» ينسبون إليه ذلك، فكيف يستساغ عقلا أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه مكه عالما متفرغا لدراسة الكتب؟ بل عرفته حدادا منهمكا في مطرقة و سندانه، «٣»

(١) قال بحيرى عند ما رأى في رسول الله صلى الله عليه و سلم سيما النبوة: «ان هذا الغلام سيكون له شأن عظيم».

(٢) قال ورقة عند ما سمع قصة النبي صلى الله عليه و سلم من صفة الوحي و قد أخذته خديجة إليه يرجف فؤاده «هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك، قال:

أو مخرجي هم؟ قال نعم، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا أودى، و إن يدركنى قومك انصرك نصرا مؤزرا».

(٣) كان غلاما نصرانيا، و اختلف أهل السيرة في اسمه، فقيل: اسمه سبيعه، و قيل: يعيش، و قيل:

بلعام.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٨

عامي الفؤاد، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب (وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ١٠٣- النحل).

ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعانا في خصومة محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم عجزوا ووجدوا السبل أمامهم مغلقة، وباءت كل محاولاتهم بالفشل، فما للملحدين اليوم- وقد مضى أربعة عشر قرنا على ذلك- يبحثون في قمامات التاريخ ملتسمين سبيلا من تلك السبل الفاشلة نفسها؟! وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنساني، لا في نفس صاحبه، ولا عند أحد من البشر، فهو تنزيل الحكيم الحميد.

ونشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيئته أمية جاهلية، وسيرته بين قومه، من أقوى الدلائل على أن الله قد أعده لحمل رسالته، وأوحى إليه بهذا القرآن هداية لأمته (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ).

٥٢، ٥٣- الشورى) يقول الأستاذ محمد عبده في رسالة التوحيد: «من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لا سيما إن كان من ذوى قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جرى السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهد «١».

(١) كأمية بن أبي الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٤٩

ولكن الأمر لم يجر على سننه، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليفة، وما جاء في الكتاب من قوله: (وَوَحَيْدَكَ ضَالًّا فَهْدَى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاشى لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

مناهاة المتكلمين:

وقد خاض المتكلمون في بيان كلام الله على نهج الفلاسفة فأوقعوا الناس في مناهاة أضلّتهم عن سواء السبيل، حيث قسموا كلام الله تعالى إلى قسمين:

نفسى قديم قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة، وكلام لفظى هو المنزل على الأنبياء عليهم السلام، ومنه الكتب الأربعة، وأغرق علماء الكلام في خلافاتهم الكلامية المبتدعة: أ يكون القرآن بهذا المعنى الثانى مخلوقا أم لا؟ و رجحوا أن يكون مخلوقا، و خرجوا بذلك عن منهج السلف الصالح فيما لم يرد به كتاب ولا سنة، و تناولوا صفات الله بالتحليل الفلسفى الذى يؤدى إلى التشكيك فى عقيدة التوحيد.

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات أو أثبتته رسوله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه، وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة من صفاته تعالى، قال سبحانه (وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦٤- النساء) وأن القرآن الكريم- وهو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم- كلام الله غير مخلوق، قال تعالى (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ٦- التوبة) وإثبات هذا ونحوه مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله وإن كان يوصف به العباد فإنه

لا ينافي كمال تنزيهه تعالى عما لا يليق به من نقائص عباده، ولا يقتضى مماثلته لهم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٠

إذ أن الاشتراك في الأسماء لا يقتضى الاشتراك في المسميات، فشتان بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات والأفعال، فذاته تعالى أكمل، وصفاته أسمى، وأفعاله أتم وأعلى، وإذا كان الكلام صفة كمال للمخلوق فكيف ينتفى هذا عن الخالق؟ ويسعنا ما وسع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و علماء التابعين وأئمة الحديث والفقه في العصور المشهود لها بالخير قبل ظهور بدعة المتكلمين من الإيمان بما جاء عن الله أو صح عن رسوله في صفاته تعالى وأفعاله إثباتاً ونفياً من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل، وليس لنا أن نحكم رأينا في كنه ذات الله أو كيفية صفاته (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. ١١-الشورى).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥١

٤- المكي والمدني

إشارة

تولى الأمم اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكري ومقومات حضارتها، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق في عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التي شرفت بها الإنسانية جمعاء، لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها، وإنما هي - فوق زاداها الفكري وأسسها الإصلاحية- دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب، فنجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطا يحدد الزمان والمكان، وهذا الضبط عماد قوى في تاريخ التشريع يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعوة، وألوان الخطاب، والتدرج في الأحكام والتكاليف، ومما روى في ذلك ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: «و الله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه» (١).

و الدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص في أسلوبها إزاء كل فساد في العقيدة والتشريع والخلق والسلوك، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة

(١) أخرجه البخارى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٢

لها وتربية اللبنة التي تأخذ على عاتقها القيام بها، ولا تسن أسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة.

والذي يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية في وقعها ومعانيها، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى في الأحكام والتشريع.

فحيث كان القوم في جاهلية تعمى وتصم، يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، وينكرون الوحي، ويكذبون بيوم الدين، وكانوا يقولون: (أ إذا ميتنا وكننا تراباً وعظاماً أ إنا لمبعوثون ١٦- الصافات) (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ٢٤- الجاثية) وهم ألداء في الخصومة، أهل ممرارة ولجاجة في القول عن فصاحة وبيان- حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة، وشهبا منذرة، وحججا قاطعة، يحطم وثنيهم في العقيدة، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية، ويهتك أستار

فسادهم، و يسفه أحلامهم، و يقيم دلائل النبوة، و يضرب الأمثلة للحياة الآخرة و ما فيها من جنه و نار، و يتحداهم - على فصاحتهم - بأن يأتوا بمثل القرآن، و يسوق إليهم قصص المكذبين الغابرين عبرة و ذكرى، فتجد في مكي القرآن ألفاظا شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شرر الوعيد و ألسنة العذاب، فكلا الرادعة الزاجرة، و الصاخة و القارعة، و الغاشية و الواقعة، و ألفاظ الهجاء في فواتح السور، و آيات التحدى في ثناياها، و مصير الأمم السابقة، و إقامة الأدلة الكونية، و البراهين العقلية - كل هذا نجده في خصائص القرآن المكي.

و حين تكونت الجماعة المؤمنة بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و بالقدر خيره و شره، و امتحنت في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت و هاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على متع الحياة - حين تكونت هذه الجماعة - نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام و حدوده، و تدعو إلى الجهاد و الاستشهاد في سبيل الله، و تفصل أصول التشريع، و تضع قواعد مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٣

المجتمع، و تحدد روابط الأسرة، و صلات الأفراد، و علاقات الدول و الأمم، كما تفضح المنافقين و تكشف دخيلتهم، و تجادل أهل الكتاب و تلجم أفواههم - و هذا هو الطابع العام للقرآن المدني.

عناية العلماء بالمكي و المدني و أمثلة ذلك و فوائده

و قد عنى العلماء بتحقيق المكي و المدني عناية فائقة، فتبعوا القرآن آية آية، و سورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان و المكان و الخطاب، لا - يكتفون بزمان النزول، و لا - بمكانه، بل يجمعون بين الزمان و المكان و الخطاب، و هو تحديد دقيق يعطى للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكي و المدني، و هو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى. إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحلها، و يتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها، و يحدد مكانه، و يضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أ هو من قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعينا بموضوع السورة أو الآية، أ هو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة؟ و إذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجح بينها فجعل بعضها شبيها بما نزل في مكة، و بعضها شبيها بما نزل في المدينة.

و إذا كانت الآيات نزلت في مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها في مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك، فقالوا: ما حمل من مكة إلى المدينة، و ما حمل من المدينة إلى مكة.

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب التنبيه على فضل علوم القرآن: «من أشرف علوم القرآن علم نزوله و جهاته، و ترتيب ما نزل بمكة و المدينة، و ما نزل بمكة و حكمه مدني، و ما نزل بالمدينة و حكمه مكي، و ما نزل بمكة في أهل المدينة، و ما نزل بالمدينة في أهل مكة، و ما يشبه نزول

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٤

المكي في المدني، و ما يشبه نزول المدني في المكي، و ما نزل بالجحفة، و ما نزل بيت المقدس، و ما نزل بالطائف، و ما نزل بالحديبية، و ما نزل ليلا، و ما نزل نهارا، و ما نزل مشيعا «١»، و ما نزل مفردا، و الآيات المدنية من السور المكية، و الآيات المكيات في السور المدنية، و ما حمل من مكة إلى المدينة، و ما حمل من المدينة إلى مكة، و ما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، و ما نزل مجملا، و ما نزل مفسرا، و ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم مدني و بعضهم مكي، فهذه خمسة و عشرون وجها من لم يعرفها و يميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى» «٢».

و حرص العلماء على الدقة، فرتبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة، و قالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا، و ازدادوا حرصا في

الاستقصاء. ففرقوا بين ما نزل ليلاً و ما نزل نهاراً، و ما نزل صيفاً و ما نزل شتاءً، و ما نزل في الحضر و ما نزل في السفر. و أهم الأنواع التي يتدارسها العلماء في هذا المبحث: ١- ما نزل بمكة- ٢- ما نزل بالمدينة- ٣- ما اختلف فيه- ٤- الآيات المكية في السور المدنية- ٥- الآيات المدنية في السور المكية- ٦- ما نزل بمكة و حكمه مدني- ٧- ما نزل بالمدينة و حكمه مكي- ٨- ما يشبه نزول المكي في المدني- ٩- ما يشبه نزول المدني في المكي- ١٠- ما حمل من مكة إلى المدينة- ١١- ما حمل من المدينة إلى مكة- ١٢- ما نزل ليلاً و ما نزل نهاراً- ١٣- ما نزل صيفاً و ما نزل شتاءً- ١٤- ما نزل في الحضر و ما نزل في السفر. فهذه أنواع أساسية، يركز محورها على المكي و المدني، و لذا سمي هذا «بعلم المكي و المدني».

(١) كالذي روى في بعض السور و الآيات مثل سورة الأنعام، و سورة الفاتحة، و آية الكرسي.

(٢) أنظر «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ج ١، صفحة (٨) الطبعة الثالثة للحلبي.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٥

أمثلة:-

١، ٢، ٣- أقرب ما قيل في تعداد السور المكية و المدنية إلى الصحة، أن المدني عشرون سورة: ١- البقرة- ٢- آل عمران- ٣- النساء- ٤- المائدة- ٥- الأنفال- ٦- التوبة- ٧- النور- ٨- الأحزاب- ٩- محمد- ١٠- الفتح- ١١- الحجرات- ١٢- الحديد- ١٣- المجادلة- ١٤- الحشر- ١٥- الممتحنة- ١٦- الجمعة- ١٧- المنافقون- ١٨- الطلاق- ١٩- التحريم- ٢٠- النصر. و أن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة- ١- الفاتحة- ٢- الرعد- ٣- الرحمن- ٤- الصف- ٥- التغابن- ٦- التطهيف- ٧- القدر- ٨- البينة- ٩- الزلزلة- ١٠- الإخلاص- ١١- الفلق- ١٢- الناس.

و أن ما سوى ذلك مكي. و هو اثنتان و ثمانون سورة، فيكون مجموع سور القرآن مائة و أربع عشرة سورة.

٤- الآيات المكية في السور المدنية: لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية، و في المدنية بعض آيات مكية، و لكنه وصف أغلبى حسب أكثر آياتها، و لذا يأتي في التسمية: سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية، و سورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية- كما نجد ذلك في المصاحف.

و من أمثلة الآيات المكية في السور المدنية «سورة الأنفال» مدنية، و استثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتُوكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ٣٠- الأنفال) قال مقاتل في هذه الآية: نزلت بمكة، و ظاهرها كذلك، لأنها تضمنت ما كان من المشركين في دار الندوة عند تأمرهم على رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل الهجرة. و استثنى بعضهم كذلك (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٦٤- الأنفال) لما أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٦

٥- الآيات المدنية في السور المكية، و من أمثلة الآيات المدنية في السور المكية «سورة الأنعام» قال ابن عباس نزلت بمكة جملة واحدة. فهي مكية إلا- ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ... إلى تمام الآيات الثلاث- ١٥١- ١٥٣- الأنعام)، و «سورة الحج» مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة، من أول قوله تعالى (هَذَا خِطَابٌ لِّالَّذِينَ أَحْتَضَمُوا فِي رَجَبِهِمْ ...- ١٩- الحج).

٦- ما نزل بمكة و حكمه مدني. و يمثلون له بقوله تعالى (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ- ١٣- الحجرات) فانها نزلت بمكة يوم الفتح، و هي مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة، و

الخطاب فيها عام، و مثل هذا لا يسميه العلماء مكيا، كما لا يسمونه مدنيا على وجه التعيين، بل يقولون فيه: ما نزل بمكة و حكمه مدني.

٧- ما نزل بالمدينة و حكمه مكى: و يمثلون له بسورة الممتحنة، فإنها نزلت بالمدينة، فهي مدينة باعتبار المكان، و لكن الخطاب في ثنائها توجه إلى مشركي أهل مكة ... و مثل هذا صدر سورة براءة نزل بالمدينة، و الخطاب فيه لمشركي أهل مكة.

٨- ما يشبه نزول المكى في المدني:- و يعنى العلماء به ما كان في السور المدنية من آيات جاء أسلوبها في خصائصه و طابعه العام على نمط السور المكية، و من أمثله قوله تعالى في سورة الأنفال- و هي مدنية (وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢- الأنفال) فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة.

٩- ما يشبه نزول المدني في المكى: و يعنى العلماء به ما يقابل النوع السابق، و يمثلون له بقوله تعالى في سورة النجم (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ٣٢- النجم) قال السيوطي: فإن الفواحش كل ذنب مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٧

فيه حد، و الكبائر كل ذنب عاقبه النار، و اللمم ما بين الحدين من الذنوب، و لم يكن بمكة حد و لا نحوه (١).

١٠- ما حمل من مكة إلى المدينة: و من أمثله سورة «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» أخرج البخارى عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم: مصعب بن عمير، و ابن أم مكتوم، فجعلنا يقرءنا القرآن. ثم جاء عمار و بلال و سعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين.

ثم جاء النبي صلى الله عليه و سلم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، فما جاء حتى قرأت (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) في سور مثلها «و هذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن و علموه الأنصار.

١١- ما حمل من المدينة إلى مكة: و من أمثله أول سورة براءة، حيث أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أبا بكر على الحج في العام التاسع. فلما نزل صدر سورة براءة حمّله رسول الله صلى الله عليه و سلم علي بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر حتى يبلغ المشركين به. فأذن فيهم بالآيات و أبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك.

١٢- ما نزل ليلا و ما نزل نهارا: أكثر القرآن نزل نهارا أما ما نزل بالليل فقد تتبعه أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى و استخراج له أمثلة منها: أواخر آل عمران، أخرج ابن حبان في صحيحه، و ابن المنذر، و ابن مردويه و ابن أبي الدنيا عن عائشة رضى الله عنها: أن بلالا أتى النبي صلى الله عليه و سلم يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكى، فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: و ما يمنعنى أن أبكى و قد أنزل على هذه الليلة (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ - ١٩٠- آل عمران) ثم قال: و ييل لمن قرأها و لم يتفكر» و منها: آية الثلاثة الذين خلفوا، ففي الصحيحين من حديث كعب «فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من

(١) الإتيان. ج ١ صفحة (١٨).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٨

الليل «١» و منها: أول سورة الفتح، ففي البخارى من حديث عمر «لقد نزلت على الليلة سورة هي أحب إلى مما طلعت عليه الشمس، فقرأ (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)».

١٣- ما نزل صيفا و ما نزل شتاء: و يمثل العلماء لما نزل صيفا بآية الكلاله التي في آخر سورة النساء، ففي صحيح مسلم عن عمر: «ما راجعت رسول الله صلى الله عليه و سلم في شيء ما راجعته في الكلاله، و ما أغلظ في شيء ما أغلظ لى فيه، حتى طعن بإصبعه في صدرى و قال يا عمر: ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء؟» (٢). و من أمثله الآيات التي نزلت في غزوة تبوك، فإنها

كانت في الصيف في شدة الحر كما في القرآن نفسه (٣).

و يمثلون للشئائى آيات حديث الإفك في سورة النور (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ... إلى قوله تعالى: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ١١-٢٦-النور) ففي الصحيح عن عائشة «أنها نزلت في يوم شات» و من أمثله الآيات التي في غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت في شدة البرد. أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن حذيفة قال: «تفرق الناس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلا، فأتاني رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب، قلت يا رسول الله: و الذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء، من البرد، فأنزل الله

(١) (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ، وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٧، ١١٨- التوبة) و هم الذين قبل الله عذرهم في التخلف بغزوة تبوك.

(٢) (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ... ١٧٦- النساء) و الكلاله كما في صريح الآية:

الميت الذي لا ولد له و له مال يورث.

(٣) و قد حكى القرآن عن المنافقين قولهم (وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ... ٨١- التوبة، فأمر الله رسوله أن يجيبهم (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ: ٨١- التوبة).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٥٩

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩- الأحزاب).

١٤- ما نزل في الحضر و ما نزل في السفر: أكثر القرآن نزل في الحضر، و لكن حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم كانت عامرة بالجهاد و الغزوة في سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحي في مسيره، و قد ذكر السيوطي لما نزل في السفر كثيرا من الأمثلة «١». منها أول سورة الأنفال، نزلت بيدر عقب الواقعة، كما أخرج أحمد عن سعد بن أبي وقاص- و قوله تعالى (وَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٣٤- التوبة) أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت في بعض أسفاره صلى الله عليه و سلم- و أول سورة الحج، أخرج الترمذي و الحاكم عن عمران بن حصين قال: «لما نزلت على النبي صلى الله عليه و سلم (يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ... إلى قوله تعالى: وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ١، ٢- الحج) أنزلت عليه هذه و هو في سفر»- و سورة الفتح، أخرج الحاكم و غيره عن المسور بن مخرمة و مروان بن الحكم قالوا: «نزلت سورة الفتح بين مكة و المدينة في شأن الحديدية من أولها إلى آخرها».

فوائد العلم بالمكي و المدني:-

و للعلم بالمكي و المدني فوائد أهمها:

١- الاستعانة به في تفسير القرآن: فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية و تفسيرها تفسيراً صحيحاً، و إن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و يستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ و المنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم.

ب- تذوق أساليب القرآن و الاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالا، و مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني

البلاغة، و خصائص

(١) صفحة (١٨) و ما بعدها في الإتقان ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦٠

أسلوب المكي في القرآن و المدني منه تعطى الدارس منهجا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسه المخاطب، و يمتلك عليه لبه و مشاعره، و يعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، و لكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها و أساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس و معتقداتهم و أحوال بيئتهم، و يبدو هذا واضحا جليا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين و المشركين و المنافقين و أهل الكتاب.

ج- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية:

فإن تتابع الوحي على رسول الله صلى الله عليه و سلم سائر تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي و العهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، و القرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالاً للشك فيما روى عن أهل السير موافقا له، و يقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

معرفة المكي و المدني و بيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء في معرفة المكي و المدني على منهجين أساسيين: المنهج السماعي النقلى، و المنهج القياسى الاجتهادى.

و المنهج السماعي النقلى يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي، و شاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة و سمعوا منهم كيفية النزول و مواقعه و أحداثه، و معظم ما ورد في المكي و المدني من هذا القبيل، و فى الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك، و قد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور، و مؤلفات أسباب النزول، و مباحث علوم القرآن، و لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم شئ فى ذلك، حيث إنه ليس من الواجبات التى تجب على الأمة إلا بالقدر الذى يعرف به الناسخ و المنسوخ، قال القاضى أبو بكر ابن الطيب الباقلانى فى «الانتصار» «إنما يرجع فى معرفة المكي و المدني لحفظ الصحابة و التابعين، و لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فى ذلك قول لأنه لم

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦١

يؤمر به، و لم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، و إن وجب فى بعضه على أهل العلم و معرفة تاريخ الناسخ و المنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول» (١).

و المنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكي و خصائص المدني، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مدنية، و إذا ورد فى السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مكية، و إذا وجد فى السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية، و إذا وجد فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية، و هذا قياس اجتهادى، و لذا قالوا مثلا: كل سورة فيها قصص الأنبياء و الأمم الخالية مكية، و كل سورة فيها فريضة أو حد مدنية، و هكذا، قال الجعبرى: «لمعرفة المكي و المدني طريقان: سماعى و قياسى» (٢) و لا شك أن السماعى يعتمد على النقل، و القياسى يعتمد على العقل، و النقل و العقل هما طريقا المعرفة السليمة و التحقيق العلمى.

الفرق بين المكي و المدني:-

للعلماء فى الفرق بين المكي و المدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأى منها بنى على اعتبار خاص.

الأول: اعتبار زمن النزول: فالمكى: ما نزل قبل الهجرة و إن كان بغير مكة، و المدنى: ما نزل بعد الهجرة و إن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة و لو بمكة: أو عرفه مدنى، كالذى نزل عام الفتح، كقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ۗ إِنَّهَا خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلِمْتُمْ أَنَّهَا خَيْرٌ لِّكُمْ) النساء: ٥٨- النساء) فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۗ ۝٣) و هذا رأى أولى من الرأين بعده لحصره و اطراده.

(١) أنظر الإتيان صفحة (٩) ج ١.

(٢) أنظر الإتيان، صفحة (١٧) ج ١.

(٣) فى الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٦٢

الثانى: اعتبار مكان النزول: فالمكى: ما نزل بمكة و ما جاورها كمنى و عرفات و الحديبية. و المدنى: ما نزل بالمدينة و ما جاورها كأحد و قباء و سلع.

و يترتب على هذا رأى عدم ثنائية القسمه و حصرها، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو بيت المقدس لا يدخل تحت القسمه «١»، فلا يسمى مكيا و لا مدنيا، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيا.

الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكى: ما كان خطابا لأهل مكة، و المدنى:

ما كان خطابا لأهل المدينة.

و ينبنى على هذا رأى عند أصحابه أن ما فى القرآن من قوله تعالى (يا أَيُّهَا النَّاسُ) مكى، و ما فيه من قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) مدنى.

و بالملاحظه يتبين أن أكثر سور القرآن لم تفتح بأحد الخطابين، و أن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنيه، و فيها (يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١- البقرة) و قوله تعالى (يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨- البقرة) و سورة النساء مدنيه و أولها (يا أَيُّهَا النَّاسُ) و سورة الحج مكيه، و فيها (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٧٧- الحج) و القرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، و يجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم و باسمهم و جنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها و الازدياد منها.

(١) فسورة «الفتح» نزلت بالسفر، و قوله تعالى فى سورة التوبة (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ) نزل بتبوك.

و قوله (وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا) فى سورة الزخرف نزل ببيت المقدس ليلة الاسراء.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٦٣

مميزات المكى و المدنى

استقرأ العلماء السور المكية و السور المدنيه، و استنبطوا ضوابط قياسيةه لكل من المكى و المدنى، تبين خصائص الأسلوب و الموضوعات التى يتناولها. و خرجوا من ذلك بقواعد و مميزات.

ضوابط المكى و مميزاته الموضوعية.

- ١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.
- ٢- كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن. وذكرت ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة
- ٣- كل سورة فيها (يا أيها الناس) وليس فيها (يا أيها الذين آمنوا) فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخرها (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) ومع هذا فإن كثيرا من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.
- ٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة.
- ٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك.
- ٦- كل سورة تفتتح بحروف التهجي ك «الم» و «الر» و «حم» ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين: وهما البقرة و آل عمران، و اختلفوا في سورة الرعد.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية و خصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

- ١- الدعوة إلى التوحيد و عبادة الله وحده، و إثبات الرسالة، و إثبات البعث و الجزاء، و ذكر القيامة و هولها، و النار و عذابها، و الجنة و نعيمها، و مجادلة المشركين بالبراهين العقلية، و الآيات الكونية.
- ٢- وضع الأسس العامة للتشريع و الفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان المجتمع، و فضح جرائم المشركين في سفك الدماء، و أكل أموال اليتامى ظلما، و وأد البنات، و ما كانوا عليه من سوء العادات.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦٤

- ٣- ذكر قصص الأنبياء و الأمم السابقة زجرا لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، و تسلية لرسول الله صلى الله عليه و سلم حتى يصبر على أذاهم و يطمئن إلى الانتصار عليهم.
- ٤- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، و إيجاز العبارة، بما يصحح الأذان، و يشتد قرعه على المسامع، و يصعق القلوب، و يؤكد المعنى بكثرة القسم، كقصار المفصل إلا نادرا.

ضوابط المدني و مميزاته الموضوعية:-

- ١- كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية.
 - ٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية ٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.
- هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية و خصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:
- ١- بيان العبادات، و المعاملات، و الحدود، و نظام الأسرة، و الموارث و فضيلة الجهاد، و الصلوات الاجتماعية، و العلاقات الدولية في السلم و الحرب، و قواعد الحكم، و مسائل التشريع.
 - ٢- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود و النصارى، و دعوتهم إلى الإسلام، و بيان تحريفهم لكتب الله، و تجنيهم على الحق، و اختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم.
 - ٣- الكشف عن سلوك المنافقين، و تحليل نفسيتهم، و إزاحة الستار عن خباياهم، و بيان خطرهم على الدين.
 - ٤- طول المقاطع و الآيات في أسلوب يقرر الشريعة و يوضح أهدافها و مراميها.
- مباحث في علوم القرآن، ص: ٦٥

٥- معرفة أول ما نزل و آخر ما نزل

التعبير عن تلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة يلمسها المرء في تصور كل هبوط من أعلى. ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التي حولت مجرى حياة البشرية وأحدثت فيها تغييرا ربط السماء بالأرض، ووصل الدنيا بالآخرة، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي في مصدره الأول والأصيل - وهو القرآن - تعطى الدارس صورة عن التدرج في الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التي نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق، وقد تناول هذا أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تشريع من تعاليم الإسلام، كالأطعمة، والأشربة، والقتال، ونحو ذلك. وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل كذلك أقوال، نجملها ونرجح بينها فيما يأتي:

أول ما نزل:

١- أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦٦

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب اليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال اقرأ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) حتى بلغ (ما لَمْ يَعْلَمْ) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره... الحديث. (١)»

٢- وقيل أن أول ما نزل هو قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله: أى القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر، قلت: أو اقرأ باسم ربك؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنني جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبريل - فأخذتني رجفه، فأتيت خديجة فأمرتهم فذرّوني، فأنزل الله (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ).

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكما لها قبل نزول تمام سورة اقرأ، فإن أول ما نزل منها صدرها - ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضا عن أبي سلمة عن جابر قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه:

بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني

(١) التحنث: التعبد، وأصله ترك الحنث، أى الذنب.

وغطني: أى ضمنى ضما شديدا حتى كان لى غطيظ، وهو صوت من حبست أنفاسه بما يشبه الخنق، والجهد: بفتح الجيم يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة وبضمها يطلق على الوسع والطاقة لا غير.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦٧

بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زملوني، فذرّوني، فأنزل الله (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء - أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي - وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده فتقدم

عليه رواية عائشة. ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق «اقرأ» وأول سورة نزلت كاملة، أو أول ما نزل بعد فترة الوحي (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) أو أول ما نزل للرسالة (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وللنبوة (اقرأ).

٣- وقيل إن أول ما نزل هو سورة «الفاتحة» ولعل المراد أول سورة كاملة.

٤- وقيل: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» والبسملة تنزل صدرا لكل سورة.

ودليل هذين أحاديث مرسله والقول الأول المؤيد بحديث عائشة هو القوي الراجح المشهور.

وقد ذكر الزركشى في «البرهان» حديث عائشة الذي نص على أن أول ما نزل (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) وحديث جابر الذي نص على أن أول ما نزل (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ) ثم قال: «و جمع بعضهم بينهما بأن جابرا سمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر قصة بدء الوحي، فسمع آخرها، ولم يسمع أولها، فتوهم أنها أول ما نزلت، وليس كذلك، نعم هي أول ما نزل بعد سورة (اقرأ) وفترة الوحي، لما ثبت في الصحيحين أيضا عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحدث عن فترة الوحي، قال في حديثه «بينما أنا أمشى، سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثت منه فرقا (١)»، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تبارك وتعالى (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ) فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الذي جاءه بحراء قبل هذه المرة، وأخبر في حديث عائشة أن نزول (اقرأ) كان في غار حراء، وهو أول وحى، ثم فتر بعد ذلك، وأخبر في حديث جابر أن الوحي تتابع بعد نزول

(١) جثت: فزعت، وفي صحيح البخارى: «فرعبت منه».

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦٨

(يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) فعلم بذلك أن (اقرأ) أول ما نزل مطلقا، وأن سورة المدثر بعده.

وكذلك قال ابن حبان في صحيحه: لا- تضاد بين الحديثين، بل أول ما نزل (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) بغار حراء، فلما رجع إلى خديجة رضى الله عنها وصب عليه الماء البارد، أنزل الله عليه في بيت خديجة: (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) فظهر أنه لما نزل عليه (اقرأ) رجع فتدثر، فأنزل عليه (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ).

وقيل: أول ما نزل سورة الفاتحة، روى ذلك من طريق أبي اسحاق عن أبي ميسرة قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سمع الصوت انطلق هاربا، وذكر نزول الملك عليه وقوله قل: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إلى آخرها.

وقال القاضى أبو بكر فى «الانتصار»: وهذا الخبر منقطع، وأثبت الأفاويل (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ) و يليه فى القوة (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وطريق الجمع بين الأفاويل أن أول ما نزل من الآيات (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ) وأول ما نزل من أوامر التبليغ (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة، وهذا كما ورد فى الحديث «أول ما يحاسب به العبد الصلاة» (١) و «أول ما يقضى فيه الدماء» (٢) و جمع بينهما بأن أول ما يحكم فيه من المظالم التى بين العباد الدماء. وأول ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة.

وقيل: أول ما نزل للرسالة: (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وللنبوة: (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ) فإن العلماء قالوا: قوله تعالى (اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ) دال على نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن النبوة عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف خاص، وقوله تعالى: (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ) دليل على رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنها عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام» (٣).

(١) نقله السيوطى فى الجامع الصغير عن الطبرانى، و لفظه «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله».

(٢) رواه البخارى فى كتاب الديات، و لفظه «أول ما يقضى بين الناس فى الدماء».

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشى بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٠٦ و ما بعدها ج ١

مباحث في علوم القرآن، ص: ٦٩

آخر ما نزل:

١- قيل آخر ما نزل آية الربا: لما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال:

«آخر آية نزلت آية الربا» و المراد بها قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا) الآية (١).

٢- و قيل آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى (وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ...) الآية، لما رواه النسائي و غيره عن ابن عباس و سعيد

بن جبیر: «آخر شيء نزل من القرآن (وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) الآية (٢).

٣- و قيل آخر ما نزل آية الدين، لما روى عن سعيد بن المسيب: «انه بلغه أن أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدين» و المراد بها: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَكُتِبَوهُ) الآية (٣).

و يجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، آية الربا، آية «و اتقوا يوما» آية الدين، لأنها في قصة واحدة.

فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخر، و ذلك صحيح، و بهذا لا يقع التناقض بينها.

٤- و قيل آخر ما نزل آية الكلاله. فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ)

الآية (٤) و حملت الآخريه هنا في قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث.

٥- و قيل آخر ما نزل قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) إلى آخر السورة. ففي المستدرک عن أبي بن كعب قال: آخر آية

نزلت (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) إلى آخر السورة (٥) و حمل هذا على أنها آخر ما نزل من سورة براءة.

(١) الآية (٢٧٨) البقرة.

(٢) الآية (٢٨١) البقرة.

(٣) الآية (٢٨٢) البقرة.

(٤) الآية (١٧٦) النساء.

(٥). (١٢٨، ١٢٩) التوبة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٠

ففيما رواه عبد الله ابن الامام أحمد في زوائد المسند عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقرأه هاتين الآيتين (لَقَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِلَى قَوْلِهِ: (وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) فِي آخِرِ سُورَةِ بَرَاءةٍ.

٦- و قيل آخر ما نزل سورة المائدة، لما رواه الترمذى و الحاكم في ذلك عن عائشة رضى الله عنها، و أجيب بأن المراد أنها آخر

سورة نزلت في الحلال و الحرام، فلم تنسخ فيها أحكام.

٧- و قيل آخر ما نزل قوله تعالى (فَأَسِدْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (١) لما

أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت: «آخر آية نزلت هذه الآية (فَأَسِدْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ

مِنْكُمْ) إِلَى آخِرِهَا، وَ ذَلِكَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَرَى اللَّهَ يَذُكِرُ الرِّجَالَ وَ لَا يَذُكِرُ النِّسَاءَ فَنَزَلَتْ (وَ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ) (٢) وَ نَزَلَتْ (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ) (٣) وَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَهِيَ آخِرُ الثَّلَاثَةِ نَزُولًا، وَ آخِرُ مَا نَزَلَ بَعْدَ مَا كَانَ

يُنزَلُ فِي الرِّجَالِ خَاصَّةً.»

و يتضح من الرواية أن الآية المذكورة آخر الآيات الثلاث نزولاً، و أنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذكر فيه النساء.
 ٨- و قيل آخر ما نزل آية (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) «٤» لما أخرجه البخارى و غيره عن ابن عباس قال: هذه الآية (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ) هي آخر ما نزل و ما نسخها شيء. و التعبير بقوله «و ما نسخها شيء» يدل على أنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمداً.

(١) الآية ١٩٥- آل عمران.

(٢) الآية ٣٢- النساء.

(٣) الآية ٣٥- الأحزاب.

(٤) الآية ٩٣- النساء.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٧١

٩- و أخرج مسلم عن ابن عباس قال: «آخر سورة نزلت إذا جاء نصرُ الله و الفتح و حمل ذلك على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعراً بوفاء النبي صلى الله عليه و سلم كما فهم بعض الصحابة، أو أنها آخر ما نزل من السور.
 و هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه و سلم. و كل قال بضرب من الاجتهاد و غلبة الظن. و يحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل فى تشريع خاص أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذى خرّجنا به كل قول منها.

أما قوله تعالى (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ٣- المائدة) فإنها نزلت بعرفه عام حجة الوداع، و يدل ظاهرها على إكمال الفرائض و الأحكام، و قد سبقت الإشارة إلى ما روى فى نزول آية الربا، و آية الدين، و آية الكلاله، و غيرها بعد ذلك. لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين فى هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام، و إجلاء المشركين عنه، و حجهم و حدهم دون أن يشاركهم، فى البيت الحرام أحد من المشركين، و قد كان المشركون يحجون معهم من قبل و ذلك من تمام النعمة (وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى «الانتصار» معلقاً على اختلاف الروايات فى آخر ما نزل «هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه و سلم و يجوز أن يكون قائله بضرب من الاجتهاد و غلبة الظن، و يحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه و سلم فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل، و غيره سمع منه بعد ذلك و إن لم يسمعه هو، و يحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التى هى آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه و سلم مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل فى الترتيب» «١».

أوائل موضوعية:

و تناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة، و من ذلك:

١- أول ما نزل فى الأطمعة: أول آية نزلت بمكة آية الأنعام

(١) أنظر الإتقان صفحة (٢٧) ج ١. و نص العبارة الأخيرة فى الزركشى:

«فيؤمر برسم ما نزل معها و تلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرها و تلاوته، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل فى الترتيب» انظر البرهان ص ٢١٠، ج ١، و فى نقل الاتقان شيء من التحريف.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٧٢

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥- الأنعام).

ثم آية النحل (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١١٤، ١١٥- النحل).

ثم آية البقرة (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٧٣- البقرة).

ثم آية المائدة (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِى يَوْمِ النَّارِ يُبَيِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣- المائدة).

٢- أول ما نزل في الأشربة: أول آية نزلت في الخمر آية البقرة (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ٢١٩- البقرة). مباحث في علوم القرآن ٧٢ أوائل موضوعية: ص : ٧١

آية النساء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ٤٣- النساء).

ثم آية المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِيدَ كُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ٩٠، ٩١- المائدة).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٣

عن ابن عمر قال: «نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) الآية. فقيل حرمت الخمر، فقالوا يا رسول الله: دعنا نتنفع بها كما قال الله، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) فقيل حرمت الخمر، فقالوا يا رسول الله أ لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حرمت الخمر» (١).

٣- أول ما نزل في القتال: عن ابن عباس قال: أول آية نزلت في القتال (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩- الحج) (٢)

فوائد هذا المبحث:

إشارة

و لمعرفة أول ما نزل و آخر ما نزل فوائد أهمها:

أ- بيان العناية التي حظى بها القرآن الكريم صيانة له و ضبطا لآياته:

فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية، فعرفوا متى نزلت؟ و أين نزلت؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينزل عليه من القرآن تلقى المؤمنين لأصول دينهم، و مبعث إيمانهم، و مصدر عزهم و مجدهم، و كان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير و التبديل (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٩- الحجر).

ب- إدراك أسرار التشريع الإسلامي في تاريخ مصدره الأصيل:

فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء، وأخذت الناس بالأساليب الحكيمه التي ترقى بنفوسهم في سلم الكمال، و تدرجت بهم في الأحكام التي يستقيم بها منهج حياتهم على الحق، و تنتظم شئون مجتمعهم على الطريق الأقوم.

(١) رواه الطيالسي في مسنده.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٤

ج- تمييز النسخ من المنسوخ: فقد ترد الآيات أو الآيات في موضوع واحد، و يختلف الحكم في إحداها عن الأخرى، فإذا عرف ما نزل أولاً و ما نزل آخرًا كان حكم ما نزل آخرًا ناسخًا لحكم ما نزل أولاً.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٥

٦- اسباب النزول**إشارة**

نزل القرآن ليهدى الإنسانية إلى المحجّة الواضحة، و يرشدها إلى الطريق المستقيم، و يقيم لها أسس الحياة الفاضلة التي تقوم دعامتها على الإيمان بالله و رسالاته، و يقرر أحوال الماضي، و وقائع الحاضر، و أخبار المستقبل.

و أكثر القرآن نزل ابتداء لهذه الأهداف العامة، و لكن الصحابة رضی الله عنهم في حياتهم مع رسول الله صلى الله عليه و سلم قد شاهدوا أحداث السيرة، و قد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله صلى الله عليه و سلم عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه، فيتنزل القرآن لذلك الحادث، أو لهذا السؤال الطارئ، و مثل هذا يعرف بأسباب النزول.

عناية العلماء به:

و قد اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، و لمسوا شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف، و من أشهرهم: «علي بن المديني» شيخ البخاري، ثم «الواحدى (١)» في كتابه: أسباب النزول، ثم

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد النحوى المفسر، توفى سنة ٤٢٧ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٤

«الجعبرى» (١) الذى اختصر كتاب «الواحدى» بحذف أسانيد و لم يزد عليه شيئاً، ثم شيخ الإسلام «ابن حجر» (٢) الذى ألف كتاباً فى أسباب النزول أطلع السيوطى على جزء من مسودته و لم يتيسر له الوقوف عليه كاملاً، ثم «السيوطى» (٣) الذى قال عن نفسه: «و قد ألقت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله فى هذا النوع، سميت «لباب المنقول فى أسباب النزول» (٤).

ما يعتمد عليه فى معرفة سبب النزول

و العلماء يعتمدون فى معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأى، بل يكون له حكم المرفوع، قال الواحدى:

«لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية و السماع ممن شاهدوا التنزيل، و وقفوا على الأسباب، و بحثوا عن علمها وجدوا في الطلب» و هذا هو نهج علماء السلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً في ذلك دون تثبت، قال «محمد بن سيرين» (٥) «سألت «عبيدة» (٦) عن آية من القرآن فقال: اتق الله و قل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن» و هو يعنى الصحابة. و إذا كان هذا هو قول «ابن سيرين» من أعلام علماء التابعين تحرياً للرواية، و دقة في الفصل، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة،

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر، كان له عناية بعلوم القرآن، فألف «روضة الطرائف في رسم المصاحف» و «كنز المعاني» و هو شرح للشاطبية في القراءات، توفي سنة ٧٣٢ هجرية.

(٢) هو أبو الفضل شهاب الدين الحافظ ابن حجر العسقلاني و اسمه أحمد بن علي. ينسب إلى عسقلان بفلسطين. كان له عناية بالحديث، و اشتهر بعلومه، و كتبه عماد في هذا الفن - توفي سنة ٨٥٢ هجرية.

(٣) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية.

(٤) انظر الإتيان صفحة (٢٨) ج ١

(٥) تابعى من علماء البصرة، اشتهر بعلوم الحديث، و تعبير الرؤيا، و توفي سنة ١١٠ هجرية.

(٦) هو عبيدة (بالفتح) بن عمرو السلماني، أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه و سلم بستين و لم يلقه، و كان ابن سيرين من أروى الناس عنه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٧

و لذا فان المعتمد من ذلك فيما روى من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول.

و ذهب «السيوطي» إلى أن قول التابعي إذا كان صريحاً في سبب النزول فإنه يقبل، و يكون مرسلًا، إذا صح المسند إليه و كان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير، و اعتضد بمرسل آخر «١» و قد أخذ «الواحدى» على علماء عصره تساهلهم في رواية سبب النزول، و رماهم بالإفك و الكذب، و حذرهم من الوعيد الشديد، حيث يقول: «أما اليوم فكل أحد يخترع شيئاً، و يخلق إفكاً و كذباً، ملقياً زمامه إلى الجهالة، غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية».

تعريف السبب

و سبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصراً على أمرين: - ١- أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها، و ذلك كالذى روى عن ابن عباس قال: «لما نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (٢) خرج النبي صلى الله عليه و سلم حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه (فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أ كنتم مصدقني؟

قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب «٣»: تباً لك، إنما جمعنا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ) (٤)».

٢- أن يسأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن شيء فيتنزل القرآن ببيان

(١) انظر الإتيان صفحة (٣١) ج ١

(٢) الآية (٢١٤) الشعراء

(٣) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم

(٤) أخرجه البخارى و مسلم وغيرها.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٨

الحكم فيه، كالذى كان من خولته بنت ثعلبة عند ما ظاهر «١» منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكى من ذلك: عن عائشة قالت: «تبارك الذى وسع سمعه كل شىء، إني لأسمع كلام خولته بنت ثعلبة و يخفى على بعضه و هى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هى تقول: يا رسول الله، أكل شبابى و نثرت له بطنى حتى إذا كبر سننى و انقطع ولدى ظاهر منى! اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) و هو أوس بن الصامت» (٢).

و لا يعنى هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سببا، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفا على الحوادث و الوقائع، أو على السؤال و الاستفسار، بل كان القرآن ينزل ابتداء، بعقائد الإيمان، و واجبات الاسلام، و شرائع الله تعالى فى حياة الفرد و حياة الجماعة، قال «الجعبرى»: «نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء، و قسم نزل عقب واقعة أو سؤال» (٣) و لذا نعرف سبب النزول بما يأتى:

هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

و من الافراط فى علم سبب النزول أن تتوسع فيه، و نجعل منه ما هو من قبيل الأخبار عن الأحوال الماضيه، و الوقائع الغابرة، قال «السيوطى» و الذى يتحرر فى سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدى فى تفسيره فى سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول فى شىء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضيه، كذكر قصة قوم نوح و عاد و ثمود و بناء البيت و نحو ذلك، و كذلك ذكره فى قوله

(١) الظهار: ان يقول الرجل لامرأته: أنت على كظهر أمى، و اختلفوا فى غير هذه الصيغة.

(٢) أخرجه ابن ماجه و ابن أبى حاتم - و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى -

(٣) انظر الاتقان، صفحة (٢٨) ج ١.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٧٩

(وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) «١» سبب اتخاذه خليلا، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى» (٢)

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها: -١- بيان الحكمة التى دعت إلى تشريع حكم من الأحكام، و إدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة فى علاج الحوادث رحمة بالأمة.

ب- تخصيص حكم ما نزل ان كان بصيغة العموم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا- بعموم اللفظ، و هى مسألة خلافية سيأتى لها مزيد من الإيضاح، و قد يمثل لهذا بقوله تعالى (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨- آل عمران) «فقد روى أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل:

لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتى و أحب أن يحمد بما لم يفعل يعذب لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم و لهذه الآية، إنما نزلت فى أهل الكتاب.

ثم تلا (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... - ١٨٧- آل عمران) الآية قال ابن عباس: سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخذوا بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه» (٣).

ح- إذا كان لفظ ما نزل عاما وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تقصر التخصيص على ما عدا صورته، ولا يصح إخراجها.

(١) الآية (١٢٥) النساء

(٢) انظر الإتقان- صفحة (٣١) ج ١

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٠

لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعى، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظنى، وهذا هو ما عليه الجمهور وقد يمثل لهذا بقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ٢٣- ٢٥- النور) فإن هذه الآية نزلت في عائشة خاصة، أو فيها وفي سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، «عن ابن عباس في قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) الآية: نزلت في عائشة خاصة» (١) و عن ابن عباس في هذه الآية أيضا «هذه في عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم التوبة- ثم قرأ (وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ... إلى قوله (... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا- ٤، ٥- النور)» (٢) و على هذا فإن قبول توبة القاذف وان كان مخصصا لعموم قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة، أو قذف سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هذا لا توبة له، لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعى.

د- ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معانى القرآن، وكشف الغموض الذى يكتنف بعض الآيات فى تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها، قال «الواحدى» لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها و بيان نزولها» وقال «ابن دقيق العيد» «بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن» وقال «ابن تيمية» «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» (٣) و من أمثله ذلك: ما أشكل على مروان بن الحكم فى فهم الآية

(١) أخرجه ابن أبى حاتم- والحاكم وصححه، و ابن مردويه

(٢) أخرجه سعيد بن منصور و ابن جرير والطبرانى و ابن مردويه (راجع تفسير ابن جرير، و تفسير ابن كثير).

(٣) انظر الاتقان. صفحة (٢٨) ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨١

الآنفه الذكر (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب. ولهم عذاب أليم ١٨٨- آل عمران) حتى أورد له ابن عباس سبب النزول.

ومثله آية (إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَيَّجَ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨- البقرة) فان ظاهر لفظ الآية لا يقتضى أن السعى فرض، لأن رفع الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب، و ذهب بعضهم إلى هذا تمسكا بالظاهر «١»، و قد ردت عائشة على عروة بن الزبير فى فهمه ذلك بما ورد فى سبب نزولها، و هو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما لأنه من عمل الجاهلية، حيث كان على الصفا إساف، و على المروة نائلة، و هما صنمان، و كان أهل الجاهلية إذا سعوا

مسحوهما:

«عن عائشة أن عروة قال لها: أ رأيت قول الله (إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا)؟ فما أرى على أحد جناحا أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بشس ما قلت يا بن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت، إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناء الطاغية التي كانوا يعبدونها، و كان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية، فأنزل الله (إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) الآية قالت عائشة: ثم قد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما» (٢).

هـ- و يوضح سبب النزول من نزلت فيه الآية حتى لا تحمل على غيره بدافع الخصومة و التحامل. كالذي ذكر في قوله تعالى (وَ الَّذِي قَالَ لَوْلَا أَدَّبْتِيهِ أَفْ لَكُمْ أَ تَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَتِغِيثَانِ اللَّهَ وَ يَلْتَكِمُ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٧- الأحقاف)

(١) حكى الزمخشري في الكشاف عن أبي حنيفة أنه يقول: إن السعي واجب و ليس بركن و على تاركة دم- و قد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس و ابن الزبير و أنس بن مالك و ابن سيرين.

(٢) أخرجه الشيخان و غيرهما.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٢

فقد أراد «معاوية» أن يستخلف «يزيد» و كتب إلى «مروان» عامله على المدينة بذلك، فجمع الناس و خطبهم و دعاهم إلى بيعه «يزيد» فأبى عبد الرحمن بن أبي بكر أن يبايع، فأراد «مروان» بسوء لو لا أن دخل بيت عائشة، و قال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه (وَ الَّذِي قَالَ لَوْلَا أَدَّبْتِيهِ أَفْ لَكُمْ أَ تَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) فردت عليه عائشة و بينت له سبب نزولها، «عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع، له بعد أبيه، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا أنزل فيه (وَ الَّذِي قَالَ لَوْلَا أَدَّبْتِيهِ أَفْ لَكُمْ) فقالت عائشة: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري» (١) و في بعض الروايات «أن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال: سنة أبي بكر و عمر، فقال عبد الرحمن: سنة هرقل و قيصر، فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه (وَ الَّذِي قَالَ لَوْلَا أَدَّبْتِيهِ أَفْ لَكُمْ) الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان، و الله ما هو به، و لو شئت أن أسمى الذي نزلت فيه لسميته» (٢).

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم، أو اتفق معه في الخصوص، حمل العام على عمومته، و الخاص على خصوصه. و مثال الأول قوله تعالى (وَ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢- البقرة)

(١) أخرجه البخاري

(٢) أخرجه عبد بن حميد و النسائي و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن محمد بن زياد، قال:

لما بايع مروان لابنه قال مروان: الخ ..

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٣

عن أنس قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت و لم يؤاكلوها و لم يشاربوها و لم يجامعوها في البيوت،

فسئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ذلك، فأنزل الله (وَ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: جامعوهن في البيوت، و اصنعوا كل شيء إلا النكاح» (١).

و مثال الثاني قوله (وَ سَيَجْتَبِيهَا الْأَتَقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى، وَ لَسَوْفَ يَرْضَى ١٧ - ٢١- الليل) فإنها نزلت في أبي بكر، و الأتقى: أفعال تفضيل مقرون بأل العهديه فيختص بمن نزل فيه، و إنما تفيد أُل العموم إذا كانت موصولة أو معرفه في جمع على الراجح، و أُل في الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل، و الأتقى ليس جمعا، بل هو مفرد، و العهد موجود لا سيما و أن صيغته أفعال تدل على التمييز، و ذلك كاف في قصر الآية على من نزلت فيه: لذا قال الواحدي:

الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين: «عن عروه أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله: بلال، و عامر بن فهيره، و النهديه و ابنتها، و أم عيسى، و أمه بنى الموئل، و فيه نزلت (وَ سَيَجْتَبِيهَا الْأَتَقَى) إلى آخر السورة» (٢). و روى نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير و زاد فيه: «فتزلت فيه هذه الآية (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى) إلى قوله (وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى، وَ لَسَوْفَ يَرْضَى)» (٣).

أما إذا كان السبب خاصا و نزلت الآية بصيغه العموم فقد اختلف الأصوليون:

أ تكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

١- فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب،

(١) أخرجه مسلم و أهل السنن و غيرهم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الحاكم و صححه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٤

فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته «فعن ابن عباس:

أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه و سلم بشريك بن سحماء.

فقال النبي صلى الله عليه و سلم: البينة و إلا حد في ظهرك، فقال: يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: البينة و إلا حد في ظهرك، فقال هلال: و الذي بعثك بالحق إنى لصادق، و ليتزلن الله ما يبئ ظهري من الحد، و نزل جبريل فأنزل عليه (وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ) حتى بلغ (إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٦ - ٩- النور) «١» ... فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام (وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ) غير حادثه هلال دون احتياج إلى دليل آخر.

و هذا هو الرأي الراجح و الأصح، و هو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة، و الذي سار عليه الصحابة و المجتهدون من هذه الأمة فعَدُوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها. كتنزل آية الظهار في أوس بن الصامت، أو سلمة بن صخر - على اختلاف الروايات في ذلك، و الاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم، قال ابن تيمية: «قد يجيء هذا كثيرا و من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصا كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، و أن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله، و أن قوله (وَ أَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) «٢» نزلت في بنى قريظة و النصير، و نظائر ذلك مما يذكر أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود و النصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، هذا لا يقوله مسلم و لا عاقل على الاطلاق، و الناس و إن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على

سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب و السنة تختص بالشخص المعين،

(١) أخرجه البخارى و الترمذى و ابن ماجه.

(٢) الآية ٤٨- المائدة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٥

و إنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه، و لا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، و الآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص و لغيره ممن كان بمنزلته، و إن كانت خبراً يمدح أو يذم فهي متناولة لذلك الشخص و لمن كان بمنزلته».

٢- و ذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص، و لا بد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس و نحوه، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة، و يتطابق السبب و المسبب تطابق السؤال و الجواب.

صيغة سبب النزول

صيغة سبب النزول إما أن تكون نصاً صريحاً في السببية، و إما أن تكون محتملة.

فتكون نصاً صريحاً في السببية إذا قال الراوى: «سبب نزول هذه الآية كذا» أو إذا أتى بفاء تعقيبه داخله على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال، كما إذا قال: «حدث كذا» أو «سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن كذا فنزلت الآية»- فهاتان صيغتان صريحتان في السببية سيأتى لهما أمثلة «١».

و تكون الصيغة محتملة للسببية و لما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الراوى:

«نزلت هذه الآية في كذا» فذلك يراد به تارة سبب النزول، و يراد به تارة أنه داخل في معنى الآية.

و كذلك إذا قال: «أحسب هذه الآية نزلت في كذا» أو «ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا» فإن الراوى بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب- فهاتان صيغتان تحتلمان السببية و غيرها كذلك. و مثال الصيغة الأولى ما روى عن ابن

(١) انظر أمثلة تعدد الروايات في سبب النزول التي ستأتى بعد هذه الفقرة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٦

عمر رضى الله عنهما قال: «أنزلت (نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ) «١» الآية في إتيان النساء في أدبارهن» «٢».

و مثال الصيغة الثانية ما روى عن عبد الله بن الزبير «أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع النبي صلى الله عليه و سلم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم في شراج من الحرّة، و كانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصارى سرح الماء يمر، فأبى عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصارى و قال: يا رسول الله، آن كان ابن عمتك؟ فتلّون وجه رسول الله صلى الله عليه و سلم، ثم قال: اسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك. و استوعى رسول الله صلى الله عليه و سلم للزبير حقه، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له و للأنصارى، فلما أحفظ رسول الله الأنصارى استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا- في ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ٦٥- النساء) «٣» قال ابن تيمية: «قولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول، و يراد به تارة أن ذلك داخل في الآية و إن لم يكن السبب، و قد تنازع العلماء في قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا، هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أنزلت لأجله أو يجرى مجرى التفسير منه الذى

ليس بمسند؟ فالبخارى يدخله في المسند، وغيره لا يدخله فيه، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند» (٤) وقال الزركشى في

(١) الآية ٢٢٣- البقرة.

(٢) أخرجه البخارى.

(٣) أخرجه البخارى و مسلم و اهل السنن و غيرهم.

(٤) المراد بالإسناد هنا أن يكون مسندا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، بمعنى أن يكون مرفوعا. وإن كان من قول الصحابي، لأنه لا مجال للاجتهاد فيه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٧

البرهان «قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فانه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع» (١).

تعدد الروايات في سبب النزول

قد تعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة، وفي مثل هذه الحالة يكون موقف المفسر منها على النحو الآتي: - إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة مثل: «نزلت هذه الآية في كذا» أو «أحسبها نزلت في كذا» فلا منافاة بينها، إذ المراد التفسير، و بيان أن ذلك داخل في الآية و مستفاد منها، و ليس المراد ذكر سبب النزول، إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية.

ب- إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله «نزلت في كذا» و صرح آخر بذكر سبب مخالف فالمعتمد ما هو نص في السببية، و تحمل الأخرى على دخولها في أحكام الآية، و مثال ذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) (٢) «عن نافع قال: قرأت ذات يوم (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ) فقال ابن عمر: أ تدرى فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال:

نزلت في إتيان النساء في أدبارهن» (٣) فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة في السببية، و قد جاء التصريح بذكر سبب يخالفه «عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)» (٤) فجابر هو المعتمد لأن

(١) انظر الاتقان صفحة (٣١) ج ١

(٢) الآية ٢٢٣- البقرة.

(٣) أخرجه البخارى و غيره ..

(٤) أخرجه البخارى و أهل السنن و غيرهم

مباحث في علوم القرآن، ص: ٨٨

كلامه نقل صريح، و هو نص في السبب، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيحمل على أنه استنباط و تفسير.

ج- و إذا تعددت الروايات و كانت جميعها نصا في السببية و كان إسناد أحدها صحيحا دون غيره فالمعتمد الرواية الصحيحة، مثل: ما أخرجه الشيخان و غيرهما عن جندب الجلى قال: «اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فأنته امرأه فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا- قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثا، فأنزل الله (وَ الضُّحَى وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى)» و أخرج الطبرانى و ابن أبى شيبه عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمتها، و كانت خادما رسول الله صلى الله عليه وسلم، «إن

جروا دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل تحت السرير، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ جبريل لا يأتيني! فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله (وَالصُّحَى) إلى قوله (فَتَرَضَى) .. قال ابن حجر في شرح البخارى: «قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما فى الصحيحين» (١).

د- فإذا تساوت الروايات فى الصحة وجد وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلا أو كون إحداها أصح قدمت الرواية الراجحة، ومثال ذلك ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال: «كنت أمشى مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة و رفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال

(١) انظر الإتقان. صفحة (٣٢) ج ١

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٨٩

(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (١)» وقد أخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال: «قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا:

اسألوه عن الروح، فسألوه فأنزل الله (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (الآية) فهذه الرواية تقتضى أنها نزلت بمكة حيث كانت قريش.

و الرواية الأولى تقتضى أنها نزلت بالمدينة، و ترجح الرواية الأولى لحضور ابن مسعود القصة. ثم لما عليه الأمة من تلقى صحيح البخارى بالقبول و ترجيحه على ما صح فى غيره.

وقد اعتبر «الزرکشى» هذا المثال من باب تعدد النزول و تكرره «٢»، فتكون هذه الآية قد نزلت مرتين: مرة بمكة، و مرة بالمدينة، و استند فى ذلك إلى أن سورة «سبحان» مكية بالاتفاق.

و إنى أرى أن كون السورة مكية لا ينفى أن تكون آية منها أو أكثر مدنية، و ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥-الإسراء) مدنية، فالوجه الذى اخترناه من ترجيح رواية ابن مسعود على رواية الترمذى عن ابن عباس أولى من حمل الآية على تعدد النزول و تكرره. و لو صح أن الآية مكية و قد نزلت جوابا عن سؤال فان تكرر السؤال نفسه بالمدينة لا- يقتضى نزول الوحي بالجواب نفسه مرة أخرى، بل يقتضى أن يجيب الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب الذى نزل عليه من قبل.

ه- إذا تساوت الروايات فى الترجيح جمع بينها إن أمكن، فتكون الآية قد نزلت بعد السببين أو الأسباب لتقارب الزمن بينها، كآيات اللعان (وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ ... الآيات ٦- ٩-النور) فقد أخرج البخارى و الترمذى و ابن ماجه عن ابن عباس أنها نزلت فى هلال بن أمية، قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحمان، كما ذكرنا من قبل «٣».

(١) الآية (٨٥) الإسراء.

(٢) انظر «البرهان» صفحة ٣٠ ج ١.

(٣) انظر صفحة (٧٠) العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٩٠

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال: «جاء عويمر إلى عاصم بن عدى، فقال: سل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل وجد مع امرأته رجلاً أ يقتله فيقتل به أم كيف يصنع؟...» فجمع بينهما بوقوع حادثه هلال أولاً، وصادف مجيء عويمر كذلك. فنزلت في شأنهما معا بعد حادثتيهما.

قال ابن حجر: «لا مانع من تعدد الأسباب.

و- إن لم يمكن الجمع لتباعد الزمن فإنه يحمل على تعدد النزول وتكرره.

ومثاله: ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال: «لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال:

أى عم، قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله:

يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال:

هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه، فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...)

الآية (١).

وأخرج الترمذي عن علي قال «سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت.

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال: «خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها، فواجه طويلاً ثم بكى، فقال:

إن القبر الذى جلست عنده قبر أُمى، وإنى استأذنت ربي فى الدعاء لها فلم يأذن لى، فأنزل على (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...)

فجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول.

(١). ١١٣- التوبة

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩١

ومن أمثله كذلك ما روى عن أبي هريرة «أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به، فقال: لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...) إلى آخر السورة (١)» (٢) فهذا يدل على نزولها يوم أحد.

وجاء فى رواية أخرى أنها نزلت يوم فتح مكة (٣)، والسورة مكية، فجمع بين ذلك، بأنها نزلت بمكة قبل الهجرة مع السورة، ثم بأحد، ثم يوم الفتح، ولا مانع من ذلك لما فيه من التذكير بنعمة الله على عباده واستحضار شريعته، قال الزركشى فى البرهان: «وقد ينزل الشىء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه، كما قيل فى الفاتحة، نزلت مرتين: مرة بمكة، وأخرى بالمدينة».

هذا ما يذكره علماء الفن فى تعدد النزول وتكرره، ولا أرى لهذا الرأى وجها مستساغاً، حيث لا تتضح الحكمة من تكرار النزول. وإنما أرى أن الروايات المتعددة فى سبب النزول ولا يمكن الجمع بينها يتأتى فيها الترجيح.

فالروايات الواردة فى سبب نزول قوله تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين... الآية ١١٣- التوبة) ترجح فيها الرواية الأولى على الروايتين الأخيرتين، لأنها وردت فى الصحيحين دونهما، وحسبك برواية الشيخين قوة. فالراجع أن الآية نزلت فى

أبي طالب. و كذلك الشأن في الروايات التي وردت في سبب نزول خواتيم سورة النحل، فإنها ليست في درجة سواء. والأخذ بأرجحها أولى من القول بتعدد النزول و تكرره.

(١) الآيات ١٢٦-١٢٨- النحل.

(٢) أخرجه البيهقي و البزاز عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي و الحاكم عن أبي بن كعب.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٢

و الخلاصة أن سبب النزول إذا تعدد: فإما أن يكون الجميع غير صريح، و إما أن يكون الجميع صريحا، و إما أن يكون بعضه غير صريح و بعضه صريحا، فإن كان الجميع غير صريح في السببية فلا ضرر حيث يحمل على التفسير و الدخول في الآية (ا) و إن كان بعضه غير صريح و بعضه الآخر صريحا فالمعتمد هو الصريح (ب) و إن كان الجميع صريحا فلا يخلو، إما أن يكون أحدهما صحيحا أو الجميع صحيحا، فإن كان أحدهما صحيحا دون الآخر فالصحيح هو المعتمد (ج) و إن كان الجميع صحيحا فالترجيح إن أمكن (د) و إلا فالجمع إن أمكن (ه) و إلا حمل على تعدد النزول و تكرره (و) و في هذا القسم الأخير مقال، و في النفس منه شيء.

تعدد النزول مع وحدة السبب:-

قد يتعدد ما ينزل و السبب واحد، و لا شيء في ذلك، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى. و مثاله: ما أخرجه سعيد بن منصور و عبد الرزاق و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و الحاكم و صححه عن أم سلمة قالت: «يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله (فَأَشْتَجِبَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضَيِّعُ عَمَلًا مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ...) الآية «١»».

و أخرج أحمد و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه عن أم سلمة قالت: «قلت يا رسول الله: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟»

فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر و هو يقول (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ...) الى آخر الآية «٢».

و أخرج الحاكم عن أم سلمة أيضا أنها قالت: تغزو الرجال و لا تغزو

(١). ١٩٥- آل عمران.

(٢). ٣٥- الأحزاب.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٣

النساء، و إنما لنا نصف الميراث؟ فأنزل الله (وَلَا تَمَنَّؤْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ...) الآية «١» و أنزل (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ...) فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد.

تقدم نزول الآية على الحكم

يذكر «الزر كشي» نوعا يتصل بأسباب النزول يسميه «تقدم نزول الآية على الحكم» «٢» و المثال الذي ذكره في ذلك لا يدل على أن الآية تنزل في حكم خاص ثم لا يكون العمل بها إلا مؤخرا، و إنما يدل على أن الآية قد تنزل بلفظ مجمل يحتمل أكثر من معنى ثم

يحمل تفسيرها على أحد المعاني فيما بعد فتكون دليلاً على حكم متأخر. جاء في «البرهان» «و اعلم أنه قد يكون النزول سابقاً على الحكم، وهذا كقوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ١٤- الأعلى) فإنه يستدل بها على زكاة الفطر، روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان، ثم أسند مرفوعاً نحوه، وقال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل؟ لأن هذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة».

و أجاب البغوي (٣) في تفسيره بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم، كما قال (لا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ١، ٢- البلد) فالسورة مكية، و ظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال عليه السلام: «أحلت لي ساعة من نهار» (٤).

(١). ٣٢- النساء

(٢) انظر «البرهان» صفحة ٣٢ ج ١.

(٣) هو أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد البغوي، الفقيه الشافعي، صاحب كتاب «مصابيح السنة» في الحديث و «معالم التنزيل» في التفسير، توفي سنة ٥١٠هـ.

(٤) من حديث في الصحيحين. والآية تحتمل ثلاث معان: أن يكون «حل» من الحلول بالمكان و النزول به، فيكون حلوله بالبلد الأمين مناطاً لإعظامه بالإقسام به، أو يكون «حل» من الحلال بمعنى المباح، فإنهم قد استحلوه عليه الصلاة و السلام في هذا البلد الحرام. أو يكون المعنى و أنت حل في المستقبل، و هذا الرأي الأخير هو الذي يكون النزول فيه سابقاً للحكم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٤

و كذلك نزل بمكة (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ٤٥- القمر) قال عمر ابن الخطاب: كنت لا- أدري: أي الجمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (سيهزم الجمع و يولون الدبر).

فأنت ترى فيما ذكره صاحب البرهان أن صيغته سبب النزول محتملة للسببية و لما تضمنته الآية من الأحكام (روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان) و الآيات التي ذكرها مجتمعة تحتمل أكثر من معنى، أو جاءت بصيغة الإخبار عما يحدث في المستقبل (سيهزم الجمع و يولون الدبر).

تعدد ما نزل في شخص واحد

قد يحدث لشخص واحد من الصحابة أكثر من واقعة، و يتنزل القرآن بشأن كل واقعة منها، فيتعدد ما نزل بشأنه بتعدد الوقائع، و مثاله: ما رواه البخاري في كتاب «الأدب المفرد» في بر الوالدين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «نزلت في أربع آيات من كتاب الله عز و جل: كانت أمي حلفت ألا تأكل و لا تشرب، حتى أفارق محمداً صلى الله عليه و سلم، فأنزل الله تعالى: (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ١٥- لقمان) و الثانية: أني كنت أخذت سيفاً فأعجبني، فقلت:

يا رسول الله، هب لي هذا السيف، فنزلت: (يَسْمِئُلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ١- الأنفال) و الثالثة: أني كنت مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت: يا رسول الله، إنني أريد أن أقسم ما لي، أفأوصي بالنصف؟ فقال لا، فقلت: الثلث، فسكت، فكان الثلث بعد جائزاً (١)، و الرابعة: أني شربت الخمر مع قوم من الأنصار، فضرب رجل منهم أنفي بلحى جمل، فأتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم فأنزل الله عز و جل تحريم الخمر» و يعتبر من هذا القبيل موافقات عمر رضي الله عنه، فقد نزل الوحي موافقاً لرأيه في عدة آيات.

(١) نزل في الوصية قوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ ١٨٠- البقرة) و لم

يأت التصريح بنزول الآية في نص الحديث

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٥

الاستفادة من معرفة أسباب النزول في مجال التربية والتعليم

يعانى المربون في مجال الحياة التعليمية كثيرا من المتاعب في استخدام الوسائل التربوية لإثارة انتباه الطلاب حتى تتهيأ نفوسهم للدرس في شوق يستجمع قواهم العقلية و يرغبهم في الاستماع و المتابعة، و المرحلة التمهيديّة من مراحل الدرس تحتاج إلى فطنة لماحة تعيين المدرس على اجتذاب مشاعر الطلاب لدرسه بشتى الوسائل المناسبة، كما تحتاج إلى ممارسة طويلة تكسبه خبرة في حسن اختيار الربط بين معلوماتهم دون تعسف يكلفه شططا.

و كما تهدف المرحلة التمهيديّة في الدرس إلى إثارة انتباه الطلاب و اجتذاب مشاعرهم فإنها تهدف كذلك إلى التصور الكلى للموضوع، كى يسهل على المدرس أن ينتقل بطلابه من الكلى للجزئى إلى أن يستوعب عناصر الدرس تفصيلا بعد أن تصوره طلابه جملة.

و معرفة أسباب النزول هي السبيل الأفضل لتحقيق تلك الأهداف التربوية في دراسة القرآن الكريم تلاوة و تفسيراً.

إن سبب النزول إما أن يكون قصة لحادثة وقعت، و إما أن يكون سؤالاً طرح على رسول الله صلى الله عليه و سلم لاستكشاف حكم في موضوع، فينزل القرآن إثر الحادثة أو السؤال، فلن يجد المدرس نفسه في حاجة لمعالجة التمهيدي للدرس بشىء يبتكره و يختاره، إذ أنه إذا ساق سبب النزول كانت قصته كافية في إثارة انتباه الطلاب، و اجتذاب مشاعرهم، و استجماع قواهم العقلية، و تهيئة نفوسهم لتقبل الدرس، و تشويقهم للاستماع إليه، و ترغيبهم في الحرص

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٦

عليه، فهم يتصورون الدرس بمعرفة سبب النزول تصورا عاما بما فيه من عناصر القصة المثيرة، فتتوق نفوسهم إلى معرفة ما نزل ملائما له و ما يتضمنه من أسرار تشريعية و أحكام تفصيلية، تهدي الإنسانية إلى نهج الحياة الأقوم، و صراطها المستقيم، و سبيل عزها و مجدها و سعادتها.

و على المربين في مجال الحياة التربوية التعليمية الخاصة بمقاعد الدرس أو العامة في التوجيه و الإرشاد أن يستفيدوا من سياق أسباب النزول في التأثير على الطلاب الدارسين و جماهير المسترشدين، فذلك أجدى و أنفع و أهدى سبيلا لتحقيق الأهداف التربوية بأروع معانيها و أرقى صورها.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٧

المناسبات بين الآيات و السور

كما أن معرفة سبب النزول لها أثرها في فهم المعنى و تفسير الآية فإن معرفة المناسبات بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل، و دقة الفهم، و لذا أفرد بعض العلماء هذا المبحث بالتصنيف «١».

و المناسبة في اللغة: المقاربة، يقال فلان يناسب فلانا أى يقرب منه و يشاكله و منه المناسبة في العلة في باب القياس، و هي الوصف المقارب للحكم.

و المراد بالمناسبة هنا: وجه الارتباط بين الجملة و الجملة في الآية الواحدة- أو بين الآية و الآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة و السورة.

و لمعرفة المناسبة فائدها في إدراك اتساق المعانى، و إعجاز القرآن البلاغى، و إحكام بيانه، و انتظام كلامه، و روعة أسلوبه، (كتاب

أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١- هود).

قال الزركشى: «و فائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، و يصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء» و قال القاضى أبو بكر بن العربى: «ارتباط آى القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعانى، منتظمة المبانى، علم عظيم».

و معرفه المناسبات و الربط بين الآيات ليست أمراً توقيفياً، و لكنها تعتمد على اجتهاد المفسر و مبلغ تذوقه لإعجاز القرآن و أسراره البلاغية و أوجه بيانه الفريد، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى، منسجمة مع السياق، متفقه مع الأصول اللغوية فى علوم العربية، كانت مقبولة لطيفة.

(١) ممن صنف فيه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى النحوى الحافظ المتوفى سنة ٨٠٧ هـ فى كتاب سماه «البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن» و للشيخ برهان الدين البقاعى كتاب فى هذا سماه «نظم الدرر فى تناسب الآيات و السور» و توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية، و انظر هذا المبحث فى «البرهان» للزركشى، صفحة ٣٥ ج ١.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٩٨

و لا يعنى هذا أن يلتمس المفسر لكل آية مناسبة، فإن القرآن الكريم نزل منجماً حسب الوقائع و الأحداث، و قد يدرك المفسر ارتباط آياته و قد لا يدركها، فلا ينبغى أن يعتسف المناسبة اعتسافاً، و إلا كانت تكلفاً ممقوتاً، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام «١»: «المناسبة علم حسن، و لكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر». ثم قال: «و من ربط بين ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصاب عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل فى نيف و عشرين سنة فى أحكام مختلفة، و لأسباب مختلفة، و ما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض».

و قد عنى بعض المفسرين بيان المناسبة بين الجمل، أو بين الآيات، أو بين السور «٢» و استنبطوا وجوه ارتباط دقيقة.

فالجمله قد تكون تأكيداً لما قبلها، أو بياناً، أو تفسيراً، أو اعتراضاً تذييلياً- و لهذا أمثلته الكثيرة.

و للآية تعلقها بما قبلها على وجه من وجوه الارتباط يجمع بينهما، كالمقابلة بين صفات المؤمنين و صفات المشركين، و وعيد هؤلاء و وعد أولئك، و ذكر آيات الرحمة بعد آيات العذاب، و آيات الترغيب بعد آيات التهيب، و آيات التوحيد و التنزيه بعد الآيات الكونية، و هكذا ...

و قد تكون المناسبة فى مراعاة حال المخاطبين كقوله تعالى (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ١٧- ٢٠- الغاشية) فجمع بين الإبل و السماء و الجبال مراعاة لما جرى عليه الإلف و العادة بالنسبة إلى المخاطبين فى البادية، حيث يعتمدون فى معاشهم على الإبل، فتصرف عنايتهم إليها، و لا

(١) هو عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز كان عالماً مجاهداً ورعاً، توفى سنة ٦٦٠ هـ.

(٢) وجه الارتباط بين السور مبنى على أن ترتيب السور توقيفى، و قد اختلف العلماء فى ذلك كما سيأتى.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٩٩

يتأتى لهم ذلك إلا بالماء الذى ينبت المرعى و ترده الإبل، و هذا يكون بنزول المطر، و هو سبب تقلب وجوههم فى السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به و لا- شئ أمنع كالجبال، و هم يطلبون الكلاً و الماء فيرحلون من أرض و يهبطون أخرى، و ينتقلون من مرعى أجذب إلى مرعى أخصب، فإذا سمع أهل البادية هذه الآيات خالطت شغاف قلوبهم بما هو حاضر لا يغيب عن أذهانهم.

وقد تكون المناسبة بين السورة و السورة، كافتتاح سورة «الأنعام» بالحمد (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ١- الأنعام) فإنه مناسب لختام سورة «المائدة» في الفصل بين العباد و مجازاتهم (إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ... إلى آخر السورة ١١٨- ١٢٠- المائدة) كما قال سبحانه (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٧٥- الزمر) و كافتتاح سورة «الحديد» بالتسبيح (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١- الحديد) فإنه مناسب لختام سورة «الواقعة» من الأمر به (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٩٦- الواقعة) و كارتباط سورة «الإيلاف قريش» بسورة «الفيل» فإن هلاك أصحاب الفيل كانت عاقبته تمكين قريش من رحلتها شتاء و صيفا، حتى قال الأخفش، اتصالها بها من باب قوله تعالى (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ٨- القصص).

وقد تكون المناسبة بين فواتح السور و خواتمها .. و من ذلك ما في سورة «القصص» فقد بدأت بقصة موسى عليه السلام، و بيان مبدأ أمره و نصره، ثم ما كان منه عند ما وجد رجلين يقتتلان.

و حكى الله دعاءه (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ١٧- القصص) ثم ختم الله السورة بتسليته رسولنا صلى الله عليه و سلم بخروجه من مكة و الوعد بعودته إليها، و نهيه عن أن يكون ظهيرا للكافرين (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ٨٥، ٨٦- القصص).

و من تتبع كتب التفسير وجد كثيرا من وجوه المناسبات.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٠٠

٧- نزول القرآن

إشارة

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد صلى الله عليه و سلم لهداية البشرية، فكان نزوله حدثا جللا يؤذن بمكانته لدى أهل السماء و أهل الأرض، فإنزله الأول في ليلة القدر أشعر العالم العلوي من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التي أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أخرجت للناس، و تنزله الثاني مفرقا على خلاف المعهود في إنزال الكتب السماوية قبله أثار الدهشة التي حملت القوم على المماراة فيه، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية، فلم يكن الرسول صلى الله عليه و سلم ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة و يقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلف و عناد، فكان الوحي يتنزل عليه تباعا تثبيتا لقلبه، و تسليته له، و تدرجا مع الأحداث و الوقائع حتى أكمل الله الدين، و أتم النعمة.

نزول القرآن جملة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَ الْقُرْآنِ ١٨٤- البقرة) و يقول: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ١- القدر)

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٠١

و يقول: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ٣- الدخان).

و لا تعارض بين هذه الآيات الثلاث، فالليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان، إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملي في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم، حيث نزل القرآن عليه في ثلاث و عشرين سنة- و للعلماء في هذا مذهبان أساسيان- ١- المذهب

الأول:- وهو الذى قال به ابن عباس و جماعة و عليه جمهور العلماء- أن المراد بنزول القرآن فى تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيما لشأنه عند ملائكته، ثم نزل بعد ذلك منجما على رسولنا محمد صلى الله عليه و سلم فى ثلاث و عشرين سنة «١» حسب الوقائع و الأحداث منذ بعثته إلى أن توفى صلوات الله و سلامه عليه، حيث أقام فى مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، و بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات: فعن ابن عباس قال: «بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة عشر سنين، و مات و هو ابن ثلاث و ستين» «٢».

و هذا المذهب هو الذى جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس فى عدة روايات! ١- عن ابن عباس قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر. ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة، ثم قرأ (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) -٣٣- الفرقان»

(١) و قدر بعض العلماء مدة نزول القرآن بعشرين سنة، و بعضهم بخمس و عشرين سنة لاختلافهم فى مدة إقامته صلى الله عليه و سلم بعد البعثة- بمكة-، أ كانت ثلاث عشرة سنة، أم عشر سنين أم خمس عشرة سنة؟ مع اتفاقهم على أن إقامته بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات- و الصواب الأول- انظر الإتيان صفحة (٣٩) ج ١.

(٢) رواه البخارى.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٠٢

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ١٠٦-الإسراء) «١».

ب- و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه و سلم» «٢».

ج- و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، و كان بمواقع النجوم، و كان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه و سلم بعضه فى إثر بعض» «٣».

د- و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «أنزل القرآن فى ليلة القدر فى شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل نجوما» «٤».

٢- المذهب الثانى:- وهو الذى روى عن الشعبى «٥»- أن المراد بنزول القرآن فى الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقد ابتداء نزوله فى ليلة القدر من شهر رمضان، و هى الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجا مع الوقائع و الأحداث فى قرابة ثلاث و عشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجما على رسول الله صلى الله عليه و سلم، لأن هذا هو الذى جاء به القرآن! (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ١٠٦-الإسراء) و جادل فيه المشركون الذين نقل إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُبِّئَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا-٣٢، ٣٣-الفرقان) و لا يظهر للبشر مزية لشهر رمضان

(١) رواه الحاكم البيهقى و النسائى.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه الحاكم و البيهقى.

(٤) رواه الطبرانى.

(٥) الشعبى: هو عامر بن شراحيل. من كبار التابعين- و أكبر شيوخ أبى حنيفة- كان إماما فى الحديث و الفقه، و توفى سنة ١٠٩

هجريه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٠٣

وليلة القدر التي هي الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم» وهذا يوافق ما جاء في قوله تعالى بغزوة بدر (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ٤١- الأنفال) وقد كانت غزوة بدر في رمضان. ويؤيد هذا ما عليه المحققون في حديث بدء الوحي، عن عائشة قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد و يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، حتى بلغ: ما لم يعلم» (١) فإن المحققين من الشراح على أن الرسول صلى الله عليه وسلم نبيء أولا بالرؤيا في شهر مولده شهر ربيع الأول، ثم كانت مدتها ستة أشهر، ثم أوحى إليه يقظة في شهر رمضان باقرا- وبهذا تتأزر النصوص على معنى واحد.

٣- وهناك مذهب ثالث: يرى أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر (٢) في كل ليلة منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك منجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع السنة.

وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين، ولا دليل عليه.

أما المذهب الثاني الذي روى عن الشعبي فأدلتته- مع صحتها والتسليم بها- لا تتعارض مع المذهب الأول الذي روى عن ابن عباس.

(١) رواه البخارى و مسلم وغيرهما.

(٢) أو عشرين، أو خمس وعشرين ليلة قدر، بناء على الخلاف السابق في مدة إقامته بمكة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٠٤

فالراجح أن القرآن الكريم له تنزلان! الأول: نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

والثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقا في ثلاث وعشرين سنة.

وقد نقل القرطبي عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث في نزول القرآن والواقع العملي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان: عن ابن عباس: «أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبى الشك قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) وقوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وهذا أنزل في شوال، وفي ذى القعدة، وفي ذى الحجة، وفي المحرم وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم (١) رسلا (٢) في الشهور والأيام» (٣).

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك في تعظيم شأن القرآن، وتشريف المنزل عليه، قال السيوطي: «قيل السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لينزله عليهم. ولو لا- أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقا، تشريفا للمنزل عليه» وقال

السخاوى في جمال القراء: «في نزوله إلى السماء جملة تكريم بنى آدم و تعظيم شأنهم عند الملائكة و تعريفهم عناية الله بهم، و رحمته لهم، و لهذا المعنى أمر سبعين ألفا من الملائكة أن تشيع

(١) على مواقع النجوم: أى على مثل مساقطها فى نزوله مفرقا يتلو بعضه بعضا.

(٢) رسلا: أى على تودة و رفق.

(٣) أخرجه ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٠٥

سورة الأنعام «١»، و زاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام، و إنساخهم إياه، و تلاوتهم له «٢».

نزول القرآن منجما

يقول تعالى فى التنزيل: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٢-١٩٥- الشعراء) و يقول: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢- النحل). و يقول: (تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢- الجاثية) و يقول: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ٢٣- البقرة).

و يقول: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧- البقرة). فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، و أن جبريل نزل به على قلب رسول الله صلى الله عليه و سلم، و أن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا فالمراد به نزوله منجما، و يدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج و التنجيم، فإن علماء اللغة يفرقون بين الإنزال و التنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقا، و الإنزال أعم «٣». و قد نزل القرآن منجما فى ثلاث و عشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على

(١) المشيع من القرآن: ما نزل منه محفوظا بالملائكة. أخرج الطبرانى و أبو عبيد فى فضائل القرآن:

عن ابن عباس قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح».

(٢) أنظر الإتيان، صفحة (٤٠، ٤١) ج ١.

(٣) انظر مفردات الراغب.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٠٦

الرأى الراجح، و عشر بالمدينة، و جاء التصريح بنزوله مفرقا فى قوله تعالى (وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ١٠٦- الإسراء) أى جعلنا نزوله مفرقا كى تقرأه على الناس على مهل و تثبت، و نزلناه تنزيلا بحسب الوقائع و الأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة و الإنجيل و الزبور - فكان نزولها جملة، و لم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى (وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ٣٢- الفرقان) فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، و هو ما عليه جمهور العلماء، و لو كان نزولها مفرقا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجما، فمعنى قولهم: (لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ و ما له أنزل على التنجيم؟

و لم أنزل مفرقا؟ و لم يرد الله عليهم بأن هذه سنته فى إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم فى قولهم: (وَ قَالَوا ما لِهَذَا الرَّسُولِ

يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟

٧- الفرقان) بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ٢٠- الفرقان) و كما رد عليهم في قولهم: (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا؟- ٩٤- الإسراء) بقوله: (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ٩٥- الإسراء) و قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ٧- الأنبياء) بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجما بقوله: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) أى كذلك أنزل مفرقا لحكمة هي تقوية قلب رسول الله (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) أى قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض، أو بيناه تبيينا، فإن إنزاله مفرقا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ و الفهم و ذلك من أعظم أسباب التثبيت.

و الذى استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات و عشر آيات و أكثر و أقل، و قد صح نزول العشر آيات فى قصة

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٠٧

الإفك جملة، و صح نزول عشر آيات فى أول المؤمنين جملة، و صح نزول «غير أولى الضرر» وحدها و هي بعض آية» (١).

حكمة نزول القرآن منجما

إشارة

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجما من النصوص الواردة فى ذلك. و نجملها فيما يأتى:-

١- الحكمة الأولى:- تثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته إلى الناس، فوجد منهم نفورا و قسوة، و تصدى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الجفوة، و جبلوا على العناد، يتعرضون له بصنوف الأذى و العنت، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخير الذى يحمله إليهم، حتى قال الله فيه (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ٦- الكهف) فكان الوحي ينتزل على رسول الله صلى الله عليه و سلم فترة بعد فترة، بما يثبت قلبه على الحق، و يشحذ عزمه للمضى قدما فى طريق دعوته، لا يبالي بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع.

يبين الله له سنته فى الأنبياء السابقين الذين كذبوا و أودوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله، و أن قومه لم يكذبوه إلا علوا و استكبارا، فيجد عليه الصلاة و السلام فى ذلك السنة الإلهية فى موكب النبوة عبر التاريخ التى يتأسى بها تسلياً له إزاء أذى قومه، و تكذيبهم له، و إعراضهم عنه (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ، وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ٣٣، ٣٤- الأنعام)

(١) نقل هذا السيوطى عن «مكى بن أبى طالب» المتوفى سنة ٤٣٧ هجرية، فى كتاب له يسمى «الناسخ و المنسوخ- انظر الإتيان. صفحة (٤٢) ج ١.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٠٨

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ ١٨٤- آل عمران).

و يأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ ٣٥- الأحقاف) و يطمئن نفسه بما تكفل الله به

من كفايته أمر المكذبين (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُم قَلِيلًا - ١٠، ١١- المزمّل).

و هذا هو ما جاء في حكمه قصص الأنبياء بالقرآن (وَ كَلَّمَا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ١٢٠- هود).
و كلما اشتد ألم رسول الله صلى الله عليه و سلم لتكذيب قومه، و داخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعماً و تسلياً له، يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم، و سيجازيهم على ما كان منهم (فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ ٧٦- يس) (و لا- يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٥- يونس).

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة و الغلبة و النصر (وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ٦٧- المائدة) (وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ٣- الفتح) (كَتَبَ اللَّهُ لِمَآءِلِينٍ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١- المجادلة)- و هكذا كانت آيات القرآن تنزل على رسول الله صلى الله عليه و سلم تبعاً تسلياً له بعد تسليته، و عزاء بعد عزاء، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه و لا يستبد به الأسى، و لا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً، فله في قصص الأنبياء أسوء، و في مصير المكذبين سلوى، و في العدة بالنصر بشرى، و كلما عرض له شيء من الحزن بمقتضى الطبع البشرى تكررت التسليته، فثبت قلبه على دعوته، و اطمأن إلى النصر.

و هذه الحكمة هي التي رد الله بها على اعتراض الكفار في تنجيم القرآن بقوله تعالى (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ٣٢- الفرقان).

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٠٩

قال أبو شامة: «١» «فإن قيل: ما السر في نزوله منجماً؟ و هلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه، فقال تعالى (وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله (كذلك) أى أنزلناه مفرقا (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) أى لنقوى به قلبك، فان الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثه كان أقوى للقلب، و أشد عنايته بالمرسل إليه، و يستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، و تجدد العهد به و بما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، و لهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل» «٢».

٢- الحكمة الثانية: التحدى و الإعجاز.

فالمشركون تمادوا في غيهم، و بالغوا في عتوهم، و كانوا يسألون أسئلة تعجيز و تحد يمتحنون بها رسول الله في نبوته، و يسوقون له من ذلك كل عجب من باطلهم، كعلم الساعة (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ١٨٧- الأعراف)، و استعجال العذاب (وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ٤٧- الحج) فيتنزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم، و بما هو أوضح معنى في مؤدى أسئلتهم، كما قال تعالى (وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣- الفرقان) أى و لا يأتونك بسؤال عجب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق، و بما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التي هي مثل في البطلان.

و حيث عجبوا من نزول القرآن منجماً بين الله لهم الحق في ذلك، فإن تحديهم به مفرقا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، و أبلغ في الحجته من أن

(١) أبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى، الفقيه الشافعى، له «الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز» و «شرح على الشاطبية المشهورة في القراءات، توفي سنة ٦٦٥ هجرية.

(٢) انظر الإتقان صفحة (٤١) ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٠

ينزل جملة و يقال لهم: جيئوا بمثلها، و لهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم (لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً) أى لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا- أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا و بما هو أبين معنى في إعجازهم، و ذلك بنزوله مفرقا، و يشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات في حديث ابن عباس عن نزول القرآن «فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا» (١).

٣- الحكمة الثالثة: تيسير حفظه و فهمه:

لقد نزل القرآن الكريم على أمه أمية لا تعرف القراءة و الكتابة، سجلها ذاكرة حافظه، ليس لها دراية بالكتابة و التدوين حتى تكتب و تدون، ثم تحفظ و تفهم. (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يَزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - ٢- الجمعة) (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ١٥٧- الأعراف) فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة، و أن تفهم معانيه و تدبر آياته، فكان نزوله مفرقا خير عون لها على حفظه في صدورهم و فهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، و تدبروا معانيها، و وقفوا عند أحكامها، و استمر هذا منهجا للتعليم في حياة التابعين، عن أبي نضرة قال: «كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداء، و خمس آيات بالعشى، و يخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات» (٢) و عن خالد بن دينار قال: «قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبي صلى الله عليه و سلم كان يأخذه من جبريل خمسا خمسا» (٣) و عن عمر قال: «تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي صلى الله عليه و سلم خمسا خمسا» (٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن عساکر.

(٣) أخرجه البيهقي.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١١

٤- الحكمة الرابعة: مسابرة الحوادث و التدرج في التشريع.

فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لو لا أن القرآن عالجهم بحكمة، و أعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطون بها من الفساد و الرذيلة، و كلما حدثت حادثه بينهم نزل الحكم فيها يجلى لهم صبحها و يرشدهم إلى الهدى، و يضع لهم أصول التشريع حسب مقتضيات أصلا بعد آخر فكان هذا طبا لقلوبهم.

لقد كان القرآن الكريم بادئ ذي بدء يتناول أصول الايمان بالله تعالى و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و ما فيه من بعث و حساب و جزاء و جنة و نار، و يقيم على ذلك الحجج و البراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية و يغرّس فيها عقيدة الإسلام.

و كان يأمر بمحاسن الأخلاق التي تزكو بها النفس و يستقيم عوجها، و ينهى عن الفحشاء و المنكر ليقطع جذور الفساد و الشر. و يبين قواعد الحلال و الحرام التي يقوم عليها صرح الدين، و ترسو دعائمه في المطاعم و المشارب و الأموال و الأعراض و الدماء. ثم تدرج التشريع بالأمة في علاج ما تأصل في النفوس من أمراض اجتماعية.

بعد أن شرع لهم من فرائض الدين و أركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان، خالصة لله، تعبد و وحده لا شريك له.

كما كان القرآن ينزل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين في جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله.

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه.

ففي مكة شرعت الصلاة، وشرع الأصل العام للزكاة مقارنة بالربا (فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ٣٨، ٣٩- الروم).

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٢

ونزلت سورة الأنعام- وهي مكية- تبين أصول الإيمان، وأدلة التوحيد، وتندد بالشرك والمشركين، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم، وتدعو إلى صيانه حرمة الأموال والدماء والأعراض: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ- ١٥١، ١٥٢- الأنعام).

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام.

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المدينة وآيات تحريم الربا.

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة، أما بيان حقوق كل من الزوجين، وواجبات الحياة الزوجية، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق، أو انتهائها بالموت ثم الإرث- أما بيان هذا فقد جاء في التشريع المدني.

وأصل الزنى حرم بمكة: (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٣٢- الإسراء) ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة. وأصل حرمة الدماء نزل بمكة: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ٣٣- الإسراء) ولكن تفصيل عقوباتها في الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة.

وأوضح مثال لذلك التدرج في التشريع تحريم الخمر.

فقد نزل قوله تعالى: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٣

وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٦٧- النحل) في مقام الامتنان بنعمه سبحانه- وإذا كان المراد بالسكر ما يسكر من الخمر، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب- وهذا ما عليه جمهور المفسرين- فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السكر يشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر.

ثم نزل قوله تعالى: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ٢١٩- البقرة) فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح، ومضارها في إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر في الجسم، وفساد في العقل، وضياع للمال وإثارة لبواغث الفجور والعصيان، ونفرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع.

ثم نزل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ٤٣- النساء) فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر في الأوقات التي يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة، حيث جاء النهي عن قربان الصلاة في حال السكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه في صلاتهم.

ثم نزل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ،

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟ ٩٠، ٩١- المائدة) فكان هذا تحريماً قاطعاً للخمر في الأوقات كلها.

و يوضح هذه الحكمة ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، و لو نزل أول شيء «لا تشربوا الخمر» لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، و لو نزل «لا تنوا» لقالوا: «لا ندع الزنى أبداً» (١).

(١) أخرجه البخاري.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٤

وهكذا كان التدرج في تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث، فقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته في أسرى بدر، فقال عمر: اضرب أعناقهم، وقال أبو بكر: نرى أن تعفو عنهم و أن تقبل منهم الفداء، و أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأى أبي بكر، فنزل قوله تعالى: (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٦٧، ٦٨- الأنفال) (١).

و أعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل: لن نغلب من قلة، فتلقوا درسا قاسيا في ذلك، و نزل قوله تعالى: (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مديريين. ثم أنزل الله سيكنته على رسوله و على المؤمنين و أنزل جنودا لم تروها و عذب الذين كفروا و ذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء و الله غفور رحيم ٢٥- ٢٧- التوبة) (٢).

و لما توفي عبد الله بن أبي- رأس المنافقين- «دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قال عمر: أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا و كذا، و القائل كذا و كذا؟ يعدد أيامه. و رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم، ثم قال له إنى قد خيرت، قد قيل لى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ٨٠- التوبة) فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، و مشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، قال عمر:

فعجبت لى و لجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، و الله و رسوله أعلم، فو الله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان: (و لا تصل على أحد منهم مات أبداً و لا تقم على قبره... ٨٤، ٨٥- التوبة)

(١) من حديث أخرجه أحمد عن أنس.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٥

فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعد حتى قبضه الله عز و جل» (١).

و حين تخلف نفر من المؤمنين الصادقين فى غزوة تبوك، و أقاموا بالمدينة، و لم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لديهم عذرا هجرهم و قاطعهم حتى ضاقوا ذرعا بالحياة ثم نزل القرآن لقبول توبتهم: (لقد تاب الله على النبي و المهاجرين و الأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤف رحيم، و على الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت و ضاقت عليهم أنفسهم هم و ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ١١٧، ١١٨- التوبة) (٢) و يشير إلى هذا ما روى عن ابن عباس فى نزول القرآن: «و نزله جبريل بجواب كلام العباد و أعمالهم» (٣).

٥- الحكمة الخامسة: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد:

إن هذا القرآن الذي نزل منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من عشرين عاماً تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان و يتلو سورة فيجده محكم النسيج، دقيق السبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات و السور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل في كلام البشر: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ - ١- هود) و لو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعددة، و وقائع متتالية، و أحداث متعاقبة، لوقع فيه التفكك و الانفصام، و استعصى أن يكون بينه التوافق و الانسجام: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا - ٨٢- النساء).

(١) أخرجه البخارى و أحمد و النسائى و الترمذى و ابن ماجه و غيرهم.

(٢) من حديث طويل أخرجه البخارى و مسلم و غيرهما، و الثلاثة هم: كعب بن مالك، و هلال بن أمية، و مرارة بن الربيع، و كلهم من الأنصار.

(٣) أخرجه الطبرانى و البزار عن ابن عباس- و أخرجه ابن ابى حاتم من وجه آخر.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٦

فأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم- و هى فى ذروة الفصاحة و البلاغة بعد القرآن الكريم- لا تنتظم حباتها فى كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض فى وحدة و ترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتساقاً و انسجاماً. فكيف بكلام سائر البشر و أحاديثهم: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا - ٨٨- الإسراء) «١».

الاستفادة من نزول القرآن منجماً فى التربية و التعليم

تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين: مراعاة المستوى الذهنى للطلاب و تنمية قدراتهم العقلية و النفسية و الجسمية بما يوجهها و جهة سديدة إلى الخير و الرشاد.

و نحن نلاحظ فى حكمه نزول القرآن منجماً ما يفيدنا فى مراعاة هذين الأمرين على النحو الذى ذكرناه آنفاً، فإن نزول القرآن الكريم تدرج فى تربية الأمة الإسلامية تدرجاً فطرياً لإصلاح النفس البشرية، و استقامته سلوكها، و بناء شخصيتها، و تكامل كيانها، حتى استوت على سوقها، و آتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة.

و كان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه و فهمه و مدارسته و تدبر معانيه، و العمل بما فيه.

و بين نزول القرآن فى مطلع الوحى بالقراءة و التعليم بأداة الكتابة: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ١- ٥- العلق) و نزول آيات الربا و الموارث فى نظام المال، أو نزول آيات القتال فى المفاصلة التامة بين الإسلام و الشرك-

(١) انظر هذه الحكمة فى مناهل العرفان للزرقانى. صفحة (٥٤) ج، ١

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١١٧

بين ذاك و هذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التى تلائم مستوى المجتمع الإسلامى فى تدرجه من الضعف إلى القوة، و من القوة إلى شدة البأس.

و المنهج الدراسي الذي لا يراعى فيه المستوى الذهني للطلاب في كل مرحلة من مراحل التعليم و بناء جزئيات العلوم على كلياتها و الانتقال من الإجمال إلى التفصيل، أو لا يراعى تنمية جوانب الشخصية العقلية و النفسية و الجسمية منهج فاشل لا تجنى منه الأمة ثمرة علمية سوى الجمود و التخلف.

و المدرس الذي لا يعطى طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيثقل كاهلهم و يحملهم ما لا يطيقون حفظا أو فهما أو يحدثهم بما لا يدركون، أو لا يراعى حالهم في علاج ما يعرض لهم من شذوذ خلقى أو يفشو من عادات سيئة، فيقسو و يتعسف، و يأخذ الأمر دون أناة و روية، و تدرج و حكمة- المدرس الذي يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك. يحول العملية التعليمية إلى متاهات موحشه، و يجعل عرف الدراسة قاعات منفرة.

و قس على هذا الكتاب المدرسى، فالكتاب الذي لا تنتظم موضوعاته و فصوله، و لا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب، و لا تترتب جزئياته ترتيبا محكما منسقا، و لا يكون أسلوبه واضحا في أداء المعنى المقصود، كتاب ينفر الطالب من قراءته، و يحرمه من الاستفادة منه.

و الهدى الإلهي في حكمه نزول القرآن منجما هو الأسوة الحسنة في صياغة مناهج التعليم، و الأخذ بأمثل الطرق في الأساليب التربوية بقاعه الدرس، و تأليف الكتاب المدرسى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٨

٨- جمع القرآن و ترتيبه

إشارة

يطلق جمع القرآن و يراد به عند العلماء أحد معنيين:- المعنى الأول:

- جمعه بمعنى حفظه، و جماع القرآن: حفظه، و هذا المعنى هو الذى ورد فى قوله تعالى فى خطابه لنبىه صلى الله عليه و سلم، و قد كان يحرك شفتيه و لسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصا على أن يحفظه:
(لا- تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ١٦- ١٩- القيامة) عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه و شفتيه مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: (لا- تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) قال: يقول: إن علينا أن نجمله فى صدرك ثم نقرأه (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) يقول: إذا أنزلناه عليك (فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) فاستمع له و أنصت (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) أن نبينه بلسانك. و فى لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق. و فى لفظ: استمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله» (١).

المعنى الثانى: جمع القرآن بمعنى كتابته كله، مفرق الآيات و السور،

(١) أخرجه البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عباس.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١١٩

أو مرتب الآيات فقط، و كل سورة، فى صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات و السور فى صحائف مجتمعة تضم السور جميعا و قد رتب إحداها بعد الأخرى.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالوحي، يترقب نزوله عليه بشوق، فيحفظه و يفهمه، مصداقا لوعده الله: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ١٧-القيامة) فكان بذلك أول الحفاظ، و لصحابه فيه الأسوة الحسنة، شغفا بأصل الدين و مصدر الرسالة، و قد نزل القرآن في بضع و عشرين سنة، فربما نزلت الآية المفردة، و ربما نزلت آيات عدة إلى عشر، و كلما نزلت آية حفظت في الصدور، و وعثها القلوب، و الأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة، تستعيز عن أميتها في كتابه أخبارها و أشعارها و أنسابها بسجل صدورها.

و قد أورد البخارى في صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفاظ، هم:

عبد الله بن مسعود، و سالم بن معقل مولى أبي حذيفة، و معاذ بن جبل، و أبي بن كعب، و زيد بن ثابت، و أبو زيد بن السكن، و أبو الدرداء.

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، و سالم، و معاذ، و أبي بن كعب» (١) و هؤلاء الأربعة، اثنان من المهاجرين هما: عبد الله بن مسعود و سالم، و اثنان من الأنصار هما: معاذ و أبي.

٢- و عن قتادة قال: «سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، و معاذ بن جبل، و زيد بن ثابت، و أبو زيد، قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي» (٢) ٣- و روى من طريق ثابت عن أنس كذلك قال: «مات النبي صلى الله

(١) رواه البخارى

(٢) رواه البخارى

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢٠

عليه و سلم و لم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، و معاذ بن جبل، و زيد ابن ثابت، و أبو زيد» (١) و أبو زيد المذكور في هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد على شرط البخارى عن أنس: أن أبا زيد الذى جمع القرآن اسمه: قيس بن السكن، قال: و كان رجلا منا من بنى عدى بن النجار أحد عمومتي، و مات و لم يدع عقباً و نحن ورثناه.

و بين ابن حجر في ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحفاظ، و أنه كان يلقب بالقارئ (٢).

و ذكر هؤلاء الحفاظ السبعة. أو الثمانية، لا يعنى الحصر، فإن النصوص الواردة في كتب السير و السنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون في حفظ القرآن، و يحفظونه أزواجهم و أولادهم. و يقرءون به في صلواتهم بجوف الليل، حتى يسمع لهم دوى كدوى النحل، و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على بيوت الأنصار، و يستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة في بيوتهم، عن أبي موسى الأشعري: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: لو رأيتنى البارحة و أنا أستمع لقراءتك؟ لقد أعطيت زممارا من زمامر داود» (٣) و عن عبد الله بن عمرو قال: «جمعت القرآن، فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأه في شهر» (٤) و عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى لأعرف رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، و أعرف منازلهم من

(١) رواه البخارى

(٢) الإصابة، صفحة ٢٨ ج ٢

(٣) رواه البخارى، و فى رواية لمسلم بزيادة «فقلت: لو علمت و الله يا رسول الله أنك تسمع لقراءتى لحبرته لك تحييراً».

(٤) أخرجه النسائى بسند صحيح.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢١

أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار» (١) و مع حرص الصحابة على مدارس القرآن و استظهاره فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يشجعهم على ذلك، و يختار لهم من يعلمهم القرآن، عن عبادة بن الصامت قال: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه و سلم إلى رجل منا يعلمه القرآن، و كان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالظوا» (٢).

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخارى بالروايات الثلاث الآنفه الذكر محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله فى صدورهم، و عرضه على النبي صلى الله عليه و سلم. و اتصلت بنا أسانيدهم، أما غيرهم من حفظة القرآن- و هم كثر- فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها، لا سيما و أن الصحابة تفرقوا فى الأمصار، و حفظ بعضهم عن بعض، و يكفى دليلا على ذلك أن الذين قتلوا فى بئر معونة من الصحابة كان يقال لهم القراء، و كانوا سبعين رجلا كما فى الصحيح، قال القرطبي: «قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء- و قتل فى عهد النبي صلى الله عليه بئر معونة مثل هذا العدد» و هذا هو ما فهمه العلماء و أولوا به الأحاديث الدالة على حصر الحفاظ فى السبعة المذكورين، قال الماوردى (٣) معلقا على رواية أنس «لم يجمع القرآن غير أربعة»: «لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع فى نفس الأمر كذلك، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه، و إلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة و تفرقهم فى البلاد» (٤) و هذا لا- يتم إلا- إن كان لقى كل واحد منهم على انفراده، و أخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع فى عهد النبي صلى الله عليه و سلم، و هذا فى غاية البعد فى

(١) رواه البخارى و مسلم

(٢) مناهل العرفان للزرقانى صفحة (٢٣٤) ج ١

(٣) هو أبو الحسن على بن حبيب الشافعى، صاحب كتاب «الأحكام السلطانية» و كتاب «أدب الدنيا و الدين» توفى سنة (٤٥٠) هجرية.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٢٢

العادة، و إذا كان المرجع إلى ما فى علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك، و ليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل و الكل و لو على التوزيع كفى» (١).

و الماوردى بهذا ينفى الشبه التى توهم قلة عدد الحفاظ بأسلوب مقنع، و يبين الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر فى حديث أنس بيانا شافيا.

و قد ذكر أبو عبيد (٢) فى كتاب «القراءات» القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم. فعَدَّ من المهاجرين: الخلفاء الأربعة، و طلحة- و سعدا، و ابن مسعود، و حذيفة، و سالما، و أبا هريرة، و عبد الله السائب، و العبادلة (٣)، و عائشة، و حفصة، و أم سلمة، و من الأنصار: عبادة بن الصامت. و معاذا الذى يكنى أبا حليمه، و مجمع بن جارية، و فضالة بن عبيد، و مسلمة بن مخلد، و صرح بأن بعضهم إنما كمله بعد النبي صلى الله عليه و سلم» (٤) و ذكر الحفاظ الذهبى (٥) فى «طبقات القراء» أن هذا العدد من القراء هم الذين عرضه على النبي صلى الله عليه و سلم، و اتصلت بنا أسانيدهم، و أما من جمعه منهم و لم يتصل بنا سندهم فكثير.

و من هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم كانوا جمعا غفيرا، فإن الاعتماد على الحفظ فى النقل من خصائص هذه

(١) يرد الماوردى بالفقرة الأخيرة على الملاحظة الذين يتمسكون برواية أنس الدالة على الحصر فى أن القرآن غير متواتر، و نضيف

إلى رد الماوردى عليهم أنه بجانب الحفظ كانت الكتابة كما سياتى، و انظر الإتقان صفحة ٧٢- ج ١.

(٢) أبو عبيد: هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخراعي، من أئمة الحديث و اللغة، صاحب كتاب «الأموال» المشهور، توفي سنة ٢٢٤ هجرية.

(٣) العبادلة الأربعة المشهورون بالإفتاء هم: عبد الله بن عباس، و عبد الله بن عمرو بن العاص، و عبد الله بن عمر، و عبد الله بن الزبير.
(٤) انظر الإتيان صفحة ٧٢ ج ١.

(٥) اسمه محمد بن أحمد بن عثمان من كبار المحدثين في القرن الثامن، توفي سنة ٧٤٨ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢٣

الأمة، قال ابن الجزري «١» شيخ القراء في عصره: «إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب و الصدور، لا على خط المصحف و الكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة».

ب- جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول صلى الله عليه و سلم- اتخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم كتابا للوحي من أجلاء الصحابة.

كعلي، و معاوية، و أبي بن كعب، و زيد بن ثابت، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها، و يرشدهم إلى موضعها من سورتها، حتى تظاهر الكتابة في السطور، الجمع في الصدور.

كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم، دون أن يأمرهم النبي صلى الله عليه و سلم، فيخطونه في العصب، و اللخاف، و الكرايف، و الرقاع، و الأقتاب، و قطع الأديم، و الأكتاف «٢»، عن زيد بن ثابت قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم نؤلف القرآن من الرقاع» «٣» و هذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة في كتابة القرآن، حيث لم تيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ.

و كان جبريل يعارض رسول الله صلى الله عليه و سلم بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم أجود الناس، و كان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل،

(١) هو محمد بن محمد الشهير بابن الجزري، صاحب كتاب «النشر في القراءات العشر» توفي سنة ٨٣٣ هجرية.

(٢) العصب: جمع عسيب، و هو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص و يكتبون في الطرف العريض، و اللخاف: جمع لخفة، و هي صفائح الحجارة، و الكرايف: جمع كرنافة، و هي أصول السعف الغلاظ، و الرقاع: جمع رقعة، و قد تكون من جلد أو ورق. و الأقتاب: جمع قتب، و هو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه، و الأكتاف: جمع كتف، و هو العظم الذي للبعير أو الشاة، كانوا إذا جف كتبوا عليه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک بسند على شرط الشيخين، نؤلف القرآن: أي نجمعه لترتيب آياته.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢٤

و كان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه و سلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسله» «١» و كان الصحابة يعرضون على رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لديهم من القرآن حفظا و كتابه كذلك.

و لم تكن هذه الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه و سلم مجتمعة في مصحف عام، بل عند هذا ما ليس عند ذاك، و قد نقل العلماء أن نفرا منهم: علي بن أبي طالب، و معاذ بن جبل، و أبي بن كعب، و زيد بن ثابت، و عبد الله بن مسعود- قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخرا عن الجميع.

و قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم و القرآن محفوظ في الصدور، و مكتوب في الصحف على نحو ما سبق، مفرق الآيات و السور، أو مرتب الآيات فقط و كل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة، «٢» و لم يجمع في مصحف عام، حيث كان

الوحي ينتزل تباعا فيحفظه القراء، و يكتبه الكتبة، و لم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد، لأنه عليه الصلاة و السلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر، و قد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل، و كتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير صلى الله عليه و سلم إلى موضع كتابتها بين آية كذا و آية كذا في سورة كذا، و لو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي. قال الزركشي: «و إنما لم يكتب في عهد النبي صلى الله عليه و سلم مصحف لثلا يفضى إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته صلى الله عليه و سلم» و بهذا يفسر ما روى عن زيد بن ثابت، قال: «قبض النبي صلى الله عليه و سلم و لم يكن القرآن جمع في شيء» أى لم يكن

(١) متفق عليه.

(٢) سيأتى بيان الأحرف السبعة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢٥

جمع مرتب الآيات و السور في مصحف واحد، قال الخطابي: «إنما لم يجمع صلى الله عليه و سلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، و فاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة «١» فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر» (٢). و يسمى هذا الجمع في عهد النبي صلى الله عليه و سلم أ- حفظا- ب- و كتابة «الجمع الأول».

٢- جمع القرآن في عهد أبي بكر رضى الله عنه:-

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و واجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب، فجهز الجيوش و أوفدها لحروب المرتدين، و كانت غزوة أهل اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة تضم عددا كبيرا من الصحابة القراء، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئاً من الصحابة، فهال ذلك عمر بن الخطاب، و دخل على أبي بكر رضى الله عنه و أشار عليه بجمع القرآن و كتابته خشية الضياع، فإن القتل قد استحر (٣) يوم اليمامة بالقراء- و يخشى ان استحر بهم في المواطن الأخرى أن يضيع القرآن و ينسى، فنفر أبو بكر من هذه المقالة و كبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته في القراءة و الكتابة و الفهم و العقل، و شهوده العرضة الأخيرة، و قص عليه قول عمر- فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل، و تراجعاً حتى طابت نفس زيد للكتابة، و بدأ زيد بن ثابت في مهمته الشاقة معتمداً على المحفوظ في صدور القراء، و المكتوب لدى الكتبة، و بقيت تلك الصحف عند أبي بكر،

(١) إشارة إلى قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٩- الحجر).

(٢) انظر الإتقان. صفحة (٥٧) ج ١.

(٣) استحر: اشتد

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢٦

حتى إذا توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر، و ظلت عنده حتى مات- ثم كانت عند حفصة ابنته صدرا من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة:

عن زيد بن ثابت قال: «أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، و إنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، و إنى أريد أن تأمر

بجمع القرآن، فقلت لعمر:

كيف فعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك، و رأيت في ذلك الذى رأى عمر- قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلا- شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف و صدور الرجال، و وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمه الأنصارى. لم أجدها مع غيره (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ) حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر. «١»

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت، فكان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة، وقوله فى الحديث: «و وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمه الأنصارى لم أجدها مع غيره» لا ينافى هذا، ولا يعنى أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، و كان زيد يحفظها، و كان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيدا كان يعتمد على الحفظ و الكتابة معا، فكانت هذه الآية

(١) أخرجه البخارى.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٢٧

محفوظة عند كثير منهم، و يشهدون بأنها كتبت، و لكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبى خزيمه الأنصارى.

أخرج ابن أبى داود «١» من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال:

«قدم عمر فقال: «من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به، و كانوا يكتبون ذلك فى الصحف و الألواح و العسب، و كان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهودان» و هذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوبا حتى يشهد به من تلقاه سماعا، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط، و أخرج ابن أبى داود أيضا من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبى بكر قال لعمر و لزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه» و رجاله ثقات مع انقطاعه، قال ابن حجر: «و كأن المراد بالشاهدين: الحفظ و الكتاب» و قال السخاوى «٢» فى «جمال القراء» المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التى نزل بها القرآن» قال أبو شامة: «و كان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم، لا من مجرد الحفظ، و لذلك قال فى آخر سورة التوبة: «لم أجدها مع غيره» أى لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة» «٣».

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوبا من قبل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم، و لكنه كان مفرقا فى الرقاع و الأكتاف و العسب. فأمر أبو بكر بجمعه فى مصحف واحد

(١) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، من كبار حفاظ الحديث. له من الكتب:

المصاحف، و المسند، و السنن، و التفسير، و القراءات، و الناسخ و المنسوخ- انظر الأعلام للزركلى، صفحة ٢٢٤ ج ٤.

(٢) هو على بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوى، له منظومة فى القراءات تعرف بالسخاوية، توفى سنة ٦٤٣ هجرية.

(٣) انظر الإتقان صفحة ٥٨ ج ١.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٢٨

مرتب الآيات و السور و أن تكون كتابته غاية من الثبوت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فكان أبو بكر رضى الله عنه أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف، و إن وجدت مصاحف فردية عند بعض الصحابة، كمصحف علي، و مصحف أبي، و مصحف ابن مسعود، فإنها لم تكن على هذا النحو، و لم تنل حظها من التحرى و الدقة، و الجمع و الترتيب، و الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، و الإجماع عليها، بمثل ما نال مصحف أبي بكر، فهذه الخصائص تميز بها جمع أبي بكر للقرآن، و يرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين في عهد أبي بكر بهذا الجمع، و عن علي قال: «أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله».

و هذا الجمع هو المسمى بالجمع الثانى.

٣- جمع القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه:-

اتسعت الفتوحات الإسلامية، و تفرق القراء في الأمصار، و أخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته، و وجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف، و قد يقنع بأنها جميعا مسندة إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التي لم تدرك الرسول، فيدور الكلام حول فصيحها و أفصحها، و ذلك يؤدي إلى الملاحاة إن استفاض أمره و مردوا عليه، ثم إلى اللجاج و التأثيم، و تلك فتنة لا بد لها من علاج.

فلما كانت غزوة «أرمينية» و غزوة «أذربيجان» من أهل العراق، كان فيمن غزاهما «حذيفة بن اليمان» فرأى اختلافا كثيرا في وجوه القراءة، و بعض ذلك مشوب باللحن، مع ألف كل لقراءته، و وقوفه عندها، و مماراته مخالفة لغيره، و تكفير بعضهم الآخر، حينئذ فرغ إلى عثمان رضى الله عنه، و أخبره

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٢٩

بما رأى، و كان عثمان قد نمى إليه أن شيئا من ذلك الخلاف يحدث لمن يقرءون الصبيء، فينشأ هؤلاء و بينهم من الاختلاف ما بينهم، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف و التبديل، و أجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، و يجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل عثمان إلى حفصة، فأرسلت اليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصارى، و إلى عبد الله بن الزبير، و سعيد بن العاص، و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف، و أن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

عن أنس «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، و كان يغازى أهل الشام في أرمينية و أذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود و النصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك- فأرسلت بها حفصة إلى عثمان- فأمر زيد بن ثابت. و عبد الله بن الزبير، و سعيد بن العاص، و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، و قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت في شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، و أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، و أمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصارى (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ٢٣- الأحزاب) فألحقناها في سورتها في المصحف» (١)

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٠

و دلت الآثار على أن الاختلاف في وجوه القراءة لم يفزع منه حذيفة بن اليمان وحده، بل شاركه غيره من الصحابة في ذلك، عن ابن جرير قال:

«حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن عليه، قال: حدثنا أيوب، عن أبي قلابه، قال لما كان في خلافة عثمان، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، و المعلم يعلم قراءة الرجل. فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين - قال أيوب: فلا أعلمه إلا قال - حتى كفر بعضهم بقراء بعض، فبلغ ذلك عثمان. فقام خطيباً فقال: «أنتم عندي تختلفون فيه و تلحنون، فمن نأى عنى من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً و أشد لحناً. اجتمعوا يا أصحاب محمد. فكتبوا للناس إماماً» قال أبو قلابه: فحدثني أنس بن مالك قال: كنت فيمن يملئ عليهم، قال: فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لعله أن يكون غائباً في بعض البوادي، فيكتبون ما قبلها و ما بعدها، و يدعون موضعها، حتى يجيء أو يرسل إليه، فلما فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا و كذا، و محوت ما عندي، فامحوا ما عندكم» «١» و أخرج ابن أشتة «٢» من طريق أيوب عن أبي قلابه مثله، و ذكر ابن حجر في الفتح أن ابن أبي داود أخرجه في المصاحف من طريق أبي قلابه. و عن سويد بن غفلة قال: «قال عليّ: لا - تقولوا في عثمان إلا - خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا. قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءة تى خير من قراءة تك، و هذا يكاد يكون كفراً، قلنا فما ترى. قال أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة و لا اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت» «٣».

(١) أنظر الجزء الأول من تفسير الطبري، تحقيق و تخريج الأخوين محمد محمد شاكر و أحمد محمد شاكر طبعه دار المعارف صفحة ٦٢، ٦١.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أشتة، من المحققين الثقات، الذين اشتغلوا بعلوم القرآن، توفي سنة ٣٦٠ هجرية.

(٣) أخرجه ابن أبي داود بسند صحيح.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣١

و هذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة، كتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن. ليجتمع الناس على قراءة واحدة، و ورد عثمان الصحف إلى حفصه، و بعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف. و احتبس بالمدينة واحداً هو مصحفه الذي يسمى الإمام. و تسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات السابقة من قوله: «اجتمعوا يا أصحاب محمد فكتبوا للناس إماماً» و أمر أن يحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف، و تلقت الأمة ذلك بالطاعة، و تركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى.

و لا ضير في ذلك. فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة، و لو أوجب رسول الله صلى الله عليه و سلم على الأمة القراءة بها جميعاً لوجب نقل كل حرف منها نقلاً متواتراً تقوم به الحجة. و لكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة. و أن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة. و هذا هو ما كان.

قال ابن جرير فيما فعله عثمان: «و جمعهم على مصحف واحد، و حرف واحد، و خرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، و عزم على كل من كان عنده مصحف «مخالف» المصحف الذي جمعهم عليه، أن يحرقه» «١»، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، و رأت أن فيها فعل ذلك الرشد و الهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها، طاعة منها له، و نظراً منها لأنفسها و لمن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، و نقضت آثارها، فلا - سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها، لدثورها و عفو آثارها، و تتابع المسلمين على رفض القراءة بها، من غير جحود منها صحتها و صحة شيء منها، و لكن نظراً منها

لأنفسها ولسائر أهل دينها، فلا قراءة للمسلمين

(١) أنظر هذا النص في تفسير ابن جرير الطبري ج ١ صفحة ٦٤، ٦٥، وفي التعليق، قال ابن حجر في الفتح ٩: ١٨ في شرح حديث البخاري: «في رواية الأكثر «أن يخرق» بالخاء المعجمة، و للمروزي بالمهملة، و رواه الأصيلي بالوجهين، و المعجمة أثبت» و خرق الكتاب أو الثوب: شققه و مزقه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٢

اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية.

فإن قال بعض من ضعفت معرفته. و كيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله صلى الله عليه و سلم. و أمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب و فرض، و إنما كان أمر إباحة و رخصة، لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة، عند من يقوم بنقله الحجة، و يقطع خبره العذر، و يزيل الشك من قراءة «١» الأمة، و في تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين، بعد أن يكون في نقله القرآن من الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة.

و إذ كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع، تاركين ما كان عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا، إذ كان الذي فعلوا من ذلك، كان هو النظر للإسلام و أهله، فكان القيام بفعل الواجب عليهم، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه، كانوا إلى الجنائية على الإسلام و أهله أقرب منهم إلى السلامة، من ذلك».

الفرق بين جمع أبي بكر و جمع عثمان:- يتبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث و الكيفية.

فالباعث لدى أبي بكر رضى الله عنه لجمع القرآن خشية من ذهابه بذهاب حملته، حين استحر القتل بالقراء.

و الباعث لدى عثمان رضى الله عنه كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار و خطأ بعضهم بعضا.

(١) «من قرأه الأمة» القراء: جمع قارئ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٣

و جمع أبي بكر للقرآن كان نقلا لما كان مفرقا في الرقاع و الأكتاف و العصب.

و جمعا له في مصحف واحد مرتب الآيات و السور. مقتصر على ما لم تنسخ تلاوته، مشتق على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

و جمع عثمان للقرآن كان نسخا له على حرف واحد من الحروف السبعة، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد. و حرف واحد يقرءون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى. قال ابن التين و غيره: «الفرق بين جمع أبي بكر و جمع عثمان، أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعا في موضع واحد، فجمعه في صحائف، مرتبا آيات سوره على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه و سلم، و جمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئه بعضه، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبا لسوره، و اقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجا بأنه نزل بلغتهم، و إن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعا للحرص و المشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقصر على لغة واحدة» و قال الحارث المحاسبى: «المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، و ليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد، على اختيار وقع بينه و بين من شهدته من المهاجرين و الأنصار، لئلا خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق و الشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من

القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق» (١).
و بهذا قطع عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف، وحصن القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة و التحريف على مر العصور و
تعاقب الأزمان.
و قد اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق،

(١) أنظر الإتقان. صفحة ٥٩، ٦٠ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٤

أ- فليل كان عددها سبعة. أرسلت إلى: مكة، و الشام، و البصرة، و الكوفة، و اليمن، و البحرين، و المدينة: قال ابن أبي داود: سمعت
أبا حاتم السجستاني يقول: كتب سبعة مصاحف، فأرسل إلى مكة، و إلى الشام، و إلى اليمن، و إلى البحرين، و إلى البصرة، و إلى
الكوفة، و حبس بالمدينة واحدا.

ب- و قيل كان عددها أربعة، العراقي، و الشامي، و المصري، و المصحف الإمام، أو الكوفي و البصري، و الشامي، و المصحف الإمام.
قال أبو عمرو الداني في المقنع «١»: «أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ، و بعث إلى كل ناحية واحدة
الكوفة، و البصرة، و الشام، و ترك واحدا عنده».

ج- و قيل كان عددها خمسة، و ذهب السيوطي إلى أن هذا هو المشهور.

أما الصحف التي ردت إلى حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت. ثم غسلت غسلًا «٢» و قيل أخذها مروان بن الحكم و أحرقها.
و المصاحف التي كتبها عثمان لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم.

و الذي يروى عن ابن كثير «٣» في كتابه «فضائل القرآن» أنه رأى واحدا منها بجامع دمشق بالشام، في رق يظنه من جلود الإبل» و
يروى أن هذا المصحف الشامي نقل إلى إنجلترا بعد أن ظل في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد فترة، و قيل إنه
احترق في مسجد دمشق سنة ١٣١٠ هجرية.

و جمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث، و كان سنة ٢٥ هجرية.

(١) هو عثمان بن سعيد، من أئمة القراء، له من الكتب: «التيسير في القراءات السبع» و «المقنع في رسم القرآن» و «المحكم في نقط
المصاحف» توفي سنة ٤٤٤ هجرية.

(٢) تفسير الطبري صفحة ٦١ ج ١.

(٣) عماد الدين أبو الفداء. اسماعيل بن عمر بن كثير، صاحب تفسير القرآن، و البدايه و النهايه في التاريخ، توفي سنة ٧٧٤ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٥

شبه مردودة

هناك شبه يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن، و التشكيك في دقة جمعه، و نحن نورد أهمها و نرد عليها:

١- قالوا: إن الآثار قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شيء لم يكتب في المصاحف التي بأيدينا اليوم:

أ- عن عائشة قالت: «سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم رجلا يقرأ في المسجد فقال: يرحمه الله، لقد أذكرني كذا و كذا آية من
سورة كذا» و في رواية «أسقطتهن من آية كذا و كذا» و في رواية «كنت أنسيتها» (١).

و يجاب عن هذا بأن تذكير الرسول صلى الله عليه و سلم بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسيانا لا يشكك في جمع القرآن، فإن

الرواية التي جاء فيها التعبير بالإسقاط تفسرها الرواية الأخرى «كنت أنسيتها» وهذا يدل على أن المراد بإسقاطها نسيانها، كما يدل عليه لفظ «أذكرني» والنسيان جائز على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يخل بالتبليغ، وكانت هذه الآيات قد حفظها رسول الله، واستكتبها كتاب الوحي، وحفظها الصحابة في صدورهم، وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر، فنسيان الرسول صلى الله عليه وسلم لها بعد ذلك لا يؤثر في دقة جمع القرآن، وهذا هو غاية ما يدل عليه الحديث. ولذا كانت قراءة هذا الرجل - وهو أحد الحفظة الذين يبلغ عددهم حد التواتر - مذكرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد أذكرني كذا وكذا آية».

ب- وقال تعالى في سورة الأعلى (سُنْفِرُكَ فَلَا تَنسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ٦، ٧- الأعلى) والاستثناء يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنسى بعض الآيات.

(١) الحديث في الصحيحين بألفاظ متقاربة

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٦

ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى قد وعد رسوله بإقراء القرآن وحفظه، وأمنه من النسيان في قوله: (سَنُفِرُّكَ فَلَا تَنسَى) ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك، والله تعالى فاعل مختار (لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ٢٣- الأنبياء) جاء الاستثناء (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) للدلالة على أن هذا الإخبار بإقراء الرسول القرآن وتأمينه من النسيان ليس خارجا عن إرادته تعالى، فإنه سبحانه لا يعجزه شيء.

يقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية: «و لما كان الوعد على وجه التأييد واللزوم، ربما يوهم أن قدرة الله لا تتسع غيره، وأن ذلك خارج عن إرادته جل شأنه، جاء بالاستثناء في قوله: (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئا لم يعجزه ذلك، فالقصد هو نفي النسيان رأسا، وقالوا: إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه: «أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله» لا يقصد استثناء شيء، وهو من استعمال القلة في معنى النفي، وعلى ذلك جاء الاستثناء، في قوله تعالى في سورة هود (وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ) «١» أي غير مقطوع، فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأييد والتخليد، بكرم من الله وسعة جوده، لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع.

وما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم نسي شيئا كان يذكره، فذلك إن صح، فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها، وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين، التي جازت على عقول المغفلين، فلو ثاب بها ما طهره الله، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشيء من ذلك» ٢- وقالوا: إن في القرآن ما ليس منه، واستدلوا على ذلك بما روى من أن ابن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن.

(١) الآية ١٠٨- هود.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٧

ويجاب عن ذلك بأن ما نقل عن ابن مسعود رضى الله عنه لم يصح، وهو مخالف لإجماع الأمة، قال النووي في شرح المذهب: «و أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد شيئا منها كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح» وقال ابن حزم: «هذا كذب على ابن مسعود وموضوع» وعلى فرض صحته، فالذي يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي صلى الله عليه وسلم فتوقف في أمرهما.

و إنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر.

ومثل هذا يجاب به على ما قيل من أن مصحف ابن مسعود قد أسقطت منه الفاتحة، فإن الفاتحة هي أم القرآن، ولا تخفى قرآنتها على أحد.

٣- و يزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر و عثمان حرفوا القرآن، و أسقطوا بعض آياته و سورة، فحرفوا لفظ (أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ٩٢- النحل) و الأصل «أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّتِكُمْ»، و أسقطوا من سورة «الأحزاب» آيات فضائل أهل البيت و قد كانت في طولها مثل سورة «الأنعام»، و أسقطوا سورة الولاية بتمامها من القرآن.

و يجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها، و دعاوى لا بينة عليها، و الكلام فيها حمق و سفاهة، و قد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السخف، و المنقول عن علي رضي الله عنه الذي يدعون التشيع له يناقضه، و يدل على انعقاد الإجماع بتواتر القرآن الذي بين دفتي المصحف، فقد أثر عنه أنه قال في جمع أبي بكر: «أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر، رحمه الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله» و قال في جمع عثمان: «يا معشر الناس، اتقوا الله، و إياكم و الغلو في عثمان و قولكم: حراق مصاحف، مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٨

فو الله ما حرقها إلا عن ملامنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم» و قال: «لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان» فهذا الذي أثر عن علي نفسه يقطع أسننه أولئك المفترين الذين يزعمون نصرته فيهرفون بما لا يعرفون تشييعا له، و هو منهم براء «١».

(١) انظر مناهل العرفان صفحة ٤٦٤ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٣٩

ترتيب الآيات و السور

ترتيب الآيات:

القرآن سور و آيات منها القصار و الطوال، و الآية: هي الجملة من كلام الله المندرجة في سورة من القرآن، و السورة: هي الجملة من آيات القرآن ذات المطلع و المقطع. و ترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفي عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و حكى بعضهم الإجماع على ذلك: منهم: الزركشي في «البرهان»، و أبو جعفر ابن الزبير «١» في «مناسباته» إذ يقول: «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه و سلم و أمره من غير خلاف بين المسلمين» و جزم السيوطي بذلك فقال: «الإجماع و النصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا- شبهة في ذلك» فقد كان جبريل ينزل بالآيات على رسول الله صلى الله عليه و سلم. و يرشده إلى موضعها من السورة أو الآيات التي نزلت قبل، فيأمر الرسول كتبه الوحي بكتابتها في موضعها و يقول لهم: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا أو كذا، أو ضعوا آية كذا في موضع كذا، كما بلغها أصحابه كذلك، عن عثمان بن أبي العاص قال: «كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم إذ شخص ببصره ثم صوبه، ثم قال: أتاني

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي، كان من النحاة الحفاظ، توفي سنة ٨٠٧ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٠

جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ٩٠- النحل) إلى آخرها «١» و وقف عثمان في جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها في القرآن، و لو كانت منسوخة الحكم. لا غيرها. و هذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقيفيه، عن ابن الزبير قال: «قلت لعثمان: (وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يُدْرُونَ أَرْوَاجًا ٢٣٤- البقرة) قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ «٢» قال: «يا ابن أخي، لا أغير شيئا من مكانه» «٣».

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفياً. إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث، عن أبي الدرداء مرفوعاً: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال» وفي لفظ «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف» (٤) كما جاءت الأحاديث الدالة على أية بعينها في موضعها، عن عمر قال: «ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله، حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء» (٥). و ثبتت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم لسور عديدة بترتيب آياتها في الصلاة، أو في خطبة الجمعة، كسورة البقرة وآل عمران والنساء، و صح أنه قرأ «الأعراف» في المغرب، وأنه كان يقرأ في صبح الجمعة: «الم»، تنزيل الكتاب لا ريب فيه «السجدة» و «هل أتى على الإنسان» «الدهر» و كان يقرأ سورة «ق» في الخطبة، و يقرأ «الجمعة» و «المنافقون» في صلاة الجمعة. و كان جبريل يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام مرة

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن.

(٢) أى لما ذا تثبتوا بالكتابة أو نتركها مكتوبة و أنت تعلم أنها منسوخة؟

(٣) أخرجه البخارى.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤١

في رمضان، و عارضه في العام الأخير من حياته مرتين، و كان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن. و بهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو في المصحف المتداول في أيدينا توقيفياً، لا مرأى في ذلك، قال السيوطى بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة «تدل قراءته صلى الله عليه وسلم لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفياً و ما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر» (١)

ترتيب السور:-

اختلف العلماء في ترتيب السور:

أ- فقيل: إنه توقيفياً، تولاه النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر به جبريل عن أمر ربه، فكان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتب السور، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذي لدينا اليوم، و هو ترتيب مصحف عثمان الذي لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة و الإجماع عليه.

و يؤيد هذا الرأي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بعض السور مرتبة في صلاته، روى ابن أبي شيبة: أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفصل في ركعة» و روى البخارى عن ابن مسعود أنه قال في بنى اسرائيل و الكهف و مريم و طه الأنبياء: إنهن من العتاق الأول، و هن من تلادى» فذكرها نسقا كما استقر ترتيبها.

و روى من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال: «سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة و آل عمران و قد نزل قبلهما بضع و ثمانون سورة مكية،

(١) انظر الإتقان صفحة ٦١ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٢

و إنما أنزلنا بالمدينة؟ فقال: قدمنا و ألف القرآن على علم ممن ألفه به، ثم قال:

فهذا مما ينتهي إليه و لا يسأل عنه» (١) و قال ابن الحصار: «ترتيب السور و وضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، و قد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و مما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف» (٢).

ب- و قيل إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة دليل اختلاف مصاحفهم في الترتيب.

فمصحف «علي» كان مرتبا على النزول، أوله اقرأ، ثم المدثر، ثم ن، و القلم، ثم المزمل و هكذا! إلى آخر المكي المدني.

و كان أول مصحف ابن مسعود، البقرة ثم النساء، ثم آل عمران.

و أول مصحف أبي، الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

و قد روى ابن عباس قال: «قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال و هي من المثاني، و إلى براءة و هي من المثين، فقرنتم بينهما. و لم تكتبوا بينهما سطر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» و وضعتوها في السبع الطوال، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي فيها كذا و كذا، و كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، و كانت براءة من آخر القرآن نزولا، و كانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه و سلم و لم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك

(١) أخرجه ابن أشتة في كتاب «المصاحف» و المراد بالتأليف: الجمع.

(٢) أنظر الإتيان، صفحة ٦٢ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٣

قرنت بينهما، و لم أكتب بينهما سطر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» و وضعتها في السبع الطوال» (١).

ج- و قيل إن بعض السور ترتيبه توقيفي و بعضها باجتهاد الصحابة، حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور في عهد النبوة. فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال و الحواميم و المفصل في حياته عليه الصلاة و السلام.

روى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «اقرأوا الزهراوين: البقرة و آل عمران» (٢).

و روى «أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» و «المعوذتين» (٣) و قال ابن حجر: «ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيا» و استدل على ذلك بحديث حذيفة الثقفي حيث جاء فيه «فقال لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: طرأ على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، و خمس سور، و سبع سور، و تسع سور، و إحدى عشرة، و ثلاث عشرة، و حزب المفصل من «ق» حتى نختم» (٤) قال ابن حجر: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: و يحتمل أن الذي كان مرتبا حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه». و إذا ناقشنا هذه الآراء الثلاثة يتبين لنا:

(١) أخرجه أحمد و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن حبان و الحاكم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أخرجه أحمد و أبو داود. و انظر الإتيان صفحة ٦٣ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٤

أن الرأي الثاني الذي يرى ان ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يعتمد عليه.

فاجتهاد بعض الصحابة في ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً منهم قبل أن يجمع القرآن جمعاً مرتباً، فلما جمع في عهد عثمان بترتيب الآيات و السور على حرف واحد و اجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم، و لو كان الترتيب اجتهادياً لتمسكوا بها.

و حديث سورتى: الأنفال و التوبة الذى روى عن ابن عباس يدور إسناده فى كل رواياته على «يزيد الفارسى» الذى يذكره البخارى فى الضعفاء، و فيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور. كأن عثمان كان يثبتها برأيه و ينفىها برأيه. و لذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد: إنه حديث لا أصل له.

و غاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط «١». مباحث فى علوم القرآن ١٤٤ ترتيب السور: - ص: ١٤١
الرأى الثالث الذى يرى أن بعض السور ترتيبها توقيفى، و بعضها ترتيبه اجتهادى. فإن أدلته تركز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفى. أما القسم الاجتهادى فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادى. إذ أن ثبوت التوقيفى بأدلته لا يعنى أن ما سواه اجتهادى. مع أنه قليل جداً.

و بهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات، قال أبو بكر بن الأنبارى: «أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرقه فى بضع و عشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، و الآية جواباً لمستخبر، و يوقف جبريل النبى صلى الله عليه و سلم على موضع الآية و السورة، فاتساق السور كاتساق الآيات و الحروف كله عن النبى صلى الله عليه و سلم. فمن قدم سورة أو أخرها فقد

(١) و حكى أن البسملة ثابتة لبراءة فى مصحف ابن مسعود، و فى المستدرک للحاكم أن على بن أبى طالب سئل: «لم لم تكتب فى براءة «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ قال: لأنها أمان، و براءة نزلت بالسيف».

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٤٥

أفسد نظم القرآن» و قال الكرمانى فى «البرهان» ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، و عليه كان صلى الله عليه و سلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه. و عرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين. و كان آخر الآيات نزولاً (وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ -٢٨١- البقرة) فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا و الدين «١» و مال السيوطى إلى ما ذهب إليه البيهقى قال «كان القرآن على عهد النبى صلى الله عليه و سلم مرتباً سورة و آياته على هذا الترتيب إلا- الأنفال و براءة لحدیث عثمان».

سور القرآن و آياته

سور القرآن أقسام أربعة: -١- الطوال -٢- و المئين -٣- و المثنى -٤- و المفصل. نوجز أرجح الآراء فيها.

١- فالطوال: سبع: البقرة، و آل عمران، و النساء، و المائدة، و الأنعام، و الأعراف، و السابعة، قيل: هى الأنفال و براءة مع لعدم الفصل بينهما بالبسملة. و قيل! هى يونس.

٢- و المئون: التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

٣- و المثنى: هى التى تليها فى عدد الآيات، سميت بذلك لأنها تشنى فى القراءة و تكرر أكثر من الطوال و المئين.

٤- و المفصل: قيل: من أول سورة «ق» و قيل: من أول «الحجرات» و قيل: غير ذلك- و أقسامه ثلاثة- طواله، و أوسطه، و قصاره.

فطواله: من «ق» أو «الحجرات» إلى «عم» أو «البروج» و أوسطه: من

(١) انظر الإتقان صفحة ٦٢ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٦

«عم» أو «البروج» إلى «الضحى» أو إلى «لم يكن» وقصاره: من «الضحى» أو «لم يكن» إلى آخر القرآن. على خلاف في ذلك. و تسميته بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

و تعداد السور؛ مائة و أربع عشرة سورة، و قيل: و ثلاث عشرة بجعل الأنفال و براءة سورة واحدة.

أما تعداد الآيات فسته آلاف و مائتا آية، و اختلفوا فيما زاد عن ذلك.

و أطول الآيات آية الدين، و أطول السور سورة البقرة.

و هذه التجزئة تيسر على الناس الحفظ، و تحملهم على الدراسة، و تشعر القارئ لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطا وافيا و طائفة مستقلة من أصول دينه و أحكام شريعته.

الرسم العثماني

سبق الحديث عن جمع القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه. و قد اتبع زيد بن ثابت و الثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة في الكتابة ارتضاها لهم عثمان، و يسمى العلماء هذه الطريقة «بالرسم العثماني للمصحف» نسبة إليه، و اختلف العلماء في حكمه.

١- فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثماني للقرآن توقيفي يجب الأخذ به في كتابة القرآن، و بالغوا في تقديسه، و نسبوا التوقيف فيه إلى النبي صلى الله عليه و سلم، فذكروا أنه قال لمعاوية: أحد كتبه الوحي: «ألق الدواء، و حرف القلم، و انصب اليا، و فرق السين، و لا- تعور الميم، و حسن الله، و مد الرحمن، و جود الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى، فإنه أذكر لك» و نقل ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال له: ما للصحابة و لا لغيرهم في

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٧

رسم القرآن و لا شعرة واحدة، و إنما هو توقيف من النبي و هو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف و نقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول، و هو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية. و كما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز.

و التمسوا لذلك الرسم أسرار تجعل للرسم العثماني دلالة على معان خفية دقيقة، كزيادة «الياء» في كتابة كلمة «أيد» من قوله تعالى (وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ - ٤٧- الذاريات) إذ كتبت هكذا «بأييد» و ذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء. و أنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة، و هي:

زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. «١»

و هذا رأى لم يرد فيه شيء عن رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى يكون الرسم توقيفيا، و إنما اصطلاح الكتبة على هذا الرسم في زمن عثمان برضا منه، و جعل لهم ضابطا لذلك بقوله للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم» و حين اختلفوا في كتابة «التابوت» فقال زيد: «التابوة» و قال نفر القرشيون «التابوت» و ترفعوا إلى عثمان قال: «اكتبوا «التابوت» فإنما أنزل القرآن على لسان قريش».

٢- و ذهب كثير من العلماء إلى أن الرسم العثماني ليس توقيفيا عن النبي صلى الله عليه و سلم، و لكنه اصطلاح ارتضاه عثمان، و تلقته الأمة بالقبول، فيجب التزامه و الأخذ به، و لا تجوز مخالفته. قال أشهب: «سئل مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا- على الكتبة الأولى» رواه أبو عمرو الداني في «المقنع» ثم قال: «و لا مخالف له من علماء الأمة» و قال في موضع آخر: سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو و الألف، أ ترى أن تغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال: لا، قال

أبو عمرو:

(١) انظر مناهل العرفان للزرقاني صفحة ٣٧٠ و ما بعدها ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٨

يعنى الواو و الألف المزيديتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ نحو «أولوا» و قال الإمام أحمد: «تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك» (١).

٣- و ذهب جماعة إلى أن الرسم العثماني اصطلاحى، و لا مانع من مخالفته! إذا اصطاح الناس على رسم خاص للإملاء و أصبح شائعا بينهم. قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه «الانتصار» و أما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا. إن لم يأخذ على كتاب القرآن و خطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجه عليهم و ترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع و التوقيف، و ليس فى نصوص الكتاب و لا مفهومه أن رسم القرآن و ضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص و حد محدود لا يجوز تجاوزه، و لا فى نص السنة ما يوجب ذلك و يدل عليه، و لا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك، و لا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل، لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يأمر برسمه و لم يبين لهم وجهها معينا و لا نهى أحدا عن كتابته. و لذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، و منهم من كان يزيد و ينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح، و أن الناس لا يخفى عليهم الحال، و لأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية و الخط الأول، و أن يجعل الكلام على صورة الكاف، و أن تعوج الألفات، و أن يكتب على غير هذه الوجوه، و جاز أن يكتب المصحف بالخط و الهجاء القديمين، و جاز أن يكتب بالخطوط و الهجاء المحدثه، و جاز أن يكتب بين ذلك، و إذا كانت خطوط المصحف و كثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، و كان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، و ما هو أسهل و أشهر و أولى. من غير تأثيم و لا تناكر، علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص، كما أخذ عليهم فى القراءة، و السبب فى ذلك أن الخطوط إنما

(١) انظر الإتقان، صفحة ١٦٧ ج ٢ و البرهان للزركشى صفحة ٣٧٩ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٤٩

هى علامات و رسوم تجرى مجرى الإشارات و العقود و الرموز. فكل رسم دال على الكلمة مقيد لوجه قراءتها تجب صحته و تصويب الكاتب به على أية صورة كانت ..

و بالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص و جب عليه أن يقيم الحجج على دعواه، و أتى له ذلك». و انطلاقا من هذا رأى يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن الكريم وفق القواعد الإملائية الشائعة المصطلح عليها، حتى تسهل قراءته على القارئ من الطلاب و الدارسين، و لا يشعر الطالب أثناء قراءته للقرآن باختلاف رسمه عن الرسم الإملائي الاصطلاحى الذى يدرسه.

و الذى أراه أن رأى الثانى هو رأى الراجح، و أنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثماني المعهود فى المصحف. فهو الرسم الاصطلاحى الذى توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضى الله عنه، و الحفاظ عليه ضمان قوى لصيانة القرآن من التغيير و التبديل فى حروفه، و لو أبيحت كتابته بالاصطلاح الإملائي لكل عصر لآدى هذا إلى تغيير خط المصحف من عصر لآخر، بل إن قواعد الإملاء نفسها تختلف فيها و جهات النظر فى العصر الواحد، و تتفاوت فى بعض الكلمات من بلد لآخر.

و اختلاف الخطوط الذى يذكره القاضى أبو بكر الباقلانى شىء و الرسم الإملائي شىء آخر، فاختلاف الخط تغير فى صورة الحرف لا فى رسم الكلمة.

و حجة تيسير القراءة على الطلاب و الدارسين بانتفاء التعارض بين رسم القرآن و الرسم الإملائي الاصطلاحي لا تكون مبررا للتغيير الذى يؤدي إلى التهاون فى تحرى الدقة بكتابة القرآن.

و الذى يعتاد القراءة فى المصحف يألف ذلك و يفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعية على الكلمات، و الذين يمارسون هذا فى الحياة التعليمية أو مع أبنائهم
مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٥٠

يدركون أن الصعوبة التى توجد فى القراءة بالمصحف أول الأمر تتحول بالمران بعد فترة قصيرة إلى سهولة تامة.
قال البيهقى فى شعب الإيمان: «من يكتب مصحفا فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف، و لا يخالفهم فيه، و لا يغير مما كتبه شيئا، فإنهم كانوا أكثر علما و أصدق قلبا و لسانا، و أعظم أمانة منا، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم» (١)

تحسين الرسم العثماني

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط و الشكل، اعتمادا على السليقة العربية السليمة التى لا تحتاج إلى الشكل بالحركات و لا إلى الإعجام بالنقط، فلما تطرق إلى اللسان العربى الفساد بكثرة الاختلاط أحس أولوا الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل و النقط و غيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة.
و اختلف العلماء فى أول جهد بذل فى ذلك السبيل.

فيرى كثير منهم أن أول من فعل ذلك أبو الأسود الدؤلى الذى ينسب إليه وضع ضوابط للعربية بأمر على بن أبى طالب، و يروى فى ذلك أنه سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۝٣- التوبة) فقرأها بجر اللام من كلمة «رسوله» فأفزع هذا اللحن أبا الأسود و قال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم ذهب إلى زياد و الى البصرة و قال له: قد أجبتك إلى ما سألت، و كان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله، فتباطأ فى الجواب حتى راعه هذا الحادث، و هنا جد جده، و انتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، و جعل علامة الكسرة نقطة أسفله، و جعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، و جعل علامة السكون نقطتين.

(١) انظر الإتيقان صفحة ١٦٧ ج ٢.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٥١

و يذكر السيوطى فى الإتيقان أن أبا الأسود الدؤلى أول من فعل ذلك بأمر عبد الملك بن مروان لا بأمر زياد، حيث ظل الناس يقرءون فى مصحف عثمان بضعا و أربعين سنة. حتى خلافة عبد الملك حين كثرت التصحيفات و انتشرت فى العراق ففكر الولاة فى النقط و التشكيل.

و هناك روايات أخرى تنسب هذا الفعل إلى آخرين: منهم: الحسن البصرى، و يحيى بن يعمر، و نصر بن عاصم الليثى، و أبو الأسود الدؤلى هو الذى اشتهر عنه ذلك، و ربما كان للآخرين المذكورين جهود أخرى بذلت فى تحسين الرسم و تيسيره.
و قد تدرج تحسين رسم المصحف، فكان الشكل فى الصدر الأول نقطا، فالفتحة نقطة على أول الحرف، و الضمة على آخره، و الكسرة تحت أوله.

ثم كان الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، و هو الذى أخرجه الخليل، فالفتح شكله مستطيلة فوق الحرف، و الكسر كذلك تحته، و الضم و او صغرى فوقه، و التنوين زيادة مثلها، و تكتب الألف المحذوفة و المبدل منها فى محلها حمراء، و الهمزة المحذوفة تكتب همزة بلا حرف حمراء أيضا، و على النون و التنوين قبل الباء علامة الإقلاب حمراء، و قبل الحلق سكون، و تعرى عند الإدغام و

الإخفاء، و يسكن كل مسكن، و يعرى المدغم و يشدد ما بعده إلا الطاء قبل التاء فيكتب عليها السكون نحو «فرطت» (١).
ثم كان القرن الثالث الهجري فجاد رسم المصحف و تحسن، و تنافس الناس في اختيار الخطوط الجميلة و ابتكار العلامات المميزة، فجعوا للحرف المشدد علامة كالقوس، و لألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها. على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة.

ثم تدرج الناس بعد ذلك في وضع أسماء السور و عدد الآيات، و الرموز

(١) انظر الإتقان صفحة ١٧١ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٢

التي تشير إلى رءوس الآي، و علامات الوقف اللازم (م) و الممنوع (لا) و الجائز جوازا مستوى الطرفين (ج) و الجائز مع كون الوصل أولى (صلى) و الجائز مع كون الوقف أولى (قلى) و تعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر (....) و التجزئة، و التحزيب، إلى غير ذلك من وجوه التحسين.

و كان العلماء في بداية الأمر يكرهون ذلك خوفا من وقوع زيادة في القرآن مستندين إلى قول ابن مسعود: «جردوا القرآن و لا تخلطوه بشيء» و يفرق بعضهم بين النقط الجائز. و الأعشار و الفواتح التي لا تجوز. قال الحلیمی: «تكره كتابة الأعشار و الأخماس، و أسماء السور و عدد الآيات فيه لقول ابن مسعود:

«جردوا القرآن» و أما النقط فيجوز، لأنه ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآنا. و إنما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها».

ثم انتهى الأمر في ذلك إلى الإباحة و الاستحباب، اخرج ابن أبي داود عن الحسن و ابن سيرين أنهما قالوا: «لا بأس بنقط المصاحف» و أخرج عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: أنه قال: «لا بأس بشكله» و قال النووي: «نقط المصحف و شكله مستحب لأنه صيانة له من اللحن و التحريف» (١) و قد وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها في الخط العربي.

(١) انظر الإتقان، صفحة ١٧١ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٣

الفواصل و رءوس الآي

تميز القرآن الكريم بمنهج فريد في فواصله و رءوس آياته، و نعى بالفاصلة:

الكلام المنفصل مما بعده، و قد يكون رأس آية و قد لا يكون، و تقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابي، سميت بذلك لأن الكلام ينفصل عندها.

و نعى برأس الآية نهايتها التي توضع بعدها علامة الفصل بين آية و آية، و لهذا قالوا (١): «كل رأس آية فاصلة، و ليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة نعم النوعين، و تجمع الضربين»، لأن رأس كل آية يفصل بينها و بين ما بعدها.

و مثل هذا قد يسمى في كلام الناس سجعا على النحو المعروف في علم البديع، و لكن كثيرا من العلماء (٢) لا يطلق هذا الوصف على القرآن الكريم سموًا به عن كلام الأدباء، و عبارات الأنبياء، و أسلوب البلغاء، و فرقوا بين الفواصل و السجع، بأن الفواصل في القرآن: هي التي تتبع المعاني و لا تكون مقصودة لذاتها.

أما السجع: فهو الذي يقصد في نفسه ثم يحيل المعنى عليه، لأنه: موالاة الكلام على وزن واحد. ورد القاضي أبو بكر الباقلاني على

من أثبت السجع في القرآن فقال: «و هذا الذي يزعمونه غير صحيح، و لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، و لو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز، و لو جاز أن يقال: هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز، و كيف؟ و السجع مما كانت كهان العرب تألفه، و نفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تخالف النبوات

(١) انظر «البرهان» للزرکشی صفحة ٥٣ ج ١.

(٢) على رأس هؤلاء «الرماني» في كتاب «إعجاز القرآن» و القاضي أبو بكر الباقلائي في كتاب «إعجاز القرآن» كذلك.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٤

بخلاف الشعر. و ما توهموا أنه سجع باطل «١». لأن مجيئه على صورته لا- يقتضى كونه هو، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي بالسجع، و ليس كذلك ما اتفق مما هو في معنى السجع من القرآن، لأن اللفظ وقع فيه تابعا للمعنى، و فرق بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، و بين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ» «٢».

و الذي أراه أنه إذا كان المراد بالسجع مراعاة موالاة الكلام على وزن واحد دون مراعاة المعنى فإن هذا تكلف ممقوت في كلام الناس فضلا عن كلام الله. أما إذا روعيت المعاني و جاء الاتفاق في الوزن تابعا لها دون تكلف فهذا ضرب من ضروب البلاغة، قد يأتي في القرآن كما يأتي في غيره. و إذا سمينا هذا في القرآن بالفواصل دون السجع فذلك لتلافي إطلاق السجع على القرآن بالمعنى الأول.

و الفواصل في القرآن الكريم أنواع:

١- فمنها الفواصل المتماثلة كقوله تعالى: (وَ الطُّورِ، وَ كِتَابِ مَسِيَّطُورٍ، فِي رَقِّ مَشْشُورٍ، وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ١- ٤- الطور) و قوله تعالى (وَ الْفَجْرِ، وَ لِيَالِ عَشْرِ، وَ الشَّفْعِ وَ الْوَثْرِ، وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِيرُ ١- ٤- الفجر) و قوله تعالى (فَلَا- أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ، الْجَوَارِ الْكُنُوسِ، وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ، وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٥- ١٨- التكوير) ب- و منها الفواصل المتقاربة في الحروف، كقوله تعالى (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٣، ٤- الفاتحة) للتقارب بين الميم و النون في المقطع، و قوله (ق، وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، يَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ١- ٣- ق)

(١) أقوى ما استدلل به الذين يثبتون السجع في القرآن أن موسى أفضل من هارون، و لما كان السجع بالألف اللينة. قيل في موضع (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى ٧٠- طه) و لما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو و النون قيل (رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ ٤٨- الشعراء) و أوجب بأن التقديم و التأخير لإعادة القصه الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا، و ليس للسجع.

(٢) «البرهان» للزرکشی صفحة ٥٨ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٥

بتقارب مقطعي الدال و الباء «١».

ج- و منها المتوازي: و هو أن تتفق الكلمتان في الوزن و حروف السجع، كقوله تعالى: (فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ، وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ١٣، ١٤- الغاشية).

د- و منها المتوازن، و هو أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط، كقوله تعالى (وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَ زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٥، ١٦- الغاشية). و قد يراعى في الفواصل زيادة حرف كقوله تعالى (وَ تَنْظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ١٠- الأحزاب) بإلحاق ألف، لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات متقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع.

و تناسب نهايات الفواصل؛ أو حذف حرف، كقوله تعالى (وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِيرُ ٤- الفجر) بحذف الياء، لأن مقاطع الفواصل السابقة و

اللاحقة بالراء، أو تأخير ما حقه التقديم لنكتة بلاغية أخرى كتشويق النفس إلى الفاعل في قوله تعالى (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٦٧- طه) لأن الأصل في الكلام أن يتصل الفعل بفاعله و يؤخر المفعول، لكن آخر الفاعل هنا و هو «موسى» للنكتة البلاغية السابقة على رعاية الفاصلة

(١) هذا لا يسمى سجعا عند القائلين بإطلاق السجع في القرآن، لأن السجع ما تماثلت حروفه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٦

٩- نزول القرآن على سبعة أحرف

إشارة

لقد كان للعرب لهجات شتى تنبع من طبيعة فطرتهم في جرسها و أصواتها و حروفها تعرضت لها كتب الأدب بالبيان و المقارنة، فكل قبيلة لها من اللحن في كثير من الكلمات ما ليس للآخرين، إلا أن قريشا من بين العرب قد تهيات لها عوامل جعلت للغتها الصدارة بين فروع العربية الأخرى من جوار البيت و سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام و الإشراف على التجارة، فأنزلها العرب جميعا لهذه الخصائص و غيرها منزلة الأب للغاتهم، فكان طبيعيا أن ينتزل القرآن بلغه قريش على الرسول القرشي تأليفا للعرب و تحقيقا لإعجاز القرآن حين يسقط في أيديهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه.

و إذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم في المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت فالقرآن الذي أوحى الله به لرسوله محمد صلى الله عليه و سلم يكمل له معنى الإعجاز إذا كان مستجمعا لحروفه و أوجه قراءته للخالص منها، و ذلك مما ييسر عليهم القراءة و الحفظ و الفهم، و نصوص السنة قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف. و من ذلك:- عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٧

و سلم: أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده و يزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف». (١)

و عن أبي بن كعب: «أن النبي صلى الله عليه و سلم كان عند أضواء (٢) بنى غفار، قال: فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف. فقال: أسأل الله معافاته و مغفرته، و أن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين - فقال:

أسأل الله معافاته و مغفرته، و أن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاء الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته و مغفرته، و أن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاء الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فإنما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا» (٣) و عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله صلى الله عليه و سلم، فكذبت أساوره في الصلاة، فانتظرت حتى سلم، ثم لبثت بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه و سلم. قلت له: كذبت، فو الله إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها، فانطلقت أفوده إلى رسول الله، فقلت: يا رسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها، و أنت أقرأني سورة الفرقان، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعتة يقرأها، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: هكذا أنزلت، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله

(١) أخرجه البخارى و مسلم و غيرهما.

(٢) الأضواء: الغدير.

(٣) رواه مسلم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٨

صلى الله عليه و سلم، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: هكذا أنزلت، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فافرقوا ما تيسر منها» (١).

و الأحاديث في ذلك مستفيضة استقرأ معظمها ابن جرير في مقدمة تفسيره، و ذكر السيوطى أنها رويت عن واحد و عشرين صحابيا، و قد نص أبو عبيد القاسم بن سلام على تواتر حديث نزول القرآن على سبعة أحرف «٢».

[اختلاف العلماء في المراد بها و الترجيح بينها]

و اختلف العلماء في تفسير هذه الأحرف اختلافا كثيرا. حتى قال ابن حيان: «اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة و ثلاثين قولاً» (٣) و أكثر هذه الآراء متداخل، و نحن نورد هنا ما هو ذو بال منها: -أ- ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتى القرآن منزلاً بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، و حيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتى بلفظ واحد أو أكثر. و اختلفوا في تحديد اللغات السبع.

ف قيل: هي لغات: قريش، و هذيل، و ثقيف، و هوازن، و كنانة، و تميم، و اليمن.

و قال أبو حاتم السجستاني: نزل بلغه قريش، و هذيل، و تميم، و الأزدي، و ربيعة، و هوازن، و سعد بن بكر.

و روى غير ذلك «٤»

(١) رواه البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و الترمذى و أحمد و ابن جرير.

(٢) انظر الإتقان، صفحة ٤١ ج ١.

(٣) و قال السيوطى: اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً، صفحة ٤٥ ج ١.

(٤) انظر الإتقان، صفحة ٤٧ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٥٩

ب- و قال قوم: إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم، فأكثره بلغه قريش. و منه ما هو بلغه هذيل، أو ثقيف، أو هوازن، أو كنانة، أو تميم، أو اليمن. فهو يشتمل في مجموعه على اللغات السبع.

و هذا رأى يختلف عن سابقه. لأنه يعنى أن الأحرف السبعة إنما هي أحرف سبعة متفرقة في سور القرآن، لا أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة باتفاق المعانى.

قال أبو عبيد: «ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرقة فيه، فبعضه بلغه قريش، و بعضه بلغه هذيل، و بعضه بلغه هوازن، و بعضه بلغه اليمن. و غيرهم، قال: و بعض اللغات أسعد به من بعض و أكثر نصيباً» (١) ج- و ذكر بعضهم أن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة: من الأمر، و النهى، و الوعد، و الوعيد، و الجدل، و القصص، و المثل. أو من: الأمر، و النهى، و الحلال، و

الحرام. و المحكم، و المتشابه، و الأمثال:

عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد، و على حرف واحد، و نزل القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف: زجر، و أمر، و حلال، و حرام، و محكم، و متشابه، و أمثال» (٢).

د- و ذهب جماعة إلى أن المراد بالأحرف السبعة، و جوه التغيرات السبعة التي يقع فيها الاختلاف: و هي: ١- اختلاف الأسماء بالإفراد و التذكير و فروعها «التثنية، و الجمع، و التأنيث» كقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨- المؤمنون) قرئ «لأماناتهم» بالجمع، و قرئ «لأمانتهم» بالأفراد. و رسمها في المصحف «لأمنتهم» يحتمل القراءتين، لخلوها من الألف الساكنة، و مآل الوجهين في

(١) الإتيان، صفحة ٤٧ ج ١.

(٢) أخرجه الحاكم و البيهقي.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٠

المعنى واحد، فيراد بالجمع الاستغراق الدال على الجسسية، و يراد بالإفراد الجنس الدال على معنى الكثرة، أى جنس الأمانة، و تحت هذا جزئيات كثيرة.

٢- الاختلاف في وجوه الإعراب، كقوله تعالى: (ما هذا بشراً، ٣١- يوسف) قرأ الجمهور بالنصب، على أن «ما» عاملة عمل «ليس» و هي لغة أهل الحجاز و بها نزل القرآن، و قرأ ابن مسعود (ما هذا بشر) بالرفع، على لغة بني تميم، فإنهم لا يعملون «ما» عمل «ليس» و كقوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ٣٧- البقرة) و قرئ بنصب «آدم» و رفع «كلمات» (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ).

٣- الاختلاف في التصريف: كقوله تعالى: (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ١٩- سبأ) قرئ بنصب «ربنا» على أنه منادى مضاف، و «باعد» بصيغة الأمر، و قرئ «ربنا» بالرفع، و «باعد» بفتح العين، على أنه فعل ماض، و قرئ «بعُد» بفتح العين مشددة مع رفع «ربنا» أيضاً. و من ذلك ما يكون بتغيير حرف، مثل «يعلمون، و تعلمون» بالياء و التاء، و «الصراط» و «السرائط» في قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦- الفاتحة).

٤- الاختلاف بالتقديم و التأخير، إما في الحرف، كقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنبَأِ ٣١- الرعد) و قرئ (أفلم ينبأ) و إما في الكلمة كقوله تعالى: (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ١١١- التوبة) بالبناء للفاعل في الأول، و للمفعول في الثاني، و قرئ بالعكس، أى بالبناء للمفعول في الأول، و للفاعل في الثاني.

أما قراءة (و جاءت سكرة الحق بالموت ١٩- ق) بدلا من قوله تعالى: (و جاءت سكرة الموت بالحق) فقراءة أحادية أو شاذة، لم تبلغ درجة التواتر.

٥- الاختلاف بالإبدال، سواء كان إبدال حرف بحرف، كقوله تعالى: (وَ انظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ٢٥٩- البقرة) قرئ بالزاي المعجمة مع ضم النون، و قرئ بالراء المهملة مع فتح النون، أو إبدال لفظ

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦١

بلفظ، كقوله تعالى: (كَالْعِهْنِ الْمُنفُوشِ ٥- القارعة) قرأ ابن مسعود و غيره (كالصوف المنفوش) و قد يكون هذا الإبدال مع التفاوت في المخارج كقوله تعالى (طَلَحَ مَنْضُودٍ ٢٩- الواقعة) قرئ «طلع» و مخرج الحاء و العين واحد، فهما من حروف الحلق.

٦- الاختلاف بالزيادة و النقص، فالزيادة كقوله تعالى: (وَ أَعِدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ١٠٠- التوبة) قرئ (من تحتها الأنهار) بزيادة «من» و هما قراءتان متواترتان، و النقصان كقوله تعالى: (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ١١٦- البقرة) بدون واو، و قراءة الجمهور، (وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) بالواو، و قد يمثل للزيادة في قراءة الأحاد، بقراءة ابن عباس (و كان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ٧٩- الكهف) بزيادة «صالحة» و إبدال كلمة «أمام» بكلمة «وراء» و قراءة الجمهور (وَ كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصِبًا) كما يمثل

للقصان بقراءة (و الذکر و الأثنى) بدلا من قوله تعالى: (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣- الليل).

٧- اختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيق، و الفتح و الإمالة. و الإظهار و الإدغام، و الهمز و التسهيل. و الإشمام و نحو ذلك، كالإمالة و عدمها في مثل قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ - ٩- طه) قرئ بإمالة «أنى» و «موسى» و ترقيق الراء في قوله: (خَبِيرًا بَصِيرًا) و تفخيم اللام في (الطَّلَاق) و تسهيل الهمزة في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ - ١- المؤمنون) و إشمام الغين ضمه مع الكسر في قوله تعالى: (وَ غِيضَ الْمَاءِ - ٤٤- هود) و هكذا.

ه- و ذهب بعضهم إلى أن العدد سبعة لا مفهوم له. و إنما هو رمز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد، فهو إشارة إلى أن القرآن في لغته و تركيبه كأنه حدود و أبواب لكلام العرب كله مع بلوغه الذروة في الكمال، فلفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة و الكمال في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات، و السبعمائة في المئين، و لا يراد العدد المعين «١».

(١) انظر الإتقان، صفحة ٤٥ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٢

و- و قال جماعة: إن المراد بالأحرف السبعة، القراءات السبع.

و الراجح من هذه الآراء جميعا هو الرأي الأول. و أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد. نحو أقبل، و تعال، و هلم، و عجل و أسرع، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد، و إليه ذهب سفيان بن عيينة، و ابن جرير، و ابن وهب، و خلائق، و نسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء و يدل له ما جاء في حديث أبي بكر: «أن جبريل قال: يا محمد، اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استرده، فقال! على حرفين، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شاف كاف، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة، أو آية رحمة بآية عذاب، كقولك: هلم و تعال و أقبل و اذهب و أسرع و عجل» «١» قال ابن عبد البر: «إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها، و أنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى و ضده، و لا وجه يخالف معنى وجه خلافا ينفيه و يضاده، كالرحمة التي هي خلاف العذاب» «٢» و يؤيده أحاديث كثيرة:

«قرأ رجل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فغير عليه، فقال: لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه و سلم فلم يغير على، قال: فاختصما عند النبي صلى الله عليه و سلم، فقال: يا رسول الله! ألم تقرننى أية كذا و كذا؟ قال: بلى! قال: فوقع في صدر عمر شيء، فعرف النبي صلى الله عليه و سلم ذلك في وجهه، قال: فضرب صدره و قال: ابعد شيطانا- قالها ثلاثا- ثم قال: يا عمر، إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذابا أو عذابا رحمة» «٣».

و عن بسر بن سعيد: «أن أبا جهيم الأنصارى أخبره: أن رجلين اختلفا

(١) أخرجه أحمد و الطبراني، بإسناد جيد، و هذا اللفظ لأحمد.

(٢) انظر الإتقان صفحة ٤٧- ج ١.

(٣) أخرجه أحمد بإسناد رجاله ثقات، و أخرجه الطبرى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٣

في آية من القرآن، فقال هذا: تلقيتها من رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال الآخر: تلقيتها من رسول الله صلى الله عليه و سلم، فسألا رسول الله صلى الله عليه و سلم عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فلا تماروا في القرآن، فإن المرء فيه كفر» «١» و عن الأعمش قال: «قرأ أنس هذه الآية: (إن ناشئة الليل هي أشد وطأ و أصوب قيلا ٦- المزمل) فقال له بعض القوم: يا أبا حمزة، إنما هي «و أقوم» فقال: أقوم و أصوب و أهيا و احد» «٢» و عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن جبرائيل و

ميكائيل أتيا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له جيرائيل: اقرأ القرآن على حرفين، فقال له ميكائيل: استزده، قال: حتى بلغ سبعة أحرف، قال محمد: لا تختلف في حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهى، هو كقولك: تعال، وهلم وأقبل، قال: وفي قراءة (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً ٢٩، ٥٣- يونس) في قراءة ابن مسعود (إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقِيَةً وَاحِدَةً) «٣» ويجاب عن الرأي الثاني (ب) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماتها عنها فهو يشتمل في مجموعه عليها- بأن لغات العرب أكثر من سبع، وبأن عمر بن الخطاب و هشام بن حكيم كلاهما قرشي من لغة واحدة، وقبيلة واحدة، وقد اختلفت قراءتهما. ومحال أن ينكر عليه عمر لغته، فدل ذلك على أن المراد بالأحرف السبعة غير ما يقصدونه، ولا يكون هذا إلا باختلاف الألفاظ في معنى واحد، وهو ما نرجحه.

(١) رواه أحمد في المسند، ورواه الطبري، ونقله ابن كثير في الفضائل، والهيثمي في مجمع الزوائد. وقال رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الطبري، وأبو يعلى، والبزار، ورجالهم رجال الصحيح.

(٣) رواه الطبري، ومحمد- هو ابن سيرين التابعي- فالحديث مرسل.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٤

قال ابن جرير الطبري بعد أن ساق الأدلة، مبطلا هذا الرأي: «بل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، هن لغات سبع في حرف واحد، وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ و اتفاق المعاني، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإلى، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك، مما تختلف فيه الألفاظ بضرور من المنطق و تتفق فيه المعاني، وإن اختلفت بالبيان به الألسن، كالذي روينا آنفا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن روينا ذلك عنه من الصحابة، أن ذلك بمنزلة قولك: «هلم وتعال وأقبل» وقوله: «ما ينظرون إلا زقية» و «إلا صيحة».

و أجاب الطبري عن تساؤل مفترض: ففي أي كتاب الله نجد حرفا واحدا مقروءا بلغات سبع مختلفات الألفاظ متفقات المعنى؟- أجاب: بأننا لم نَدع أن ذلك موجود اليوم- وعن تساؤل مفترض آخر: فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة؟- بأن الأمة أمرت بحفظ القرآن، وخيرت في قراءته وحفظه بأى تلك الأحرف السبعة شاءت كما أمرت، ثم دعت الحاجة إلى التزام القراءة بحرف واحد مخافة الفتنة في زمن عثمان، ثم اجتمع أمر الأمة على ذلك، وهي معصومة من الضلالة «١».

ويجاب عن الرأي الثالث (ج) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه: من الأمر، والنهي. والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال- بأن ظاهر الأحاديث يدل على أن المراد بالأحرف السبعة أن الكلمة تقرأ على وجهين أو ثلاثة إلى سبعة توسعة للأمة، والشئ الواحد لا يكون حلالا وحراما في آية واحدة، والتوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شئ من المعاني المذكورة.

والذي ثبت في الأحاديث السابقة أن الصحابة الذين اختلفوا في القراءة احتكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فاستقرأ كل رجل منهم، ثم صوب

(١) انظر تفسير الطبري صفحة ٥٧، وما بعدها، ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٥

جميعهم في قراءتهم على اختلافها، حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم، فقال صلى الله عليه وسلم للذي ارتاب منهم عند تصويبه جميعهم «إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف».

«و معلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك، لو كان تماريا و اختلافا فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل و التحريم و الوعد و الوعيد و ما أشبه ذلك، لكان مستحيلا أن يصوب جميعهم، و يأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته في ذلك على النحو الذي هو عليه، لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحا و جب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه و فرضه،- في تلاوة من دلت تلاوته على فرضه- و نهى عن فعل ذلك الشيء بعينه و زجر عنه- في تلاوة الذي دلت تلاوته على النهي و الزجر عنه- و أباح و أطلق فعل ذلك الشيء بعينه، و جعل لمن شاء من عباده أن يفعله يفعل. و لمن شاء منهم أن يتركه تركه، في تلاوة من دلت تلاوته على التخيير. و ذلك من قائله إن قاله إثبات ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله و حكم كتابه فقال: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا- ٨٢- النساء).

و في نفى الله جل ثناؤه ذلك عن محكم كتابه أوضح الدليل على أنه لم ينزل كتابه على لسان محمد صلى الله عليه و سلم إلا بحكم واحد متفق في جميع خلقه لا بأحكام فيهم مختلفة» (١).

و يجاب عن الرأي الرابع (د) الذي يرى أن المراد بالأحرف السبعة وجوه التغير التي يقع فيها الاختلاف «٢»- بأن هذا و إن كان شائعا مقبولا- لكنه لا- ينهض أمام أدلة الرأي الأول التي جاء التصريح فيها باختلاف الألفاظ مع اتفاق المعنى، و بعض وجوه التغير و الاختلاف التي يذكرونها ورد بقراءات

(١) تفسير الطبري، صفحة ٤٨، ٤٩ ج ١.

(٢) هذا الرأي هو أقوى الآراء بعد الرأي الذي اخترناه، و إليه ذهب «الرازي» و انتصر له من المتأخرين الشيخ محمد بخيت المطيعي، و الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٦

الآحاد، و لا- خلاف في أن كل ما هو قرآن يجب أن يكون متواترا، و أكثرها يرجع إلى شكل الكلمة أو كيفية الأداء مما لا يقع به التغير في اللفظ، كالاختلاف في الإعراب، أو التصريف، أو التفخيم و الترقيق و الفتح و الإمالة و الإظهار و الإدغام و الإشمام فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ و المعنى، لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحدا.

و أصحاب هذا الرأي يرون أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها، بمعنى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من هذه الأحرف، فأية (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨- المؤمنون) التي تقرأ بصيغة الجمع و تقرأ بصيغة الأفراد جاءت في الرسم العثماني (لأمتهم) موصولة و عليها ألف صغيرة، و آية (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ١٩- سبأ) جاءت في الرسم العثماني (بعد) موصولة كذلك و عليها ألف صغيرة، و هكذا ...

و هذا لا يسلم لهم في كل وجه من وجوه الاختلاف التي يذكرونها.

كالاختلاف بالزيادة و النقص، في مثل قوله تعالى (وَأَعِدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ١٠٠- التوبة) و قرئ (من تحتها الأنهار) بزيادة «من» و قوله (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٣- الليل) و قرئ (و الذكر و الأنثى) بنقص «ما خلق».

و الاختلاف بالتقديم و التأخير في مثل قوله تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ١٩- ق) و قرئ (و جاءت سكرة الحق بالموت). و

الاختلاف بالإبدال في مثل قوله تعالى: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥- القارعة) و قرئ (و تكون الجبال كالصوف المنفوش) و

لو كانت هذه الأحرف تشتمل عليها المصاحف العثمانية لما كان مصحف عثمان حاسما للنزاع في اختلاف القراءات، إنما كان حسم

هذا النزاع بجمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، و لو لا هذا لظل الاختلاف في القراءة قائما، و لما

كان هناك فرق بين جمع عثمان و جمع

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٧

أبي بكر. و الذي دلت عليه الآثار أن جمع عثمان رضى الله عنه للقرآن كان نسخا له على حرف واحد من الحروف السبعة حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد، حيث رأى أن القراءة بالأحرف السبعة كانت لرفع الحرج و المشقة في بداية الأمر. و قد انتهت الحاجة إلى ذلك، و ترجح عليها حسم مادة الاختلاف في القراءة، بجمع الناس على حرف واحد، و وافقه الصحابة على ذلك. فكان إجماعا. و لم يحتج الصحابة في أيام أبي بكر و عمر إلى جمع القرآن على وجه ما جمعه عثمان، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان، و بهذا يكون عثمان قد وفق لأمر عظيم. رفع الاختلاف، و جمع الكلمة، و أراح الأمة.

و يجاب عن الرأى الخامس (هـ) الذى يرى أن العدد سبعة لا- مفهوم له- بأن الأحاديث تدل بنصها على حقيقة العدد و انحصاره «أقرأنى جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستريده و يزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف» (١) «و إن ربي أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت عليه أن هوّن على أمتى- فأرسل إلى أن أقرأ على سبعة أحرف» (٢) فهذا يدل على حقيقة العدد المعين المحصور في سبعة.

و يجاب عن الرأى السادس (و) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع- بأن القرآن غير القراءات، فالقرآن: هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه و سلم للبيان و الإعجاز، و القراءات: هى اختلاف في كيفية النطق بألفاظ الوحي، من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك، قال أبو شامة:

«ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت في الحديث، و هو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، و إنما يظن ذلك بعض أهل الجهل» (٣).

و قال الطبرى: «و أما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف و جره و نصبه و تسكين حرف و تحريكه و نقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة، فمن معنى قول النبى صلى الله عليه و سلم: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» بمعزل،

(١) أخرجه البخارى و مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) انظر الإتقان، صفحة ٨٠ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٨

لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن- مما اختلفت القراءة في قراءته بهذا المعنى يوجب المراد به كفر الممارى به في قول أحد من علماء الأمة، و قد أوجب عليه الصلاة و السلام بالمراء في الكفر، من الوجه الذى تنازع فيه المتنازعون إليه، و تظاهرت عنه بذلك الرواية» (١).

و لعل الذى أوقعهم في هذا الخطأ الاتفاق في العدد سبعة، فالتبس عليهم الأمر. قال ابن عمار: «لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، و أشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هى المذكورة في الخبر، و ليته إذ اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة».

و بهذه المناقشة يتبين لنا أن الرأى الأول (أ) الذى يرى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد هو الذى يتفق مع ظاهر النصوص، و تسانده الأدلة الصحيحة.

عن أبي بن كعب قال: «قال لى رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: رب خفف عن أمتى، فأمرنى، قال: اقرأه على حرفين، فقلت: رب خفف عن أمتى، فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة، كلها شاف كاف» (٢) قال الطبرى: «و السبعة الأخرى: هو ما قلنا من أنه الألسن السبعة، و الأبواب السبعة من الجنة هى المعانى التى فيها، من الأمر و النهى و الترغيب و الترهيب و القصص و المثل، التى إذا عمل بها العامل، و انتهى إلى حدودها المنتهى، استوجب به الجنة، و

ليس و الحمد لله في قول من قال ذلك من المتقدمين خلاف لشيء مما قلناه» و معنى «كلها شاف كاف» كما قال جل ثناؤه في صفة القرآن:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٧- يونس) جعله الله للمؤمنين شفاء، يستشفون بمواعظه من الأدواء

(١) تفسير الطبرى، صفحة ٦٥، ج ١.

(٢) رواه مسلم و الطبرى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٦٩

العارضة لصدورهم من وساوس الشيطان و خطراته، فيكفيهم و يغيثهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته» (١)

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف في أمور:- ١- تيسير القراءة و الحفظ على قوم أميين، لكل قبيل منهم لسان و لا عهد لهم بحفظ الشرائع، فضلا عن أن يكون ذلك مما ألفوه- و هذه الحكمة نصت عليها الأحاديث في عبارات:

عن أبي قال: «لقى رسول الله صلى الله عليه و سلم جبريل عند أحجار المراء فقال:

إني بعثت إلى أمة أميين، منهم الغلام و الخادم و الشيخ العاس و العجوز، فقال جبريل:

فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف» (٢) «إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف، فقلت: اللهم رب خفف عن أمتى» «إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، قال: أسأل الله معافاته و مغفرته، و إن أمتى لا تطيق ذلك».

٢- إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب- فتعدد مناحى التأليف الصوتى للقرآن تعددا يكافئ الفروع اللسانية التى عليها فطرة اللغة فى العرب حتى يستطيع كل عربى أن يوقع بأحرفه و كلماته على لحنه الفطرى و لهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذى تحدى به الرسول العرب و مع اليأس من معارضته لا يكون إعجازا للسان دون آخر، و إنما يكون إعجازا للفطرة اللغوية نفسها عند العرب.

٣- إعجاز القرآن فى معانيه و أحكامه- فإن تقلب الصور اللفظية فى بعض الأحرف و الكلمات يتهاى معه استنباط الأحكام التى تجعل القرآن ملائما لكل عصر- و لهذا احتج الفقهاء فى الاستنباط و الاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة.

(١) انظر الطبرى صفحة ٤٧، ٦٧ ج ١.

(٢) رواه أحمد و أبو داود و الترمذى و الطبرى بإسناد صحيح، و أحجار المراء: موضع بقاء، و عسا الشيخ:

كبر و أسن و ضعف.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٠

١٠- القراءات و القراء

إشارة

القراءات: جمع قراءة، مصدر قرأ فى اللغة، و لكنها فى الاصطلاح العلمى:

مذهب من مذاهب النطق فى القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهبها يخالف غيره.

وهي ثابتة بأسانيدھا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة، فقد اشتهر بالإقراء منهم: أبي، وعلی، وزید بن ثابت، وابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم، وعندهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار. وكلهم يسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر الذهبي في «طبقات القراء» أن المشتهرين بإقراء القرآن من الصحابة سبعة: عثمان، وعلی، وأبي، وزید بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، قال: وقد قرأ علی «أبي» جماعة من الصحابة، منهم: أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضا.

وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين في كل مصر من الأمصار.

كان منهم «بالمدينة» ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز،

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧١

وسليمان وعطاء ابنا يسار، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارئ، وعبد الرحمن ابن هرمز الأعرج، وابن شهاب الزهري، ومسلم بن جندب، وزيد بن أسلم.

وكان منهم «بمكة» عبيد بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، ومجاهد، وعكرمة، وابن أبي مليكة.

وكان منهم «بالكوفة» علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وعمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمى، وسعيد بن جبیر، والنخعي، والشعبي.

وكان منهم «بالبصرة» أبو عاليه، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، والحسن، وابن سيرين، وقتادة.

وكان منهم «بالشام» المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، صاحب عثمان، وخليفة بن سعد، صاحب أبي الدرداء.

وفي عهد التابعين على رأس المائة الأولى تجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة، حين دعت الحاجة إلى ذلك، وجعلوها علما كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى، وصاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم. واشتهر منهم ومن الطبقة التي تلتهم الأئمة السبعة الذين تنسب إليهم القراءات إلى اليوم، فكان منهم «بالمدينة» أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم نافع بن عبد الرحمن و كان منهم «بمكة» عبد الله ابن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، و كان منهم «بالكوفة» عاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي، و كان منهم «بالبصرة» عبد الله بن أبي اسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي، و كان منهم «بالشام» عبد الله بن عامر، واسماعيل بن عبد الله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث، ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

والأئمة السبعة الذين اشتهروا من هؤلاء في الآفاق هم: أبو عمرو، و نافع،

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٢

وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وابن كثير. «١»

والقراءات غير الأحرف السبعة - على أصح الآراء - وإن أوهم التوافق العددي الوحده بينهما، لأن القراءات مذاهب أئمة، وهي باقية إجماعا يقرأ بها الناس، ومنشؤها اختلاف في اللهجات و كيفية النطق وطرق الأداء من تفخيم، و ترقيق، و إمالة، و إدغام، و إظهار، و إشباع، و مد، و قصر، و تشديد، و تخفيف ... الخ، و جميعها في حرف واحد هو حرف قريش.

أما الأحرف السبعة فهي بخلاف ذلك على نحو ما سبق لك، و قد انتهى الأمر بها إلى ما كانت عليه العرضة الأخيرة حين اتسعت الفتوحات، و لم يعد للاختلاف في الأحرف وجه خشية الفتنة و الفساد، فحمل الصحابة الناس في عهد عثمان على حرف واحد هو حرف قريش و كتبوا به المصاحف كما تقدم.

كثرة القراء والسبب في الاختصار على السبعة

قراءات أولئك السبع هي المتفق عليها، وقد اختار العلماء من أئمة القراءة غيرهم ثلاثة صحت قراءتهم و تواترت، وهم: أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني، و يعقوب بن اسحاق الحضرمي، و خلف بن هشام. و هؤلاء و أولئك هم أصحاب القراءات العشر. و ما عداها فشاذا، كقراءة: اليزيدي، و الحسن.

و الأعمش، و ابن جبير، و غيرهم. و لا تخلو إحدى القراءات العشر حتى السبع المشهورة من شواذ. فإن فيها من ذلك أشياء، و اختيار القراء السبع إنما هو للعلماء المتأخرين في المائة الثالثة، و إلا فقد كان الأئمة الموثوق بعلمهم كثيرين، و كان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة ابن عمرو، و يعقوب، و بالكوفة على قراءة حمزة و عاصم. و بالشام على قراءة ابن عامر و بمكة على قراءة ابن كثير، و بالمدينة على قراءة نافع، و كان هؤلاء هم السبعة. فلما كان على رأس المائة الثالثة أثبت أبو بكر بن مجاهد «٢» اسم الكسائي، و حذف منهم اسم يعقوب.

(١) انظر الإتيقان صفحة ٧٢، ٧٣- ج ١.

(٢) مقرئ أهل العراق، و ممن ألفوا في هذا الفن، و كان من المتقين، توفي سنة ٣٢٤ هـ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٣

قال السيوطي: «أول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم أحمد بن جبير الكوفي، ثم اسماعيل بن اسحاق المالكي صاحب فالون، ثم أبو جعفر بن جرير الطبري، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجوني، ثم أبو بكر بن مجاهد، ثم قام الناس في عصره و بعده بالتأليف في أنواعها جامعا و مفردا. و موجزا و مسهبا، و أئمة القراءات لا تحصى، و قد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبي، ثم حافظ القراء أبو الخير بن الجزري» «١» و قال الإمام ابن الجزري في «النشر» أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام، و جعلهم فيما أحسب خمسة و عشرين قارئاً، مع هؤلاء السبعة، و توفي سنة «٢٢٤» ثم قال: و كان في أثره أبو بكر أحمد بن موسى ابن العباس بن مجاهد أول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط، و توفي سنة «٣٢٤» ثم قال: و إنما أظننا في هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم له أن القراءات الصحيحة هي التي عن هؤلاء السبعة، بل غلب على كثير من الجهال أن القراءات الصحيحة هي التي في الشاطبية و التيسير» «٢» و السبب في الاختصار على السبعة مع أنه في أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا أو مثلهم إلى عدد أكثر من السبعة، هو أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرا جدا- فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه و تنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة و الأمانة، و طول العمر في ملازمة القراءة و الاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماما واجدا، و لم يتركوا

(١) الإتيقان، صفحة ٧٣ هجرية.

(٢) نقل ابن حجر في الفتح هذا، و أثبتته الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «تفسير الطبري، صفحة ٦٥ ج ١ هامش. و ابن الجزري: هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد، أبو الخير شمس الدين الشهير بابن الجزري، شيخ القراء في زمانه، من أشهر كتبه: «النشر في القراءات العشر» توفي سنة ٨٣٣ هـ- و الشاطبية: هي المنظومة المنسوبة إلى الإمام أبي محمد القاسم الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ نظم فيها كتاب التيسير في (١١٧٣) بيتا، و سماها «حز الأمانى و وجه التهاني في القراءات السبع المثاني»- و كتاب «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو الداني، من أئمة القراء، توفي سنة ٤٤٤ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٤

مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات و لا القراءة بها، كقراءة يعقوب الحضرمي، و أبي جعفر المدني، و شيبه بن نصاح، و غيرهم.

وقد أسهم المؤلفون في القراءات في الاقتصار على عدد معين. لأنهم إذ يؤلفون مقتصرين على عدد مخصوص من أئمة القراء يكون ذلك من دواعي شهرتهم وإن كان غيرهم أجل منهم قدرا، فيتوهم الناس بعد أن هؤلاء الذين اقتصر التأليف على قراءاتهم هم الأئمة المعترفون في القراءات. وقد صنف ابن جبر المكي كتابا في القراءات فاقصر على خمسة، اختار من كل مصر إماما، وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التي أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار. ويقال:

إنه وجه سبعة، هذه الخمسة و مصحفا إلى اليمن. و مصحفا إلى البحرين. لكن لما لم يسمع لهذين المصحفين خبر و أراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف استبدلوا من مصحف البحرين و مصحف اليمن قارئين كمل بهما العدد- و لذا قال العلماء:

إن التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر و لا سنة. و إنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر، فلو أن ابن مجاهد مثلا كتب عن غير هؤلاء السبعة بالإضافة إليهم لاشتهروا. قال أبو بكر بن العربي: «نست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر و شيبه و الأعمش و نحوهم، فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم» و كذا قال غير واحد من أئمة القراء و قال أبو حيان:

«ليس في كتاب ابن مجاهد و من تبعه من القراءات المشهورة إلا النزر اليسير، فهذا أبو عمرو بن العلاء اشتهر عنه سبعة عشر راويا، ثم ساق أسماءهم، و اقتصر في كتاب ابن مجاهد على اليزيدي، و اشتهر عن اليزيدي عشرة أنفس.

فكيف يقتصر على السوسى، و الدورى، و ليس لهما مزية على غيرهما، لأن الجميع مشتركون في الضبط و الإتقان و الاشتراك في الأخذ. قال: و لا أعرف لهذا سببا إلا ما قضى من نقص العلم» (١)

(١) انظر الإتقان صفحة ٨٠، ٨١ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٥

أنواع القراءات و حكمها و ضوابطها

ذكر بعض العلماء أن القراءات! متواترة، و آحاد، و شاذة، و جعلوا المتواتر السبع، و الآحاد الثلاث المتممة لعشرها، ثم ما يكون من قراءات الصحابة، و ما بقى فهو شاذ. و قيل: العشر متواترة. و قيل: المعتمد في ذلك الضوابط سواء كانت القراءة من القراءات السبع، أو العشر، أو غيرها: قال أبو شامة في «المرشد الوجيز» لا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى أحد السبعة و يطلق عليها لفظ الصحة و أنها أنزلت هكذا إلا- إذا دخلت في ذلك الضابط، و حينئذ لا لنفرد بنقلها مصنف عن غيره، و لا يختص ذلك بنقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا- يخرجها عن الصحة- فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه، فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة و غيرهم منقسمة إلى المجمع عليه و الشاذ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم و كثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم» (١) و القياس عندهم في ضوابط القراءة الصحيحة ما يأتي:-

(١) انظر الإتقان صفحة ٧٥ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٦

١- موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه، سواء كان أفصح أم فصيحاً، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها و المصير إليها بالإسناد لا بالرأى.

٢- و أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية و لو احتمالاً- لأن الصحابة في كتابه المصاحف العثمانية اجتهدوا في الرسم على حسب ما عرفوا من لغات القراء، فكتبوا (الصراط) مثلا في قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦- الفاتحة) «بالصاد» المبدلة بالسين- و عدلوا عن «السين» التي هي الأصل، لتكون قراءة «السين» (الصراط) و إن خالفت الرسم من وجه، فقد أتت على الأصل اللغوى

المعروف، فيعتدلان، و تكون قراءة الإشمام محتملة لذلك.

و المراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا، كقراءة (مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ٤- الفاتحة) فإن لفظه (مالك) كتبت في جميع المصاحف بحذف الألف، فتقرأ (ملك) و هي توافق الرسم تحقيقاً، و تقرأ (مالك) و هي توافقه احتمالاً، و هكذا. في غير ذلك من الأمثلة.

و مثال ما يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً (تعلمون) بالتاء و الياء، و (يغفر لكم) بالياء و النون، و نحو ذلك، مما يدل تجرده عن النقط و الشكل في حذفه و إثباته على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم في علم الهجاء خاصة، و فهم ثاقب في تحقيق كل علم. و لا يشترط في القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لجميع المصاحف، و يكفي الموافقة لما ثبت في بعضها، و ذلك كقراءة ابن عامر (و بِالزُّبْرِ وَ بِالْكِتَابِ ١٨٤- آل عمران) بإثبات الباء فيهما، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي.

٣- و أن تكون القراءة مع ذلك صحيحة الإسناد، لأن القراءة سنة متبعة يعتمد فيها على سلامة النقل و صحة الرواية، و كثيراً ما ينكر أهل العربية قراءة من القراءات لخروجها عن القياس، أو لضعفها في اللغة، و لا يحفل أئمة القراء بإنكارهم شيئاً.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٧

تلك هي ضوابط القراءة الصحيحة، فإن اجتمعت الأركان الثلاثة: ١- موافقة العربية- ٢- و رسم المصحف- ٣- و صحة السند، فهي القراءة الصحيحة، و متى اختل ركن منها أو أكثر أطلق عليها أنها ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة.

و من عجب أن يذهب بعض النحاة بعد ذلك إلى تخطئه القراءة الصحيحة التي تتوافر فيها تلك الضوابط لمجرد مخالفتها لقواعدهم النحوية التي يقيسون عليها صحة اللغة، فإنه ينبغي أن نجعل القراءة الصحيحة- حكماً على القواعد اللغوية و النحوية. لا أن نجعل هذه القواعد حكماً على القرآن. إذ القرآن هو المصدر الأول الأصل لاقتباس قواعد اللغة، و القرآن يعتمد على صحة النقل و الرواية فيما استند إليه القراء. على أي وجه من وجوه اللغة. قال ابن الجزرى معلقاً على الشرط الأول من ضوابط القراءة الصحيحة: «فقولنا- في الضابط «و لو بوجه» نريد به وجهها من وجوه النحو، سواء أ كان أفصح أم فصيحاً، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع و ذاع و تلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم، و الركن الأقوم، و كم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم و لم يعتبر إنكارهم، كإسكان «بارئكم» و «يأمركم» و خفض «و الأرحام» و نصب «ليجزى قوماً». و الفصل بين المضافين في «قتل أولادهم شركائهم» و غير ذلك» ١» و قال أبو عمرو الداني: «و أئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفسى في اللغة و الأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر و الأصح في النقل، و إذا ثبتت الرواية لم يرد لها قياس عربية و لا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة، يلزم قبولها و المصير إليها» و عن زيد بن ثابت قال: «القراءة سنة متبعة.» ٢» قال البيهقي: «أراد أن اتباع من قبلنا في الحروف سنة متبعة، لا

(١) انظر الإتقان صفحة ٧٥ ج ١، و راجع كتب التفسير في هذه الآيات (وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ ١- النساء)، (لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤- الجاثية)، (وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ ١٣٧- الأنعام).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٨

يجوز مخالفة المصحف الذي هو إمام، و لا مخالفة القراءات التي هي مشهورة، و إن كان غير ذلك سائغاً في اللغة» و استخلص بعض العلماء أنواع القراءات فجعلها ستة أنواع:- الأول: المتواتر: و هو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه- و هذا هو الغالب في القراءات.

الثاني: المشهور: و هو ما صح سنده و لم يبلغ درجة المتواتر، و وافق العربية و الرسم، و اشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط، و لا من

الشذوذ- و ذكر العلماء في هذا النوع أنه يقرأ به.

الثالث: الآحاد: وهو ما صح سنده، و خالف الرسم، أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور. و هذا لا يقرأ به، و من أمثله ما روى عن أبي بكره «أن النبي صلى الله عليه و سلم قرأ (متكئين على رفارف خضر و عباقرى حسان ٧٩- الرحمن) «١» و ما روى عن ابن عباس أنه قرأ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ١٢٨- التوبة) بفتح الفاء «٢».

الرابع: الشاذ: وهو ما لم يصح سنده. كقراءة (ملك يوم الدين ٤- الفاتحة) بصيغته الماضي. و نصب «يوم» الخامس: الموضوع: وهو ما لا أصل له.

السادس: المدرج: وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير- كقراءة ابن عباس (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج فإذا أفضتم من عرفات ١٩٨- البقرة) «٣» فقله «في مواسم الحج» تفسير مدرج في الآية.

(١) أخرجه الحاكم.

(٢) أخرجه الحاكم.

(٣) أخرجه البخارى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٧٩

و الأنواع الأربعة الأخيرة لا يقرأ بها.

و الجمهور على أن القراءات السبع متواترة. و أن غير المتواتر المشهور لا تجوز القراءة به فى الصلاة و لا فى غيرها: قال «النوى» فى «شرح المهدب» لا- تجوز القراءة فى الصلاة و لا- غيرها بالقراءة الشاذة، لأنها ليست قرآنا، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر و القراءة الشاذة ليست متواترة، و من قال غيره فغالط أو جاهل، فلو خالف و قرأ بالشاذ أنكر عليه قراءته فى الصلاة و غيرها، و قد اتفق فقهاء بغداد على استتابه من قرأ بالشواذ، و نقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ، و لا يصلى خلف من يقرأ بها» مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٨٠

فوائد الاختلاف فى القراءات الصحيحة

و لاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها:

١- الدلالة على صيانه كتاب الله و حفظه من التبديل و التحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

٢- التخفيف عن الأمة و تسهيل القراءة عليها.

٣- إعجاز القرآن فى إيجازه، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعى دون تكرار اللفظ كقراءة (وَأَمْسِيحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ٦- المائدة) بالنصب و الخفض فى (وَأَرْجُلِكُمْ) ففى قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) و قراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح (وَأَمْسِيحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ) فنستفيد الحكمين من غير تطويل، و هذا من معانى الإعجاز فى الإيجاز بالقرآن.

٤- بيان ما يحتمل أن يكون مجملا- فى قراءة أخرى كقراءة (يَطْهَرُونَ) فى قوله تعالى (وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ٢٢٢- البقرة) قرئ بالتشديد و التخفيف، فقراءة التشديد مبيته لمعنى قراءة التخفيف، عند الجمهور، فالحائض لا يحل

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٨١

وطؤها لزوجها بالطهر من الحيض، أى بانقطاع الدم، حتى تتطهر بالماء- و قراءة (فامضوا إلى ذكر الله) فإنها تبين أن المراد بقراءة

(فَاسْمِعُوا) الذهاب لا- المشى السريع في قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْمِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ٩- الجمعة)- و قراءة (و السارق و السارقة فاقطعوا إيمانها ٣٨- المائدة) بدلا من (أَيَّدِيَهُمَا) فقد بينت ما يقطع- و قراءة (و له أخ أو أخت من أم فللكل واحد منهما السدس ١٢- النساء) فقد بينت أن المراد الإخوة لأم، و لذا قال العلماء: «باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام» قال أبو عبيدة في «فضائل القرآن» المقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة و تبين معانيها، كقراءة عائشة و حفصة. (و الصلاة الوسطى صلاة العصر ٢٣٨- البقرة) قراءة ابن مسعود (فاقطعوا إيمانها ٣٨- المائدة) و قراءة جابر (فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم ٣٣- النور) قال: فهذه الحروف و ما شاكلها قد صارت مفسرة للقرآن، و قد كان يروى مثل هذا عن التابعين في التفسير فيستحسن، فكيف إذا روى عن كبار الصحابة، ثم صار في نفس القراءة، فهو أكثر من التفسير و أقوى، فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة صححة التأويل «١» و القراءة السبعة المشهورون الذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد و خصهم بالذكر لما اشتهروا به عنده من الضبط و الأمانة و طول العمر في ملازمة القراءة و اتفاق الآراء على الأخذ عنهم هم:

١- أبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة، و هو زيان بن العلاء بن عمار المازني البصري، و قيل اسمه يحيى، و قيل اسمه كنيته، و توفي بالكوفة سنة أربع و خمسين و مائة- ١٥٤ هـ- و راويه! الدوري، و السوسى: فأما الدوري: فهو أبو عمر حفص بن عمر بن عبد

(١) انظر الإتقان صفحة ٨٢ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٨٢

العزیز الدوري النحوی، و الدور: موضع ببغداد، توفي سنة ست و أربعين و مائتين- ٢٤٦ هـ- و أما السوسى: فهو أبو شعيب صالح بن زياد بن عبد الله السوسى، توفي سنة إحدى و ستين و مائتين- ٢٤١ هـ.

٢- ابن كثير: هو عبد الله بن كثير المكي، و هو من التابعين، و توفي بمكة سنة عشرين و مائة- ١٢٠ هـ- و راويه: البزى، و قبل! أما البزى! فهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المؤذن المكي، و يكنى أبا الحسن، و توفي بمكة سنة خمسين و مائتين- ٢٥٠ هـ- و أما قبل: فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد المكي المخزومي، و يكنى أبا عمرو، و يلقب قنبلا، و يقال: هم أهل البيت بمكة، يعرفون بالقنابلة، و توفي بمكة سنة إحدى و تسعين و مائتين- ٢٩١ هـ- ٣- نافع المدني: هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، أصله من أصفهان، و توفي بالمدينة سنة تسع و ستين و مائة- ١٦٩ هـ- و راويه! قالون، و ورش: أما قالون: فهو عيسى بن منيا «بالمدة و القصر» المدني، معلم العربية، و يكنى أبا موسى، و قالون لقب له أيضا، يروى أن نافعا لقبه به لجودة قراءته، لأن قالون بلسان الروم جيد. و توفي بالمدينة سنة عشرين و مائتين- ٢٢٠ هـ- و أما ورش: فهو عثمان بن سعيد المصري، و يكنى أبا سعيد، و ورش لقب له، لُقِبَ به فيما يقال لشدة بياضه، و توفي بمصر سنة سبع و تسعين و مائة- ١٩٧ هـ- ٤- ابن عامر الشامي: هو عبد الله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك. و يكنى أبا عمران، و هو من التابعين، و توفي بدمشق سنة ثمان عشرة و مائة- ١١٨ هـ- و راويه:

هشام، و ابن ذكوان: فأما هشام فهو هشام بن عمار بن نصير القاضي

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٨٣

الدمشقي، و يكنى أبا الوليد، و توفي بها سنة خمس و أربعين و مائتين- ٢٤٥ هـ- و أما ابن ذكوان فهو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي، و يكنى أبا عمرو، ولد سنة ثلاث و سبعين و مائة- ١٧٣ هـ- و توفي بدمشق سنة اثنتين و أربعين و مائتين- ٢٤٢ هـ- ٥- عاصم الكوفي- هو عاصم بن أبي النجود، و يقال له ابن بهدلة، أبا بكر، و هو من التابعين، و توفي بالكوفة سنة ثمان و عشرين و مائة- ١٢٨ هـ- و راويه:

شعبة، و حفص: فأما شعبة فهو أبو بكر شعبة بن عباس بن سالم الكوفي، و توفي بالكوفة سنة ثلاث و تسعين و مائة- ١٩٣ هـ- و أما

حفص فهو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفي، و يكنى أبا عمرو، و كان ثقة، قال ابن معين: هو أقرأ من أبي بكر، و توفي سنة ثمانين و مائة- ١٨٠ هـ- ٦- حمزة الكوفي: هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي، و يكنى أبا عمارة و توفي بحلولان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ست و خمسين و مائة- ١٥٦ هـ- و راويه:

خلف، و خلاد: فأما خلف فهو خلف بن هشام البزاز، و يكنى أبا محمد، توفي ببغداد سنة تسع و عشرين و مائتين- ٢٢٩ هـ- و أما خلاد فهو خلاد بن خالد، و يقال ابن خلود، الصيرفي الكوفي، و يكنى أبا عيسى، و توفي بها سنة عشرين و مائتين- ٢٢٠ هـ- ٧- الكسائي الكوفي: هو علي بن حمزة إمام النحاة الكوفيين، و يكنى أبا الحسن، و قيل له الكسائي من أجل أنه أكرم في كساء- توفي «برنويه» قرية من قرى الري حين توجه إلى خراسان مع الرشيد سنة تسع و ثمانين و مائة- ١٨٩ هـ- و راويه:

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٨٤

أبو الحارث، و حفص الدوري: فأما أبو الحارث فهو الليث بن خالد البغدادي، توفي سنة أربعين و مائتين- ٢٤٠ هـ- و أما حفص الدوري فهو الراوي عن أبي عمرو، و قد سبق ذكره.
أما الثلاثة تكلمة العشرة فهم:

٨- أبو جعفر المدني: هو يزيد بن القعقاع، و توفي بالمدينة سنة ثمان و عشرين و مائة- ١٢٨ هـ- و قيل- ١٣٢ هـ- و راويه:
ابن وردان، و ابن جماز: فأما ابن وردان فهو أبو الحارث عيسى بن وردان المدني، و توفي بالمدينة في حدود الستين و مائة- ١٦٠ هـ- و أما ابن جماز فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز المدني، توفي بها بعيد السبعين و مائة- ١٧٠ هـ- ٩- يعقوب البصري: هو ابو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي، و توفي بالبصرة سنة خمس و مائتين- ٢٠٥ هـ- و قيل- ١٨٥ هـ- و راويه:
رويس، و روح: فأما رويس: فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري، و رويس لقب له، و توفي بالبصرة سنة ثمان و ثلاثين و مائتين- ٢٣٨ هـ.

و أما روح: فهو أبو الحسن روح بن عبد المؤمن البصري النحوي، و توفي سنة أربع أو خمس و ثلاثين و مائتين- ٢٣٤ هـ- أو- ٢٣٥ هـ-
١٠- خلف: هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزاز البغدادي، و توفي سنة تسع و عشرين و مائتين- ٢٢٩ هـ- و قيل لم يوقف على تاريخ وفاته- و راويه!- إسحاق و إدريس: أما إسحاق: فهو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان الوراق المروزي ثم البغدادي، توفي سنة ست و ثمانين و مائتين- ٢٨٦ هـ- و أما إدريس: فهو أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغدادي الحداد،
مباحث في علوم القرآن، ص: ١٨٥

توفي يوم الأضحى سنة اثنتين و تسعين و مائتين؟؟؟ ٢ هـ- و يزيد بعضهم أربع قراءات على هاتيك العشر، و هن:

- ١- قراءة الحسن البصري، مولى الأنصار، أحد كبار التابعين المشهورين بالزهد، توفي سنة ١١٠ هجرية.
- ٢- و قراءة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن، توفي سنة ١٢٣ هجرية، و كان شيخاً لأبي عمرو.
- ٣- و قراءة يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي، من بغداد، أخذ عن أبي عمرو و حمزة، و كان شيخاً للدوري و السوسى. توفي سنة ٢٠٢ هجرية.
- ٤- و قراءة أبي الفرج محمد بن أحمد الشنبوذي، توفي سنة ٣٨٨ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٨٦

الوقف و الابتداء «١»

لمعرفة الوقف و الابتداء أهمية كبرى في كيفية أداء القرآن حفاظاً على سلامة معاني الآيات. و بعدا عن اللبس و الوقوع في الخطأ، و هذا يحتاج إلى دراية بعلوم العربية، و علم القراءات، و تفسير القرآن، حتى لا يفسد المعنى. و لهذا أمثلته:

فيجب الوقف مثلاً- على قوله تعالى: (وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ۱- الكهف) ثم يتدئ (قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ۗ۲- الكهف) لثلاثا يتوهم أن قوله (قَيِّمًا) صفة لقوله (عِوَجًا) إذ العوج لا يكون قيما.

وعلى ما آخره هاء سكت في مثل قوله تعالى (يا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَهٗ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ ۗ۱۹، ۲۰- الحاقة) وقوله (ما أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ، هَلَكَّ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ۗ۲۸- ۲۹- الحاقة) فإنك في غير القرآن تثبت هذه الهاء إذا وقفت، وتحذفها إذا وصلت، وهي مكتوبة في المصحف بالهاء، فلا يوصل، لأنه يلزم في حكم العريية إسقاط الهاء في الوصل. فإثباتها إذا وصلت مخالفة للعريية، وحذفها مخالفة للمصحف، وفي الوقف عليها اتباع للمصحف والعريية معا. وجواز الوصل بالهاء إنما يكون على نية الوقف.

ويجب الوقف مثلاً- على قوله: (وَلَا يَخْرُجُكَ قَوْلُهُمْ ۗ۶۵- يونس) ثم يتدئ (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) كي يستقيم المعنى، لأنه إذا وصل أوهم هذا أن القول الذي يحزنه هو قولهم: (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) وليس كذلك. ولا شك أن معرفة الوقف والابتداء لها فائدتها في فهم المعاني وتدبر الأحكام، عن ابن عمر قال: «لقد عشنا برهه من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، ولقد رأينا اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدرى ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده، وكل حرف منه ينادي: أنا رسول الله إليك لتعمل بي. وتتعظ بمواعظي» (۲).

(۱) أفردته بالتأليف جماعة، منهم ابن النحاس، وابن عباد، والداني. وانظر «البرهان» للزركشي صفحة ۳۴۲ ح ۱.

(۲) أنظر هامش البرهان صفحة ۳۴۲ ج ۱.

مباحث في علوم القرآن، ص: ۱۸۷

أقسام الوقف: اختلف العلماء في أقسام الوقف.

ف قيل ينقسم الوقف إلى ثمانية أضرب: تام، وشبيه به، وناقص، وشبيه به، وحسن، وشبيه به، وقبيح، وشبيه به.

وقيل ينقسم إلى ثلاثة: تام، وجائز، وقيل ينقسم إلى قسمين: تام، وقبيح.

والمشهور أنه ينقسم إلى أربعة أقسام: تام مختار، وكاف جائز، وحسن مفهوم، وقبيح متروك.

۱- فالتام: هو الذي لا يتعلق بشيء مما بعده، وأكثر ما يوجد عند رءوس الآي، كقوله تعالى: (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۗ۵- البقرة) ثم يتدئ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ۶- البقرة) وقد يوجد قبل انقضاء الفاصلة، كقوله تعالى (وَجَعَلُوا أَعْرَٰةً أَهْلَهَا أَذِلَّةٌ ۗ۳۴- النمل) حيث انتهى بهذا كلام بلقيس، ثم قال تعالى (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۗ۳۴- النمل) وهو رأس الآية.

۲- والكافي الجائز: هو الذي يكون اللفظ فيه منقطعا، ويكون المعنى متصلا.

ومن أمثله، كل رأس آية بعدها لام كي: كقوله تعالى: (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ، لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۗ۶۹، ۷۰- يس) ۳- والحسن: هو الذي يحسن الوقوف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده لتعلقه به في اللفظ والمعنى كقوله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۗ۱، ۲- الفاتحة) ۴- والقبيح: هو الذي لا يفهم منه المراد، كالوقف على قوله تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا- ۱۷- المائدة) والابتداء بقوله: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ۱۷- المائدة) لأن المعنى على الابتداء يكون كفرا، ونظيره قوله تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۗ۷۳- المائدة) فلا يقف على (قَالُوا) وهكذا ...

مباحث في علوم القرآن، ص: ۱۸۸

التجويد و آداب التلاوة

كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قارئاً ندى الصوت، يجيد تلاوة القرآن، و للتلاوة الجيدة أثرها لدى القارئ والمستمع في فهم

معاني القرآن و إدراك أسرار إعجازه، في خشوع و ضراعة، و قد قال صلى الله عليه و سلم فيه: «من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» يعنى ابن مسعود، و ذلك لما أعطيه من حسن الصوت و تجويد القرآن. و للعلماء قديما و حديثا عناية بتلاوة القرآن حتى يكون النطق صحيحا، و يعرف هذا عندهم بتجويد القرآن، و أفرد جماعة بالتصنيف نظما و نثرا، و عرفوا التجويد بأنه: «إعطاء الحروف حقوقهما و ترتيبها، و رد الحرف إلى مخرجه و أصله، و تلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف و لا- تعسف و لا- إفراط و لا- تكلف» و التجويد و إن كان صناعة علمية لها قواعد التي تعتمد على إخراج الحروف من مخرجها مع مراعاة صلة كل حرف بما قبله و ما بعده في كيفية الأداء فإنه لا يكتسب بالدراسة بقدر ما يكتسب بالممارسة و المران و محاكاة من يجيد القراءة، قال ابن الجزرى: «و لا أعلم لبلوغ النهاية في التجويد مثل رياضة الألسن مباحث في علوم القرآن، ص: ١٨٩»

و التكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن، و قاعدته ترجع إلى كيفية الوقف و الإمالة و الإدغام و إحكام الهمز و الترقيق و التفخيم و مخارج الحروف» (١) و قد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا، و اللحن: خلل يطرأ على الألفاظ، و منه الجلى و الخفى، فالجلى: هو الذى يخل باللفظ إخلالا ظاهرا يشترك في معرفته علماء القراءة و غيرهم، و ذلك كالخطأ الإعرابى أو الصرفى و الخفى: هو الذى يخل باللفظ إخلالا يختص بمعرفته علماء القراءة و أئمة الأداء الذين تلقوه من أفواه العلماء ضبطوه من ألفاظ أهل الأداء. و المبالغة في التجويد إلى حد الإفراط و التكلف ليست أقل من اللحن، لأنها زيادة للحروف في غير موضعها، كأولئك الذين يقرءون القرآن اليوم بنغم شجى متردد فيه الصوت تردد الوقع الموسيقى و العزف على آلات الطرب، و قد نبه العلماء على ما ابتدعه الناس من ذلك. بما يسمى: بالترعيد، أو الترقيص، أو التطريب، أو التحزين، أو الترديد، و نقل ذلك السيوطى في الإتقان، و عبر عنه الرافعى في «إعجاز القرآن» بقوله: «و مما ابتدع في القراءة و الأداء هذا التلحين الذى بقى إلى اليوم يتناقله المفتونة قلوبهم و قلوب من يعجبهم شأنهم، و يقرءون به على ما يشبه الإيقاع، و هو الغناء! ... و من أنواعه عندهم فى أقسام النغم (الترعيد) و هو أن يرعد القارئ صوته، قالوا: كأنه يرعد من البرد أو الألم ... و (الترقيص) و هو أن يروم السكوت على الساكن ثم ينقر مع الحركة كأنه فى عدو أو هرولة، و (التطريب) و هو أن يترنم بالقرآن و يتنغم به فيمد فى غير مواضع المد، و يزيد فى المد إن أصاب موضعه، و (التحزين) و هو أن يأتى القراءة على وجه حزين يكاد يبكى مع خشوع و خضوع، ثم (الترديد) و هو رد الجماعة على القارئ فى ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه.

و إنما كانت القراءة- تحقيقا- و هو إعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما

(١) أنظر الإتقان، صفحة ١٠٠ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٩٠

قرره العلماء مع ترتيل و تؤدة- أو حدرا- و هو إدراج القراءة و سرعتها مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة- أو تدويرا- و هو التوسط بين التحقيق و الحدرا و قراءة القرآن سنه من سنن الإسلام، و الإكثار منها مستحب حتى يكون المسلم حى القلب مستنير الفؤاد بما يقرأ من كتاب الله، عن ابن عمر قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه فى آناء الليل و آناء النهار، و رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل و آناء النهار» (١) و التلاوة مع إخلاص النية و حسن القصد عبادة يؤجر عليها المسلم، عن ابن مسعود: «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، و الحسنه بعشر أمثالها» (٢) و جاء فى حديث أبى أمامة: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه» (٣) و كان السلف رضوان الله عليهم يحافظون على تلاوة القرآن، و منهم من كان يختم فى اليوم و الليلة، و منهم من كان يختم فى أكثر، عن عبد الله بن عمرو قال: «قال لى رسول الله صلى الله عليه و سلم: اقرأ القرآن فى شهر، قلت: إنى أجد قوة، قال: اقرأه فى عشر، قلت: إنى أجد قوة، قال: اقرأه

في سبع ولا- تزد على ذلك» (٤) و حذر رسول الله صلى الله عليه و سلم من نسيان القرآن، فقال: «تعاهدوا القرآن، فو الذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها» (٥) و الأمر فى كثرة القراءة و ختم القرآن يختلف باختلاف الأشخاص لاختلاف

(١) أخرجه البخارى و مسلم.

(٢) رواه الترمذى.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) رواه البخارى و مسلم.

(٥) رواه البخارى و مسلم.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٩١

قدراتهم، و تفاوت المصالح العامة التى تناط بهم. قال النووى فى «الأذكار» «المختار أن ذلك مختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف و معارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ، و كذلك من كان مشغولا بنشر العلم أو فصل الحكومات أو غير ذلك من مهمات الدين و المصالح العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، و لا فوات كماله- و إن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذمة فى القراءة» آداب التلاوة و يستحب لقارئ القرآن:

١- أن يكون على وضوء، لأن ذلك من أفضل الذكر. و إن كانت القراءة للمحدث جائزة.

٢- و أن يكون فى مكان نظيف طاهر، مراعاة لجلال القراءة.

٣- و أن يقرأ بخشوع و سكينه و وقار.

٤- و أن يستاك قبل البدء فى القراءة.

٥- و أن يتعوذ فى بدايتها، لقوله تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨- النحل) و أوجب الاستعاذة بعض العلماء.

٦- و أن يحافظ على البسمة فى مطلع كل سورة سوى «براءة» لأنها آية على الرأى الراجح.

٧- و أن تكون قراءته ترتيلا يعطى الحروف حقها من المد و الإدغام، قال تعالى (وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ٤- المزمل) و عن أنس أنه

سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «كانت مدا، ثم قرأ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» يمد الله، و يمد الرحمن، و يمد الرحيم» (١) و عن ابن مسعود «أن رجلا قال له:

إنى أقرأ المفصل فى ركعة واحدة، فقال: أ هذا كهذا الشعر؟» (٢) إن قوما يقرءون القرآن

(١) رواه البخارى.

(٢) الهذ و الهذذ: سرعه القراءة

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٩٢

لا يجاوز تراقيهم، و لكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع» (١) و قال الزركشى فى «البرهان» كمال الترتيل تفخيم ألفاظه، و الإبانة عن حروفه، و أن لا يدغم حرف فى حرف، و قيل: هذا أقله، و أكمله أن يقرأه على منازله، فإن قرأ تهديدا لفظ به لفظ التهديد، أو تعظيما لفظ به على التعظيم» ٨- و أن يتدبر ما يقرأ، لأن هذا هو المقصود الأعظم، و المطلوب الأهم.

و ذلك بأن يشغل قلبه بالتفكير فى معنى ما يقرأ، و يتجاوب مع كل آية بمشاعره و عواطفه، دعاء و استغفارا، و رحمة، و عذابا. قال

تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ٢٩- ص) و عن حذيفة قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه و سلم ذات ليلة، فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، و إذا مر بسؤال سأل، و إذا مر بتعوذ تعوذ» «٢».

٩- أن يتأثر بآيات القرآن وعدا و وعيدا، فيحزن و يبكي لآيات الوعيد فزعا و رهبةً و هولاً، قال تعالى (وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ١٠٩- الإسراء) و في حديث ابن مسعود: «قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم: «اقرأ على القرآن. قلت: يا رسول الله؛ اقرأ عليك و عليك أنزل؟ قال: نعم إنني أحب أن أسمع من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً- ٤١- النساء) قال: حسبك الآن فالتفت فإذا عيناه تذرفان» «٣» قال في شرح المهدب! و طريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد و الوعيد الشديد و الموثيق و العهود، ثم يفكر في تقصيره فيها فإن لم يحضره عند ذلك حزن و بكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب و روى ابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله صلى

(١) أخرجه البخارى و مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه البخارى و غيره.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٩٣

الله عليه و سلم:

«يخرج قوم في آخر الزمان- أو في هذه الأمة- يقرءون القرآن لا- يجاوز تراقيهم- أو حلقهم- إذا رأيتموهم- أو إذا لقيتموهم- فاقتلوهم» ١٠- و أن يحسن صوته بالقراءة، فإن القرآن زينه للصوت، و الصوت الحسن أوقع في النفس، و في الحديث «زينوا القرآن بأصواتكم» «١».

١١- و أن يجهر بالقراءة حيث يكون الجهر أفضل. لما فيه من إيقاظ القلب، و تجديد النشاط، و انصراف السمع إلى القراءة، و تعدى نفعها إلى السامعين، و استجماع المشاعر للتفكير و النظر و التدبر. أما إذا خشى بذلك الرياء، أو كان فيه أذى للناس كإيذاء المصلين فإن الإسرار يكون أفضل، قال صلى الله عليه و سلم: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به» «٢».

١٢- و اختلفوا في القراءة في المصحف و القراءة على ظهر قلب، أيهما أفضل؟

على ثلاثة أقوال «٣».

أحدها: أن القراءة في المصحف أفضل، لأن النظر فيه عبادة، فتجتمع القراءة و النظر.

و ثانيها: أن القراءة على ظهر القلب أفضل، لأنها أدعى إلى حسن التدبر، و هو الذى اختاره العز بن عبد السلام و قال: «قيل القراءة في المصحف أفضل، لأنه يجمع فعل الجارحتين: و هما اللسان و العين، و الأجر على قدر المشقة، و هذا باطل، لأن المقصود من القراءة التدبر،

(١) رواه ابن حيان و غيره.

(٢) أخرجه البخارى و مسلم.

(٣) انظر «البرهان» للزركشى صفحة ٤٦١ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٩٤

لقوله تعالى (لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ ٢٩- ص) و العادة تشهد أن النظر في المصحف يخل بهذا المقصود فكان مرجوحاً. و ثالثها: أن الأمر يختلف باختلاف الأحوال، فإن كان القارئ من حفظه يحصل له من التدبر و التفكير و جمع القلب أكثر مما يحصل له من المصحف فالقراءة من الحفظ أفضل، و إن استويا فمن المصحف أفضل.

تعلم القرآن و الأجر عليه

تعليم القرآن فرض كفاية، و حفظه واجب على الأمة، حتى لا ينقطع عدد التواتر فيه حفظاً، و لا يتطرق إليه التبديل و التحريف، فإن قام بذلك قوم سقط عن الباقيين، و إلا أثموا بأسرهم، و في حديث عثمان «خيركم من تعلم القرآن و علمه» (١). و سبيل تعلمه حفظ آيات يتلوها آيات، و هذا هو المعروف اليوم في وسائل التربية الحديثة، أن يحفظ الدارس شيئاً قليلاً، ثم يتبعه بقليل آخر، ثم يضم هذا إلى ذاك، و هكذا. عن أبي العالمة قال: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن النبي صلى الله عليه و سلم كان يأخذه من جبريل عليه السلام خمساً خمساً. و قد اختلف العلماء في جواز أخذ الأجر على تعليم القرآن، و رجح المحققون الجواز، لقوله صلى الله عليه و سلم: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله» (٢) و قوله: «زوجتكها بما معك من القرآن» (٣). و قسم بعض العلماء تعليم القرآن تقسيماً جيداً للحالات المختلفة، و بينوا حكم كل حالة منها: قال أبو الليث في كتاب «البستان» (٤):

«التعليم على

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى في كتاب الطب من حديث ابن عباس.

(٣) رواه الشيخان في باب النكاح.

(٤) هو أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ، و كتابه «بستان العارفين» في الأحاديث الواردة في الآداب الشرعية و الخصال و الأخلاق و بعض الأحكام الفرعية، و انظر «البرهان» للزركشى صفحة ٤٥٧ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٩٥

ثلاثة أوجه: أحدها للحسبة و لا يأخذ به عوضاً، و الثانى أن يعلم بالأجرة، و الثالث أن يعلم بغير شرط فإذا أهدى إليه قبل.

فالأول: مأجور عليه، و هو عمل الأنبياء عليهم الصلاة و السلام.

و الثانى: مختلف فيه، فقيل لا يجوز، لقوله صلى الله عليه و سلم: «بلغوا عنى و لو آية» و قيل يجوز، و الأفضل للمعلم أن يشارط الأجرة للحفظ و تعليم الكتاب، فإن شارط لتعليم القرآن أرجو أنه لا بأس به، لأن المسلمين قد توارثوا ذلك و احتاجوا له.

و أما الثالث: فيجوز في قولهم جميعاً، لأن النبي صلى الله عليه و سلم كان معلماً للخلق، و كان يقبل الهدية، و لحديث اللديغ لما رقهه بالفاتحة و جعلوا له جعلاً، و قال النبي صلى الله عليه و سلم «و اضربوا لى معكم فيها بسهم» (١).

(١) رواه البخارى في كتاب الطب من حديث ابن عباس.

مباحث في علوم القرآن، ص: ١٩٦

١١- القواعد التي يحتاج إليها المفسر

لا بد في تناول أى علم من العلوم من معرفة أسسه العامة و مميزاته الخاصة حتى يكون الطالب له على بصيرة، و بقدر ما يتمكن الإنسان من آله العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه، حيث يلج فصوله من أبوابها و قد أعطى مفاتيحها، و إذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربى مبين (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ يوسف) فإن القواعد التى يحتاج إليها المفسر فى فهم القرآن ترتكز على قواعد العربيه، و فهم أسسها، و تذوق أسلوبها، و إدراك أسرارها، و لذلك كله فصول متناثرة، و مباحث مستفيضه فى فروع العربيه و علومها، إلا أننا نستطيع أن نجمع موجزا لأهم ما يجب معرفته فى الأمور الآتية:-

١- الضمائر

للضمائر قواعد اللغويه التى استنبطها علماء اللغة، من القرآن الكريم، و من مصادر العربيه الأصليه، و من الحديث النبوى، و من كلام العرب الذين يستشهد بكلامهم نظما و نثرا، و قد ألف ابن الأنبارى «١» فى بيان الضمائر الواقعة فى القرآن مجلدين «٢»

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى، كان له عناية باللغه و بعلوم القرآن، توفى سنة ٣٢٨ هـ.

(٢) انظر الإتقان صفحته: ١٨ ج ١.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٩٧

و أصل وضع الضمير للاختصار، فهو يغنى عن ذكر ألفاظ كثيره، و يحل محلها مع سلامه المعنى و عدم التكرار، فقد قام فى قوله تعالى (أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) مقام عشرين كلمه لو أتى بها مظهره، هى المذكوره فى صدر الآيه (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥- الأحزاب) و الأصل تقديم مفسر لضمير الغائب .. و يعلل النحاء هذا الأصل بأن ضمير المتكلم و المخاطب يفسرهما المشاهده، و ضمير الغائب عار عن هذا الوجه من التفسير، فكان الأصل تقديم معاده ليعلم المراد بالضمير قبل ذكره. و لذلك قالوا يمتنع عود الضمير على متأخر لفظا و رتبه، و استثنوا من هذه القاعده مسائل يرجع فيها الضمير إلى ما استغنى عن ذكره بما يدل عليه من قرائن فى نفس اللفظ، أو أحوال أخرى تحف بمقام الخطاب «١»، قال ابن مالك فى «التسهيل»: «الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب، و لا يكون غير الأقرب إلا بدليل، و هو إما مصرح به بلفظه، أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حسا أو علما، أو بذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما» و على هذا فالمرجع الذى يعود إليه ضمير الغيبه، يكون ملفوظا به سابقا عليه مطابقا له- و هذا هو الكثير الغالب- كقوله تعالى: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ٤٢- هود) أو يكون ما سبق متضمنا له، كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ

(١) ألقى الدكتور طه حسين فى مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة اكسفورد سنة ١٣٤٧ هجرية محاضرة عنوانها «ضمير الغائب و استعماله اسم إشارة فى القرآن» نشرت مجله الرابطه الشرقيه أن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدمه لفظا و رتبه- يطابق هذا المذكور فى التذكير و التأنيث و فى الافراد و التثنيه و الجمع، و أن ما ورد على خلاف ذلك تأولوه بتكلف و اوضح هذا بأمثله من القرآن، و قد رد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين انظر: بلاغه القرآن، صفحته ٦٤ و ما بعدها.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٩٨

٨- المائدة) فإن ضمير (هو) يعود على العدل الذى يتضمنه لفظ (اعدلوا) أى أن العدل أقرب للتقوى- أو دالا عليه بالتزام كقوله (فَمَنْ عَفَىٰ لَّهُ مِنْ أَحِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ١٧٨- البقرة) فالضمير فى (إليه) يعود على العافى الذى يستلزمه (عفى) و

قد يكون المرجع متأخرا لفظا لا رتبة كقوله (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ٦٧ طه) أو لفظا و رتبة كما في باب ضمير الشأن و القصة و نعم و بئس كقوله (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١- الإخلاص) و قوله (فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ٩٧- الأنبياء) و قوله (بئس للظالمين بدلا ٥٠- الكهف) و قوله (ساء مثلا القوم ١٧٧- الأعراف)- أو متأخرا دالا عليه كقوله (فلو لا إذا بلغت الحلقوم ٨٣- الواقعة) فضمير الرفع مضمرة يدل عليه (الحلقوم)، و التقدير: فلو لا إذا بلغت الروح الحلقوم- أو مفهوما من السياق كقوله (كل من عليها فان ٢٦- الرحمن) أى على الأرض. و قوله (إننا أنزلناه في ليلة القدر ١- القدر) أى القرآن. و قوله (عبس و تولى ١- عبس) أى النبى صلى الله عليه و سلم. و قوله (أم يقولون افتراه ١٣- هود) فالواو فى (يقولون) للمشركين، و فاعل افترى للنبى صلى الله عليه و سلم، و مفعوله للقرآن. و ربما عاد الضمير على اللفظ دون المعنى كقوله (و ما يعمر من معمر و لا- ينقص من عمره إلا فى كتاب ١١- فاطر) فالضمير فى (عمره) المراد به عمر معمر آخر، قال الفراء: يريد آخر غير الأول، فكنى عنه بالضمير كأنه الأول، لأن لفظ الثانى لو ظهر كان كالأول، كأنه قال: و لا ينقص من عمر معمر، فالكنية فى عمره ترجع إلى آخر غير الأول، و مثله قولك: عندى درهم و نصفه، أى نصف آخر» (١).

و ربما عاد الضمير على المعنى فقط كقوله (يشتفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد و له أخت فلها نصف ما ترك و هو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين ١٧٦ النساء)

(١) راجع كتب التفسير فى ذلك.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ١٩٩

فالضمير فى (كانتا) لم يتقدم لفظ تثنية يعود عليه، لأن الكلالة تقع على الواحد و الاثنى و الجمع، فثنى الضمير الراجع إليها حملا على المعنى، و قوله (و أتوا النساء صيدقاتهن نحله، فإن طبن لكم عن شئ منه نفسا ٤- النساء) فالضمير فى (منه) يعود على معنى الصدقات، لأنه فى معنى الصداق، أو ما أصدق، كأنه قيل: و أتوا النساء صداقهن أو ما أصدقتموهن. و قد يؤتى بالضمير أو لا ثم يخبر عنه بما يفسره، كقوله: (إن هى إلا حياتنا الدنيا ٢٩- الأنعام). و قد يثنى الضمير و يعود على أحد المذكورين كقوله (يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان ٢٢- الرحمن) و إنما يخرج من أحدهما، و هو الملح دون العذب، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما. و بهذا قال الزجاج و غيره. و قد يعود على ملابس ما هو له كقوله (لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ٤٦- النازعات) أى ضحى يومها لا ضحى العشي، لأن العشي لا ضحى لها.

و قد يراعى فى الضمير اللفظ أولا، ثم يراعى المعنى ثانيا، كقوله (و من الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين ٨- البقرة) أفرد الضمير فى (يقول) باعتبار لفظ (من) ثم جمع فى (و ما هم) باعتبار معناه.

٢- التعريف و التنكير

للتنكير مقامات: منها: إرادة الوحدة كقوله (و جاء رجل من أقصى المدينة يسعى ٢٩- القصص) أى رجل واحد، أو إرادة النوع كقوله (و لتجدنهم أحرص الناس على حياة ٩٦- البقرة) أى نوع من الحياة، و هو طلب الزيادة فى المستقبل، لأن الحرص لا- يكون على الماضى و لا على الحاضر- أو هما معا كقوله (و الله خلق كل دابة من ماء ٤٥- النور) أى كل نوع من أنواع الدواب من أنواع الماء، و كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف- أو التعظيم كقوله (فأذنوا بحرب من الله ٢٧٩- البقرة) أى حرب عظيمة- أو التنكير كقوله

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٠٠

(أ) إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا - ٤٢- الشعراء) أى أجرا وافرا، أو هما معا كقوله (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ٤- فاطر) أى رسل عظام ذوو عدد كثير،- أو التحقير كقوله (مَنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ؟ ١٨- عبس) أى من شىء هين حقير مهين، أو التقليل كقوله (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ٧٢- براءة) أى رضوان قليل منه أكبر من الجنات لأنه رأس كل سعادة.

و أما التعريف فله مقامات تختلف باختلاف كل نوع من أنواع التعريف.

و يكون بالاضمار لأن المقام مقام المتكلم، أو الخطاب، أو الغيبة و بالعلمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم يخصه- أو لتعظيمه كقوله (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ٢٩- الفتح)، أو إهانتة كقوله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ ١- المسد)، و بالإشارة لبيان حاله فى القرب كقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ١١- لقمان) أو لبيان حاله فى البعد كقوله (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥- البقرة) أو لقصده تحقيره بالقرب كقوله (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ ٦٤- العنكبوت)، أو لقصده تعظيمه بالبعد كقوله (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ٢- البقرة) أو للتنبية على أن المشار اليه المعقب بأوصاف جدير بما يرد بعده من أجلها كقوله (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢- ٥ البقرة). و بالموصول لكراهة ذكره باسمه ستر عليه، أو غير ذلك كقوله (وَ الَّذِي قَالَ لَوِ اتَّبَعِيَ أَفْ لَكُمَا ١٧- الاحقاف) و قوله (وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ٢٣- يوسف) أو لارادة العموم كقوله (وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ٦٩- العنكبوت)، أو للاختصار كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ٦٩- الأحزاب) إذ لو عدد أسماء القائلين لطال الكلام- و بالألف و اللام للإشارة إلى معهود ذكرى، كقوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠١

٣٥- النور) أو معهود ذهنى كقوله (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ١٨- الفتح) أو معهود حضوري كقوله (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ٣- المائدة) أو لاستغراق الأفراد كقوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢- العصر) بدليل الاستثناء- أو لاستغراق خصائص الأفراد كقوله (ذَلِكَ الْكِتَابُ ٢- البقرة) أى الكتاب الكامل فى الهداية الجامع لجميع صفات الكتب المنزلة بخصائصها، أو لتعريف الماهية و الحقيقة و الجنس، كقوله (وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ٣٠- الأنبياء).

و إذا ذكر الاسم مرتين فله أربعة أحوال: لأنه إما أن يكونا معرفتين، أو نكرتين، أو الأولى نكرة و الثانية معرفة، أو بالعكس.

١- فإن كانا معرفتين فالثانى هو الأول غالبا كقوله (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ٦ و ٧ الفاتحة).

٢- و ان كانا نكرتين فالثانى غير الأول غالبا كقوله (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً ٥٤- الروم) فإن المراد بالضعف الأول النطفة، و بالثانى الطفولية، و بالثالث الشيخوخة، و قد اجتمع القسمان فى قوله تعالى (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٥ و ٦- الانشراح) و لذلك روى عن ابن عباس: لن يغلب عسر يسرين، لأن العسر الثانى أعاده بأل، فكان عين الأول، و لما كان اليسر الثانى غير الاول لم يعده بأل.

٣- و ان كان الأول نكرة، و الثانى معرفة، فالثانى هو الأول حملا على العهد. كقوله (كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ٥ و ٦- المزمل).

٤- و ان كان الاول معرفة، و الثانى نكرة، توقف المراد على القرائن، فتارة تقوم قرينه على التغاير. كقوله (وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ، يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ٥٥- الروم)، و تارة تقوم قرينه على الاتحاد، كقوله (وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠٢

لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا ٢٧، ٢٨ الزمر).

٣- الإفراد و الجمع

بعض ألفاظ القرآن يكون إفراده لمعنى خاص، و جمعه لإشارة معينة، أو يؤثر جمعه على إفراده أو العكس. فمن ذلك أننا نرى بعض الألفاظ لم يأت في القرآن إلا مجموعا، و عند الاحتياج إلى صيغته المفرد، يستعمل مرادفه كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعا كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ٢١- الزمر)، و لم يجيء في القرآن مفردة، بل جاء مكانه (القلب) كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ٣٧- ق).

و لفظة (الكوب) لم تأت مفردة و قد أتى الجمع (وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ١٤- الغاشية).

و عكس هذا النوع ألفاظ لم تأت إلا مفردة في كل موضع من مواضع القرآن. و لما أريد جمعها جمعت في صورة من الروعة ليس لها مثال، كقوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ١٢- الطلاق) و لم يقل سبحانه و سبع أرضين لما في ذلك من الخشونة و اختلال النظم.

و من ذلك لفظة (السماء) ذكرت تارة بصيغة الجمع و تارة بصيغة الإفراد، لنكت مناسبة، فحيث أريد العدد، أتى بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة و الكثرة، كقوله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ١- الحشر) و حيث أريد الجهة أتى بصيغة الإفراد كقوله (أَمْ تَتَمَنَّوْنَ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ١٦- الملك).

و من ذلك (الريح) ذكرت مجموعا و مفردة، فتذكر مجموعا في سياق الرحمة و تفرد في سياق العذاب، و ذكر في حكمه ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات و المنافع، و يقابل بعضها الآخر أحيانا. لينشأ ریح لطيفة تنفع الحيوان و النبات.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠٣

فكانت في الرحمة رياحا. و أما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد، و لا معارض لها و لا دافع، و قد أخرج ابن أبي حاتم و غيره عن أبي كعب قال: كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، و كل شيء من الريح فهو عذاب. و لهذا ورد في الحديث «اللهم اجعلها رياحا و لا تجعلها رياحا» و ما خرج عن ذلك فهو لنكتة أخرى. (١)

و من ذلك إفراد (النور) و جمع (الظلمات) و إفراد (سبيل الحق) و جمع (سبل الباطل) لأن طريق الحق واحدة، و طرق الباطل متشعبة متعددة. و لهذا وحد (ولى المؤمنين) و جمع (أولياء الكافرين) لتعدد هم كما في قوله تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ٢٥٧- البقرة) و قوله (وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ١٥٣- الأنعام).

و من ذلك (المشرق و المغرب) بالإفراد و التثنية و الجمع. فالإفراد باعتبار الجهة و الإشارة إلى ناحيتي الشرق و الغرب كقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ ٩- المزمل).

و التثنية باعتبار مطلعى و مغربى الشتاء و الصيف كقوله (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ١٧- الرحمن). و الجمع باعتبار مطلع كل يوم و مغربه، أو مطلع كل فصل و مغربه. كقوله (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَ الْمَغَارِبِ - ٤٠ المعارج). (٢)

٤- مقابلة الجمع بالجمع أو بالمفرد

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضى مقابلة كل فرد من هذا، بكل فرد من هذا، كقوله (وَ إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ ٧- نوح)

(١) فقد أفردت في قوله تعالى (وَ جَزَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ٢٢ يونس) بوجهين: لفظى، و هو المقابلة في قوله (جاءتها ريح عاصف) و

معنوى و هو أن تمام الرحمة هنا، إنما يحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فان السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد و إلا تعرضت للهلاك.

(٢) ألف أبو الحسين الأ-خفش - كتابا في الإفراد و الجمع ذكر فيه جميع ما وقع في القرآن مفردا، و مفرد ما وقع جمعا، انظر الإتقان صفحة ١٩٣ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠٤

أى استغشى كل منهم ثوبه. و قوله (وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ۚ الْبَقْرَةَ) أى كل واحدة ترضع ولدها. و تارة يقتضى ثبوت الجمع لكل فرد من افراد المحكوم عليه كقوله (وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُهْتَمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ۚ النور) أى اجلدوا كل واحد منهم ذلك العدد. و تارة يحتمل الأمرين فيحتاج إلى دليل يعين أحدهما.

أما مقابلة الجمع بالمفرد. فالغالب ألا يقتضى تعميم المفرد و قد يقتضيه كما فى قوله تعالى (وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ۚ ١٨٤- البقرة) أى على كل واحد لكل يوم طعام مسكين.

٥- ما يظن أنه مترادف و ليس من المترادف

من ذلك (الخوف و الخشية) فالخشية أعلى من الخوف. و هى أشد منه لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشبة: أى يابسة. و هو فوات بالكلية. و الخوف من قولهم ناقة خوفاء أى بها داء. و هو نقص و ليس بفوات. كما أن الخشية تكون من عظم المخشى و إن كان الخاشى قويا. فهى خوف يشوبه تعظيم. و الخوف من ضعف الخائف. و إن كان المخوف أمرا يسيرا. و مادة الخشية: الخاء و الشين و الياء، فى تصاريفها تدل على العظمة، فالشيخ: السيد الكبير. و الخيش:

الغليظ من اللباس. و لذا وردت الخشية غالبا فى حق الله تعالى. كقوله (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ ٢٨- فاطر) و قوله (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۚ ٣٩- الأحزاب) و أما قوله تعالى (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ٥٠- النحل) فقد جاء فى وصف الملائكة بعد ذكر قوتهم و شدة خلقهم، فالتعبير عنهم بالخوف لبيان أنهم و إن كانوا غلاظا شدادا فهم بين يديه تعالى ضعفاء، ثم أرفده بالفوقية الدالة على العظمة، فجمع بين الأمرين اللذين تتضمنهما الخشية دون إخلال بقوة بأسهم، و هما خوفهم من ربهم مع تعظيمه سبحانه.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٠٥

و من ذلك (الشح و البخل) فالشح أشد من البخل لأنه بخل مع حرص، و ذلك فيما يكون عادة. و من ذلك (السييل و الطريق) فالسييل أغلب وقوعا فى الخير، أما الطريق فلا- يكاد يراد به الخير إلا مقترنا بما يدل على ذلك من وصف أو إضافة كقوله (يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ٣٠- الأحقاف) قال الراغب فى مفرداته: السيل: الطريق الذى فيه سهولة فهو أخص.

و من ذلك (مد و أمد) قال الراغب: أكثر ما جاء الإمداد فى المحبوب كقوله (وَ أَمِدَدْنَا لَهُمْ بِفَاكِهَةٍ ٢٢- الطور) و المد فى المكروه كقوله (وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ٧٩- مريم).

٦- السؤال و الجواب

الأصل فى الجواب أن يكون مطابقا للسؤال، و قد يعدل فى الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك، و هو المسمى بأسلوب الحكيم، و يمثلون له بقوله تعالى (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ ١٨٩- البقرة) فقد سألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الهلال: لم يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد قليلا قليلا حتى يمتلىء، ثم لا يزال ينقص حتى

يعود كما بدأ؟ فأجيبوا ببيان حكمه ذلك تنبيها على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه.

وقد يجيء الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه كقوله تعالى (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ٦٤- الأنعام) في جواب (مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ٦٣- الأنعام).

وقد يجيء أنقص لاقتضاء الحال ذلك كقوله تعالى (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي ١٥- يونس) في جواب (أَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ) لأن التبديل أسهل من الاختراع، وقد نفى إمكانيةه فالاختراع أولى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠٦

و السؤال إذا كان لطلب معرفة تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بعن وهو أكثر كقوله (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ٨٥- الإسراء) وإذا كان لاستدعاء مال ونحوه فإنه يتعدى بنفسه أو بمن وب نفسه أكثر كقوله (وَسَيَسْأَلُونَكَ مَا أَنْفَقْتُمْ ١٠- الممتحنة) وقوله (وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ٣٢- النساء).

٧- الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الإسم يدل على الثبوت والاستمرار. والفعل يدل على التجدد والحدوث. ولكل منهما موضعه الذي لا يصلح له الآخر، فيأتي التعبير مثلا- في النفقة بالفعل كقوله (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ١٣٤- آل عمران) ولم يقل (المنفقون) ويأني التعبير في الإيمان بالاسم كقوله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ١٥- الحجرات) لأن النفقة أمر فعلى شأنه الحدوث والتجدد، بخلاف الإيمان فإنه له حقيقة تقوم بدوام مقتضاها، والمراد بالتجدد في الماضي الحصول مرة بعد أخرى، وفي المضارع أن من شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى، ومضمرة الفعل في ذلك كمظهره ولهذا قالوا: إن سلام إبراهيم عليه السلام أبلغ من سلام الملائكة في قوله تعالى (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ٢٥- الذاريات) فالنصب على أنه مصدر سد مسد الفعل، وأصله نسلم عليك سلاما، وهذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم، بخلاف رده (قال سلام) فانه معدول به إلى الرفع على الابتداء.

وخبره محذوف والمعنى: عليكم سلام. للدلالة على إثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذنا بأدب الله تعالى «١» وهو أيضا من إكرامه لهم.

٨- العطف

وهو ثلاثة أقسام:

١- عطف على اللفظ، وهو الأصل.

٢- وعطف على المحل، وجعل منه الكسائي قوله تعالى

(١) في قوله تعالى (وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ فَقُولُوا بِأَحْسَنِ مَا أَنْتُمْ بِهَا وَرُدُّوهُ ٨٦- النساء).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠٧

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ٦٩- المائدة) فجعل (الصابئون) عطفا على محل إن واسمها، ومحلها الرفع بالابتداء.

٣- وعطف على المعنى، ومنه قوله تعالى (لَوْلَا- أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنُّ ١٠- المنافقون) في قراءة غير أبي عمرو بجزم (أكن) وخرجه الخليل وسيبويه على أنه عطف على التوهم «١»، لأن معنى لولا أخرتني فأصدق ومعنى أخرني أصدق واحد، كأنه قيل: إن أخرتني أصدق وأكن، كما خرج الفارسي عليه قراءة قبيل (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ٩٠- يوسف) بسكون الراء، لأن من الموصولة فيها معنى الشرط.

و اختلف في جواز عطف الخبر على الإنشاء و عكسه، فمنعه الأ-كثرون، و أجازته جماعة مستدلين بقوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ١٣- الصف) عطف على (تؤمنون) في الآية (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ١٠، ١١- الصف) و خرجه الآخرون على ان (تؤمنون) بمعنى آمنوا، فهو خبر بمعنى الإنشاء، فصح عطف الإنشاء عليه. (و بَشِّرِ) كأنه قيل: آمنوا و جاهدوا يثبتكم الله و ينصركم. و بَشِّرِ يا رسول الله المؤمنين بذلك. و فائدة التعبير بالخبر في موضع الأمر الإيدان بوجوب الامتثال، أى كأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان و جهاد موجودين.

و اختلف أيضا في جواز العطف على معمولي عاملين، و استدل المجيرون بقوله تعالى (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَ فِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْبَاهِ بِهِنَّ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْدِيرِ الْرياحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣: ٥- الجاثية) فقوله (وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) من العطف على معمولي عاملين

(١) هذه العبارة هي التي حكاها سيوييه عن الخليل، و هي المنقولة في كتب التفسير: إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، و لفظ «التوهم» غير لائق في تفسير القرآن و الأولى أن يقال:

عطف على المعنى. كما هو صريح العبارة بعد

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠٨

سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت: (إن) و (في) اقيمت الواو مقامهما، فعملت الواو الجر في (اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) و النصب في (آيات) و إذا رفعت فالعاملان (الابتداء) و (في) عملت الواو الرفع في (آيات) و الجر في (اختلاف) ذكر هذا الزمخشري. «١»

و اختلف أيضا في جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، و خرج عليه المجيزون قراءة حمزة (وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ١- النساء) يجر الأرحام عطفًا على الضمير، و جعلوا منه قوله تعالى (وَ صَدِّدْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفِّرْ بِهِ وَ الْمَسِيحَ الَّذِي حَرَّمَ ٢١٧- البقرة) على ان (المسجد) معطوف على ضمير (به).

الفرق بين الإيتاء و الإعطاء

إشارة

و هناك فرق بين الإيتاء و الإعطاء في القرآن، قال الجويني «٢»: «إن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأن الإعطاء له مطاوع، يقال:

أعطاني فعطوت، و لا يقال في الإيتاء: آتاني فأيتيت، و إنما يقال: آتاني فأخذت، و الفعل الذي له مطاوع أضعف، في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له، لأنك تقول: قطعته فانقطع، فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفا على قبول المحل، لولاه لما ثبت المفعول، و لهذا يصح قطعته فما انقطع، و لا- يصح فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز أن يقال: ضربته فانضرب أو ما انضرب، و لا قتلته فانقتل أو ما انقتل، لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها

(١) انظر تفسير الآية في «الكشاف» للزمخشري.

(٢) انظر «البرهان» للزركشي صفحة ٨٥ ج ٤.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٠٩

المفعول في المحل، و الفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها، فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء». و لهذا شواهد، فقد قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا - ٢٦٩- البقرة) لأن الحكمة إذا ثبتت في المحل دامت، و هي عظيمه الشأن، و قال: (آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٨٧- الحجر) و قال: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثُرَ - ١ الكوثر) لأن بعد الكوثر منازل أعلى، حيث يكون الانتقال إلى ما هو أعظم منه في الجنة، و قال: (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٢٩- التوبة) لأن الجزية موقوفه على قبول منا، و هم لا يؤتونها إيتاء عن طيب قلب. و إنما عن كره، و قد عبر بالإيتاء في جانب المسلمين بالنسبة إلى الزكاة، و في ذلك! إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون إعطاؤه للزكاة بقوة، لا يكون كاعطاء الجزية.

لفظ «فعل»

يجيء لفظ «فعل» كناية عن أفعال متعددة لا للدلالة على فعل واحد. فيفيد بهذا الاختصار، كقوله تعالى (لَبَسَسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٧٩- المائدة) فإنها تشمل كل منكر لا يتناهون عنه، و قوله (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا - ٢٤- البقرة) أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله و لن تأتوا بسورة من مثله. و حيث أطلقت في كلام الله فهي محمولة على الوعيد الشديد كقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ١- الفيل) و قوله: (وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ٤٥- إبراهيم).

لفظ «كان» «ا»

وردت «كان» في الإخبار عن ذات الله و صفاته بالقرآن كثيرا و قد اختلف النحاة و غيرهم في أنها تدل على الانقطاع، على مذاهب:

(١) انظر «البرهان» صفحة ١٢١- ج ٤.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٠

أحدها: أنها تفيد الانقطاع لأنها فعل يشعر بالتجدد.

و الثانى: لا تفيده، بل تقتضى الدوام و الاستمرار، و به جزم ابن معط «ا» فى ألفيته، حيث قال:

«و كان للماضى الذى ما انقطعاً»

و قال الراغب فى قوله تعالى: (وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ٢٧- الإسراء) نبه بقوله: «كان» على أنه لم يزل منذ أوجد منظويا على الكفر.

و الثالث: أنه عبارة عن وجود شىء فى زمان ماض على سبيل الإبهام.

و ليس فيه دليل على عدم سابق، و لا على انقطاع طارئ، و منه قوله تعالى:

(وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٠- الأحزاب) قاله الزمخشري فى قوله تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ١١٠- آل عمران) عند تفسيره

للآية فى «الكشاف».

و ذكر ابن عطية فى سورة الفتح أنها حيث وقعت فى صفات الله فهى مسلوبة الدلالة على الزمان.

و الصواب من هذه المقالات مقالة الزمخشري، و أنها تفيد اقتران معنى الجملة التى تليها بالزمن الماضى لا غير، و لا دلالة لها نفسها على انقطاع ذلك المعنى و لا بقاءه، بل إن أفاد الكلام شيئا من ذلك كان لدليل آخر.

و على هذا يحمل معناها فيما وقع في القرآن من إخبار الله تعالى عن صفاته و غيرها بلفظ «كان» كثيرا، مثل قوله تعالى: (وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨- النساء) (وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ١٣٠- النساء) (وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩- الأحزاب) (وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ٨١- الأنبياء) (وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ٧٨- الأنبياء).

(١) هو الشيخ زين الدين يحيى بن عبد المعطى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ سماها: «الدرة الأليفة» و أولها:
يقول راجى ربه الغفور يحيى بن معط بن عبد النور و إليها أشار ابن مالك بقوله: فائقة أليفة ابن معطى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١١

و حيث أخبر الله بها عن صفات الآدميين فالمراد التنبيه على أنها فيهم غريزة و طبيعته مركوزة فى النفس كقوله تعالى: (وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١- الإسراء) و قوله (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢- الأحزاب).

و قد تتبع أبو بكر الرازى استعمال «كان» فى القرآن، و استنبط وجوه استعمالها فقال: «كان» فى القرآن على خمسة أوجه:
بمعنى الأزل و الأبد، كقوله تعالى: (وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠- النساء).

و بمعنى المعنى المنقطع، كقوله تعالى: (وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ٤٨- النمل) و هو الأصل فى معانى «كان» كما تقول: كان زيد صالحا أو فقيرا أو مريضا أو نحوه.

و بمعنى الحال، كقوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ١١٠- آل عمران) و قوله: (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ١٠٣- النساء) و بمعنى الاستقبال، كقوله تعالى: (وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٧- الدهر) و بمعنى «صار» كقوله: (وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٣٤- البقرة) (١).

و تأتى «كان» فى النفى و يكون المراد بها نفى صحة الخبر لا نفى وقوعه، و لذا تؤول بمعنى «ما صحح و ما استقام» كقوله تعالى (ما كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسِيرٌ حَتَّى يُبَيِّنَ فِي الْمَأْرُضِ ٦٧- الأنفال) و قوله: (ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ١٧- التوبة) و قوله: (وَ لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ١٦- النور).

لفظ «كاد»

و للعلماء فى «كاد» مذاهب:

أحدها: أنها كسائر الأفعال نفيا و إثباتا. فإثباتها إثبات و نفيها نفى، لأن

(١) «البرهان» للزركشى صفحة ١٢٧ ج ٤.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢١٢

معناها المقاربة، فمعنى كاد يفعل: قارب الفعل، و معنى ما كاد يفعل: لم يقاربه، فحبرها منفى دائما، و لكن النفى فى الإثبات مستفاد من معناها، لأن الإخبار بقرب الشيء يقتضى عرفا عدم حصوله، و إلا لم يتجه الإخبار بقربه.

أما إذا كانت منفية فلانه إذا انتفت مقاربة الفعل اقتضى عقلا عدم حصوله، و يدل له قوله تعالى (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا ٤٠- النور) و لهذا كان أبلغ من قوله «لم يرها» لأن من لم ير قد يقارب الرؤية.

و الثانى: أنها تختلف عن سائر الأفعال إثباتا و نفيا، فإثباتها نفى، و نفيها إثبات، و لذا قالوا: إنها إذا أثبتت نفت، و إذا نفت أثبتت، فإذا قيل:

كاد يفعل، فمعناه أنه لم يفعله بدليل قوله تعالى (وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ٧٣- الإسراء) لأنهم لم يفتنوه، و إذا قيل: لم يكذب يفعل، فمعناه

أنه فعله بدليل قوله تعالى: (فَذَبِّحُوا مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ٧١- البقرة) لأنهم فعلوا الذبح.

و الثالث: أنها في النفي تدل على وقوع الفعل بعسر و شدة كقوله:

(فَذَبِّحُوا مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ).

و الرابع: التفصيل في النفي بين المضارع و الماضي، فنفي المضارع نفي، و نفي الماضي إثبات، يدل على الأول قوله: (لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا)

مع أنه لم ير شيئاً، و يدل على الثاني قوله (فَذَبِّحُوا مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) مع أنهم فعلوا.

و الخامس: أنها في النفي تكون للإثبات إذا كان ما بعدها متصلاً بما قبلها و متعلقاً به، كقولك: ما كدت أصل إلى مكة حتى طفت

باليبيت الحرام، و منه قوله تعالى: (فَذَبِّحُوا مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ).

لفظ «جعل»

تأتي «جعل» في القرآن لعدة معان:

أحدها: بمعنى «سمى» كقوله تعالى: (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩١- الحجر) أى سموه كذباً، و قوله: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ

عِبَادٌ الرَّحْمَنِ إِنثًا ١٩- الزخرف) على قول، و يشهد له قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٣

لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيْسُمُؤْنِ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ٢٧- النجم).

الثاني: بمعنى «أوجد» و تتعدى إلى مفعول واحد، و الفرق بينها و بين الخلق، أن الخلق فيه معنى التقدير، و يكون عن عدم سابق حيث

لا يتقدم مادة و لا- سبب محسوس، بخلاف الجعل بمعنى الإيجاد، قال تعالى (الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ

الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ١- الأنعام) و إنما الظلمات و النور تنشأ عن أجرام توجد بوجودها، و تعدم بعدمها.

الثالث: بمعنى النقل من حال إلى حال و التصيير، فتتعدى إلى مفعولين:

إما حساً كقوله تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ٢٢- البقرة) و إما عقلاً كقوله: (أَجْعَلِ اللَّهُ إِلَهًُا وَاحِدًا ٥- ص).

الرابع: بمعنى الاعتقاد، كقوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ١٠٠- الأنعام).

الخامس: بمعنى الحكم بالشىء على الشىء، حقا كان أو باطلا، فالحق، كقوله تعالى: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧-

القصص) و الباطل، كقوله (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ١٣٦- الأنعام).

«لعل» و «عسى»

تستعمل «لعل» و «عسى» للرجاء و الطمع في كلام المخلوقين حيث يشك الخلق في الأمور الممكنة و لا يقطعون على الكائن منها، أما

بالنسبة إلى الله تعالى:

ا- فقيل: هما يدلان على الحصول و الوجوب، لأن نسبة الأمور إلى الله نسبة قطع و يقين.

ب- و قيل إنهما للترجي على باهما، و لكن الترجي يكون بالنسبة إلى المخاطبين.

ج- و قيل: إن «لعل» في كثير من المواضع تكون للتعليل.

قال تعالى (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ٧٩- الإسراء) و قال سبحانه (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠٠- المائدة).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٤

١٢- الفرق بين المحكم و المتشابه «ا»

إشارة

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فرسم للخلق العقيدة السليمة و المبادئ القويمه في آيات بينات واضحة المعالم، و ذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم و يتبين لهم الصراط المستقيم، و تلك الآيات هي أم الكتاب التي لا يقع الاختلاف في فهمها سلامة لوحده الأمة الإسلامية و صيانته لكيانها (كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣- فصلت).

و قد تأتي هذه الأصول الدينية في أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ و العبارة و الأسلوب إلا أن معناها يكون واحداً، فيشبه بعضها الآخر و يوافقه معنى دون تناقض، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن في آياتها من العموم و الاشتباه ما يفسح المجال أمام المجتهدين الراسخين في العلم، حتى يردوها إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول، و الجزئيات على الكليات- و إن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى- و بهذا الأحكام في الأصول و العموم في الفروع كان الاسلام دين الإنسانية الخالد الذي يكفل لها خير الدنيا و الآخرة على مر العصور و الأزمان.

(١) راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية عن المحكم و المتشابه و التأويل في التدمرية و غيرها من رسائله. مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٥

الإحكام العام و التشابه العام

المحكم لغة: مأخوذ من حكمت الدابة و أحكمت: بمعنى منعت، و الحكم: هو الفصل بين الشئين، فالحاكم يمنع الظالم و يفصل بين الخصمين، و يميز بين الحق و الباطل، و الصدق و الكذب، و يقال: حكمت السفية و أحكمتها: إذا أخذت على يديه، و حكمت الدابة و أحكمتها: إذا جعلت لها حكمه: و هي ما أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب، و منه الحكمة: لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق، و إحكام الشئ: اتقانه، و المحكم: المتقن.

فإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، و الرشد من الغي في أوامره: و المحكم منه: ما كان كذلك. و قد وصف الله القرآن كله بأنه محكم على هذا المعنى فقال (الر، كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١، ٢- هود) قال (الر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ١، ٢- يونس) فالقرآن كله محكم: أي أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق و الباطل و الصدق و الكذب. و هذا هو الاحكام العام.

و المتشابه لغة: مأخوذ من التشابه: و هو ان يشبه أحد الشئين الآخر، و الشبهة: هي ألا يتميز أحد الشئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينا كان أو معنى، قال تعالى (وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ٢٥- البقرة) أي يشبه بعضه بعضاً لونا لا طعماً و حقيقة، و قيل متماثلاً في الكلام و الجودة.

و تشابه الكلام: هو تماثله و تناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً، و قد وصف الله القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ٢٣- الزمر) فالقرآن كله متشابه: أي انه يشبه بعضه بعضاً في الكمال و الجودة، و يصدق بعضه بعضاً في المعنى و يماثله. و هذا هو التشابه العام.

و كل من المحكم و المتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافي الآخر، فالقرآن

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٦

كله محكم بمعنى الاتقان، و هو مماثل يصدق بعضه بعضا، فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه و إن اختلفت ألفاظه، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر، و إنما يأمر به أو بنظيره، و كذلك الشأن في نواحيه و أخباره. فلا تضاد فيه و لا اختلاف (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ٨٢- النساء).

الإحكام الخاص و التشابه الخاص

و هناك إحكام خاص و تشابه خاص ذكرهما الله في قوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرٌ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ٧- آل عمران) و في معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها: أ- المحكم: ما عرف المراد منه- و المتشابه: ما استأثر الله بعلمه.

ب- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهها واحدا- و المتشابه: ما احتمل أوجها.

ج- المحكم: ما استقل بنفسه و لم يحتاج إلى بيان- و المتشابه: ما لا يستقل بنفسه و احتاج إلى بيان برده إلى غيره.

و يمثلون للمحكم في القرآن بناسخه و حاله و حرامه و حدوده و فرائضه و وعده و وعيده، و للمتشابه: بمنسوخه و كيفيات أسماء الله و صفاته التي في قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥- طه) و قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ٨٨- القصص) و قوله (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ١٠- الفتح) و قوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ١٨- الأنعام) و قوله (وَجَاءَ رَبُّكَ ٢٢- الفجر) و قوله (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ٦- الفتح) و قوله (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٨- البينة) و قوله (فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ٣١- آل عمران) إلى غير ذلك، و أوائل السور المفتحة بحروف المعجم و حقائق اليوم الآخر و علم الساعة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٧

الاختلاف في معرفة المتشابه

و كما وقع الاختلاف في معنى كل من المحكم و المتشابه الخاصين وقع الاختلاف في إمكان معرفة المتشابه، و منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قوله تعالى (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) هل هو مبتدأ خبره (يقولون) و الواو للاستئناف، و الوقف على قوله (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ)؟ أو هو معطوف (و يقولون) حال، و الوقف على قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ).

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبي بن كعب و ابن مسعود و ابن عباس و غيرهم من الصحابة و التابعين و من بعدهم، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ «و ما يعلم تأويله إلا الله و يقول الراسخون في العلم آمنا به».

و بقراءة ابن مسعود «و إن تأويله إلا عند الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا به».

و بما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه و وصفهم بالزيع و ابتغاء الفتنة.

و عن عائشة قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه و سلم هذه الآية (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ- إلى قوله تعالى- (أُولُوا الْأَلْبَابِ) قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم» (١) و ذهب إلى الرأي الثاني (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد، فقد روى عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند

كل آية و أسأله عن تفسيرها. و اختار هذا القول النووي، فقال في شرح مسلم:

إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

(١) أخرجه البخارى و مسلم وغيرهما.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٨

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل

بالرجوع إلى معنى (التأويل) يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين، فان لفظ التأويل ورد لثلاثة معان:

(الأول) صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترب به، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين.

(الثانى) التأويل بمعنى التفسير، فهو الكلام الذى يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه. مباحث في علوم القرآن ٢١٨ التوفيق بين الرأيين بفهم

معنى التأويل ص : ٢١٨

(الثالث) التأويل: هو الحقيقة التى يؤول إليها الكلام، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة و ما لها من حقائق الصفات، و تأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون فى اليوم الآخر. و على هذا المعنى جاء قول عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه و سجوده:

«سبحانك اللهم ربنا و بحمدك، اللهم اغفر لى» يتأول القرآن. تعنى قوله تعالى (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٣- النصر (١)).

فالذين يقولون بالوقف على قوله (وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) و يجعلون (وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) استثناء، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث، أى الحقيقة التى يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله و كنهها و كيفية أسمائه و صفاته و حقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله.

و الذين يقولون بالوقف على قوله (وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) على أن الواو للعطف و ليست للاستثناء، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثانى أى التفسير، و مجاهد إمام المفسرين، قال الثورى فيه: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فاذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره.

(١) رواه البخارى و مسلم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢١٩

و بهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين فى النهاية، و إنما الأمر يرجع إلى الاختلاف فى معنى التأويل.

ففى القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه فى الدنيا، و لكن الحقيقة ليست كالحقيقة، فأسماء الله و صفاته و إن كان بينها و بين أسماء العباد و صفاتهم تشابه فى اللفظ و المعنى الكلى إلا أن حقيقة الخالق و صفاته ليست كحقيقة المخلوق و صفاته، و العلماء المحققون يفهمون معانيها و يميزون الفرق بينها، و أما نفس الحقيقة فهى من التأويل الذى لا يعلمه الا الله. و لهذا لما سئل مالك و غيره من السلف عن قوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) قالوا: «الاستواء معلوم، و الكيف مجهول، و الايمان به واجب، و السؤال عنه بدعة» و كذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك قبله: «الاستواء معلوم، و الكيف مجهول، و من الله البيان، و على الرسول البلاغ، و علينا الايمان» فبين أن الاستواء معلوم، و أن كيفية ذلك مجهولة.

و كذلك الشأن بالنسبة إلى أخبار الله عن اليوم الآخر، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة. ففى الآخرة ميزان، و جنه نار. و فى الجنة (أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ١٥- محمد). (فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ، وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَ زُرَابٌ مَبْثُوثَةٌ ١٣: ١٦- الغاشية). .. و ذلك نعلمه و نؤمن به، و ندرك أن الغائب أعظم من الشاهد، و ما فى الآخرة يمتاز عما فى الدنيا، و لكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا، و هى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله.

التأويل المذموم

و التأويل المذموم بمعنى: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، إنما لجأ إليه كثير من المتأخرين مبالغاً منهم في تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون. وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٠

هربوا منه أو أشد، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلاً إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يداً لأن للمخلوقين يداً فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة. وذلك تناقض منهم. لأنهم يلزمهم في المعنى الذي أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم في المعنى الذي نفوه، لأن العباد لهم قدرة أيضاً. فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقاً ممكناً كان إثبات اليد لله حقاً ممكناً أيضاً، وإن كان إثبات اليد باطلاً ممتنعاً لما يلزمه من التشبيه في زعمهم كان إثبات القدرة باطلاً ممتنعاً كذلك. فلا يجوز أن يقال: إن هذا اللفظ مؤول بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح.

و ما جاء عن أئمة السلف وغيرهم من ذم للمتأولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين تأولوا ما يشبه عليهم معناه على غير تأويله وإن كان لا يشبهه على غيرهم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢١

– ١٣ – العام والخاص

إشارة

لتنظيم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليها، وقد يجتمع للحكم التشريعي خصائص تجعله عاماً يشمل كل الأفراد، أو ينطبق على جميع الحالات، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتي ما يبين حده أو يحصر نطاقه، و البيان العربي في تلوين الخطاب و بيان المقاصد و الغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة و اتساع مادتها. فإذا ورد هذا في كلام الله المعجز كان وقعه في النفس عنوان إعجاز تشريعي مع الإعجاز اللغوي.

تعريف العام و صيغ العموم

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر «١» و قد اختلف العلماء في معنى العموم، أنه في اللغة صيغة موضوعاً له خاصة به تدل عليه أم لا؟

فذهب أكثر العلماء إلى أن هناك صيغاً وضعت في اللغة للدلالة حقيقة على

(١) انتقد الآمدي هذا التعريف - و لم أجد تعريفاً أتم منه، كما انتقد تعريف الخاص الذي سيأتي - انظر «الإحكام في أصول الأحكام» - صفحة ١٨١ ج ٢ ط الحلبي.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٢

العموم، و تستعمل مجازاً فيما عداه، و استدلوا على ذلك بأدلة نصية، و إجماعية و معنوية.

١- فمن الأدلة النصية قوله تعالى (و نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ٤٥، ٤٦- هود) و وجه الدلالة أن نوحاً عليه السلام توجه بهذا النداء تمسكاً منه بقوله تعالى: (إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ ٣٣- العنكبوت) و أقره الله تعالى على هذا النداء، و أجابه بما دل على أنه ليس من أهله، و لو لا أن إضافة الأهل إلى نوح للعموم لما

صح ذلك.

و منها قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ، قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ٣١، ٣٢، العنكبوت) و وجه الدلالة أن إبراهيم فهم من قول الملائكة (أهل هذه القرية) العموم، حيث ذكر «لوطا» فأقره الملائكة على ذلك، و أجابوه بتخصيص لوط و أهله بالاستثناء، و استثناء امرأته من الناجين، و ذلك كله يدل على العموم.

ب- و من الأدلة الإجماعية إجماع الصحابة على إجراء قوله تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ٢- النور) «١» و قوله (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ٣٨- المائدة) «٢» و نحو ذلك على العموم في كل زان و سارق.

ج- و من الأدلة المعنوية، أن العموم يفهم من استعمال ألفاظه، و لو لم تكن هذه الألفاظ موضوعة له لما تبادر إلى الذهن فهمه منها، كألفاظ الشرط و الاستفهام و الموصول.

و أننا ندرك الفرق بين «كل» و «بعض» و لو كان «كل» غير مفيد للعموم لما تحقق الفرق.

(١) تخصيص الآية بغير المحصن جاء بأدلة مخصصة هي التي وردت في رجم المحصن الحر.

(٢) تخصيص الآية باعتبار الحرز و مقدار المسروق جاء بأدلة مخصصة كذلك.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٣

و لو قال قائل في النكرة المنفية «لا رجل في الدار» فإنه يعد كاذبا إذا قدر أنه رأى رجلا ما، كما ورد قوله تعالى: (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى بِتُورٍ كَذِبًا لِمَنْ قَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ٩١- الأنعام) و هذا يدل على أن النكرة بعد النفي للعموم، و لو لم تكن للعموم لما كان قولنا «لا إله إلا الله» توحيدا لعدم دلالة على نفي كل إله سوى الله تعالى «١».

و بناء على هذا فالعموم صيغته التي تدل عليه.

منها «كل» كقوله تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ١٨٥- آل عمران) و قوله (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ١٠٢- الأنعام) و مثلها جميع.

و منها: المعروف بأل التي ليست للعهد كقوله (وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ١، ٢- العصر) أى كل إنسان، بدليل قوله بعد (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ٣- العصر) و قوله (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ ٢٧٥- البقرة) و قوله (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ٣٨- المائدة).

و منها: النكرة في سياق النفي و النهي كقوله (فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ ١٩٧- البقرة) و قوله (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ٢٣- الإسراء) أو في سياق الشرط كقوله (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ٦- براءة).

و منها: الذي و التي و فروعهما كقوله (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ١٧- الأحقاف). أى كل من قال ذلك بدليل قوله بعد بصيغته الجمع (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ١٨- الأحقاف) و قوله (وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأُذَوْهُمَا ١٦- النساء) و قوله (وَاللَّائِي يَشْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ٤- الطلاق).

(١) أغفلنا آراء الآخرين فلم نذكرها حيث لا نرى حاجة إليها.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٤

و أسماء الشرط كقوله تعالى (فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ١٥٨- البقرة) للعموم في العاقل، و قوله (وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَغْلُمُهُ اللَّهُ ١٩٧- البقرة) للعموم في غير العاقل، و قوله (وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ١٥٠- البقرة) للعموم في المكان، و قوله (أَيُّ مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ١١٠- الإسراء).

و منها: اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ٦٣- النور) أى كل أمر لله، و قوله (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي

أَوْلَادِكُمْ (١١- النساء).

أقسام العام

و العام على ثلاثة أقسام:

الأول: الباقي على عمومته، وقد قال القاضي جلال الدين البلقيني «١»:

«و مثاله عزيز، إذ ما من عام إلا و يتخيل فيه التخصيص، و ذكر الزركشى في «البرهان» أنه كثير في القرآن. و أورد منه قوله تعالى (وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٧٦- النساء) و قوله (وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩- الكهف) و قوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ٢٣- النساء) فإنه لا خصوص فيها.

الثاني: العام المراد به الخصوص - كقوله تعالى (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ١٧٣- آل عمران) فالمراد بالناس الأولى نعيم ابن مسعود، و المراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم في كل منهما، يدل على هذا قوله تعالى بعد (إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ) فوقعت الإشارة بقوله (ذلكم) إلى واحد بعينه، و لو كان المعنى به جمعا لقال (إنما أولئككم الشيطان) و كقوله تعالى (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ٣٩- آل عمران) و المنادى جبرائيل كما في قراءة ابن مسعود و قوله (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ١٩٩- البقرة) و المراد بالناس إبراهيم، أو سائر العرب غير قريس.

(١) هو عبد الرحمن بن رسلان، أبو الفضل جلال الدين البلقيني، كان عالما بارعا في الفقه و التفسير و أصول العربية، و له تعليق على البخارى سماه: «الإفهام لما في صحيح البخارى من الإبهام» تولى القضاء في مصر، و توفي سنة ٨٢٤ هـ و انظر الإتيقان، صفحة ١٦ ج ٢. مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٥

الثالث: العام المخصوص - و أمثله في القرآن كثيرة جدا و ستأتى. و منه قوله تعالى (وَ كَلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ١٨٧- البقرة) و قوله (وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ٩٧- آل عمران).

الفرق بين العام المراد به الخصوصي و العام المخصوص

الفرق بين العام المراد به الخصوص و العام المخصوص من وجوه، أهمها: -١- أن العام المراد به الخصوص لا- يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر، لا من جهة تناول اللفظ، و لا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد استعمل في فرد واحد منها أو أكثر. أما العام المخصوص فأريد عمومته و شموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم، فالناس في قوله (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ) و إن كان عاما إلا أنه لم يرد به لفظا و حكما سوى فرد واحد، أما لفظ الناس في قوله (وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) فهو عام أريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد. و إن كان حكم و جوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة.

٢- و الأول مجاز قطعاً، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي و استعماله في بعض أفراد، بخلاف الثاني فالأصح فيه أنه حقيقة، و عليه أكثر الشافعية، و كثير من الحنفية، و جميع الحنابلة، و نقله إمام الحرمين «١» عن جميع الفقهاء، و قال الشيخ أبو حامد الغزالي: إنه مذهب الشافعي و أصحابه، و صححه السبكي، لأن تناول اللفظ للبعض الباقي بعد التخصيص كناوله له بلا تخصيص، و ذلك تناول حقيقي اتفاقاً، فليكن هذا تناول حقيقياً أيضاً.

٣- و قرينه الأول عقليه غالباً و لا تنفك عنه، و قرينه الثاني لفظية و قد تنفك

(١) امام الحرمين، هو عبد الملك بن أبي عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني الشافعي العراقي، أبو المعالي، كان شيخ الإمام الغزالي، و من أعلم أصحاب الشافعي، توفي سنة ٤٧٨ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٦

تعريف الخاص و بيان المخصص

و الخاص: يقابل العام، فهو الذي لا- يستغرق الصالح له من غير حصر و التخصيص: هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام، و المخصص: إما متصل:

و هو الذي لم يفصل فيه بين العام و المخصص له بفصل، و إما منفصل: و هو بخلافه، و المتصل خمسة: أحدها: الاستثناء، كقوله تعالى (وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَخْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ٤، ٥- النور) و قوله (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَشْعُرُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ٣٣- ٣٤- المائدة).

الثاني: الصفة: كقوله تعالى (وَ رَبَائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ٢٣- النساء) فقوله (اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) صفة لنسائكم، و المعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها.

الثالث: الشرط: كقوله (كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٨٠- البقرة) فقوله (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) أى مالا، شرط فى الوصية، و قوله (وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ٣٣- النور) أى قدرة على الأداء، أو أمانه و كسبا.

الرابع: الغاية: كقوله (وَ لَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ١٩٦- البقرة) و قوله (وَ لَا تَقْرَبُوا نِسَاءَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ٣٣- النور) أى قدرة على الأداء، أو أمانه و كسبا.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٧

الخامس: بدل البعض من الكل: كقوله تعالى (وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنَ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا ٩٧- آل عمران) فقوله (مَنِ اسْتَطَاعَ) بدل من الناس، فيكون وجوب الحج خاصا بالمستطيع.

و المخصص المنفصل: ما كان فى موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس. فما خص بالقرآن كقوله تعالى (وَ الْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ٢٢٨- البقرة) فهو عام فى كل مطلقة حاملا كانت أو غير حامل، مدخولا بها أو غير مدخول بها، خص بقوله (وَ أَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ٤- الطلاق) و بقوله (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ٤٩- الأحزاب).

و ما خص بالحديث كقوله تعالى (وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا ٢٧٥- البقرة) خص من البيع الفاسدة التى ذكرت فى الحديث، كما فى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال «نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن عسب الفحل» و فى الصحيحين عن ابن عمر: «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم نهى عن بيع حبل الحبلة» و كان يباعا بتباعه الجاهلية، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التى فى بطنها»- و اللفظ للبخارى، إلى غير ذلك من الأحاديث.

و رخص من الربا العرايا الثابتة بالسنة فإنها مباحة، فعن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه و سلم رخص فى بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو فى خمسة أوسق». (١)

و ما خص بالإجماع آية الموارث (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْأُنثِيَيْنِ ١١- النساء) خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث.

و ما خص بالقياس آية الزنا (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۚ وَالنُّورِ) خص منها العبد بالقياس على الأمة التي نص على تخصيصها عموم الآية في قوله تعالى (فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ٢٥- النساء).

(١) متفق عليه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٨

تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخص القرآن السنة، ويمثلون لذلك بما روى عن ابي واقد الليثي رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت» (١) فهذا الحديث خص بقوله تعالى (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ٨٠- النحل).

صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقي

اختلف العلماء في صحة الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه فيما بقي، والمختار عند المحققين صحة الاحتجاج به فيما وراء صور التخصيص، (٢) واستدلوا على ذلك بأدلة إجماعية، وأدلة عقلية.

١- فمن أدلة الإجماع: أن فاطمة رضى الله عنها احتجت على أبي بكر رضى الله عنه في ميراثها من أبيها بعموم قوله تعالى: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ خَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ١١- النساء) مع أنه مخصص بالكافر والقاتل، ولم ينكر أحد من الصحابة صحة احتجاجها مع ظهوره وشهرته، فكان إجماعاً على صحة احتجاجها، ولذا عدل أبو بكر رضى الله عنه في حرمانها إلى الاحتجاج بقوله صلى الله عليه وسلم «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» (٣).

ب- ومن الأدلة العقلية: أن العام قبل التخصيص حجة في كل واحد من أقسامه إجماعاً، والأصل بقاء ما كان قبل التخصيص بعده، إلا أن يوجد له معارض، وليس هناك معارض فيما وراء صور التخصيص، فيظل العام بعد التخصيص حجة فيما بقي.

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي وحسنه واللفظ له.

(٢) أنكر الاحتجاج به عيسى بن أبان وأبو ثور مطلقاً، وقال البلخي: إن خص بدليل متصل كالشرط والصفة والاستثناء فهو حجة، وإن خص بدليل منفصل فليس بحجة- انظر الآمدى ص ٢١٣ ج ٢.

(٣) الحديث في الصحيحين وغيرهما.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٢٩

ما يشمله الخطاب

اختلف في الخطاب الخاص بالرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ١- الأحزاب) وقوله (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ٤١- المائدة) هل يشمل الأمة أم لا يشملها؟

أ- فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها.

ب- وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها.

واختلفوا أيضاً في الخطاب من الله تعالى بيا أيها الناس كقوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ١- النساء) هل

يشمل الرسول أم لا؟ و الصحيح في ذلك انه يشمله لعمومه و إن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليلغ غيره. و قد فصل بعضهم فقال: إن اقترن الخطاب بقل لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ١٥٨- الأعراف) و إلا شمله.

و ما ورد من الخطاب مضافا إلى الناس أو المؤمنين كقوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ١٣- الحجرات) و قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ٩٠- المائدة).

فالمختار في الأول انه يشمل الكافر و العبد و الأنتى.

و المختار في الثانى انه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع، و خروج العبد عن بعض الاحكام كوجوب الحج و الجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره و اشتغاله بخدمة سيده.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٠

و متى اجتمع المذكر و المؤنث غلب التذكير. و اكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير، و النساء يدخلن في جملة. و قد يأتي ذكرهن بلفظ مفرد تبيينا و إيضاحا. و هذا لا يمنع دخولهن في اللفظ العام الصالح لهن، كما جاء في قوله تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ١٢٤- النساء).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣١

١٤- النسخ و المنسوخ

إشارة

تنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس فى العقيدة و العبادة و المعاملة. و حيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية و الربوبية فقد اتفقت دعوة الرسل جميعا إليها (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ٢٥- الأنبياء)- أما العبادات و المعاملات فإنها تتفق فى الأسس العامة التى تهدف إلى تهذيب النفس و المحافظة على سلامة المجتمع و ربطه برباط التعاون و الإخاء، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها، و ما يلائم قوما فى عصر قد لا يلائمهم فى آخر، و مسلك الدعوة فى طور النشأة و التأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين و البناء، فحكمه التشريع فى هذه غيرها فى تلك، و لا شك أن المشرع سبحانه و تعالى يسع كل شىء رحمة و علما، و لله الأمر و النهى (لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ ٢٣- الأنبياء) فلا غرابة فى أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول و الآخر. (١)

(١) أفردته بالتصنيف خلايق لا يحصون: منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، و أبو داود السجستاني، و أبو جعفر النحاس، و ابن الأنبارى، و مكى، و ابن العربى، و آخرون، انظر الإتيان صفحة ٢٠ ج ٢. و من المعاصرين: الدكتور مصطفى زيد «النسخ فى القرآن».

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٢

تعريف النسخ و شروطه

و النسخ لغة: يطلق بمعنى الإزالة، و منه يقال: نسخت الشمس الظل:

أى أزالته. و نسخت الريح أثر المشى- و يطلق بمعنى نقل الشىء من موضع إلى موضع، و منه نسخت الكتاب: إذا نقلت ما فيه. و فى

القرآن (إِنَّا كُنَّا نَسْتَسِيخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩- الجاثية) و المراد به نقل الأعمال إلى الصحف.

و النسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي - فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية، و خرج بقولنا: بخطاب شرعي: رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس.

و يطلق الناسخ على الله تعالى كقوله (ما نَسِيخُ مِنْ آيَةٍ ١٠٦- البقرة) و على الآية و ما يعرف به النسخ، فيقال: هذه الآية ناسخة لآية كذا، و على الحكم الناسخ لحكم آخر.

و المنسوخ هو الحكم المرتفع، فأية الموارد مثلًا أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية الوالدين و الأقربين كما سيأتي، و مقتضى ما سبق أنه يشترط في النسخ:

١- أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.

٢- أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطاباً شرعياً متراحياً عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣- و ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين. و إلا فالحكم ينتهي بانتهاؤه و لا يعد هذا نسخاً. قال «مكي» «١»:

(١) هو مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ يكنى أبا محمد، و أصله من القيروان، كثير التأليف في علوم القرآن و العربية، له كتاب في «الناسخ و المنسوخ، سكن قرطبة، و رحل إلى مصر مرتين، توفي سنة ٤٣٧ هـ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٣

«ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت و الغاية مثل قوله في البقرة (فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) «١» محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل، و المؤجل بأجل لا نسخ فيه.

ما يقع فيه النسخ

و من هنا يعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر و النواهي - سواء كانت صريحة في الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر أو النهي على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى و صفاته و كتبه و رسله و اليوم الآخر، أو الآداب الخلقية، أو أصول العبادات و المعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول. و هي متفق عليها، قال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ١٣- الشورى) و قال (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ١٨٣- البقرة) و قال (وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ٢٧- الحج) و قال في القصاص (وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ ٤٥- المائدة) و قال في الجهاد (وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ ١٤٥- آل عمران) و في الأخلاق (وَ لَا تُصَيِّرْ كَفَرًا ١٨- لقمان).

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذي ليس بمعنى الطلب كالوعد و الوعيد.

ما به يعرف النسخ و أهميته

و لمعرفة النسخ و المنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء و الأصوليين و المفسرين حتى لا تختلط الأحكام، و لذلك وردت آثار كثيرة في الحث على معرفته، فقد روى أن علياً رضي الله عنه مرّ على قاض فقال له: أ تعرف النسخ

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٤

من المنسوخ؟ قال: لا، فقال: هلكت وأهلك، و عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ) -البقرة) قال «ناسخه و منسوخه و محكمه و متشابهه و مقدمه و مؤخره، و حرامه و حلاله» «١» و لمعرفة الناسخ و المنسوخ طرق:

١- النقل الصريح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و سلم او عن صحابي كحديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها» رواه الحاكم. و قول أنس في قصة أصحاب بئر معونة كما سيأتي: و نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع. «٢»

٢- إجماع الأمة على أن هذا ناسخ و هذا منسوخ.

٣- معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ.

و لا يعتمد في النسخ على الاجتهاد، أو قول المفسرين، أو التعارض بين الأدلة ظاهرا، أو تأخر إسلام أحد الراويين.

الآراء في النسخ و أدلة ثبوته

و الناس في النسخ على أربعة أقسام:

١- اليهود: و هؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم في زعمهم البداء، و هو الظهور بعد الخفاء، و هم يعنون بذلك: أن النسخ إما أن يكون لغير حكمه، و هذا عبث محال على الله، و إما أن يكون لحكمة ظهرت و لم تكن ظاهرة من قبل، و هذا يستلزم البداء و سبق الجهل، و هو محال على الله تعالى.

و استدلالهم هذا فاسد، لأن كلا من حكمه الناسخ و حكمه المنسوخ معلوم

(١) أخرجه ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) هم بعث من أصحاب رسول الله بعثهم إلى أهل نجد، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سليم من عصبية و رحل و ذكوان- و أحاطوا بهم و قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٥

لله تعالى من قبل، فلم يتجدد علمه بها. و هو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته و تصرفه المطلق في ملكه.

و اليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها. و جاء في نصوص التوراة النسخ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله، قال تعالى في إخباره عنهم (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ۗ) ٩٣- آل عمران) و قال (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ۗ) ١٤٦- الأنعام) الآية. و ثبت في التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت. و قد حرم الله ذلك على موسى، و أن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم.

٢- الروافض: و هؤلاء غالوا في إثبات النسخ و توسعوا فيه، و أجازوا البداء على الله تعالى، فهم مع اليهود على طرفي نقيض، و استدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى علي رضي الله عنه زورا و بهتاناً، و بقوله تعالى (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۗ) ٣٩- الرعد) على معنى انه يظهر له المحو و الإثبات.

و ذلك إغراق في الضلال، و تحريف للقرآن. فإن معنى الآية: ينسخ الله ما يستصوب نسخه و يثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، و كل من المحو و الإثبات موجود في كثير من الحالات، كمحو السيئات بالحسنات (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ۗ) ١١٤- هود) و محو كفر التائبين و معاصيهم بالتوبة و إثبات إيمانهم و طاعتهم. و لا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه.

٣- ابو مسلم الاصفهاني «١»: و هو يجوز النسخ عقلا و يمنع وقوعه شرعا،

(١) هو محمد بن بحر، المشهور بأبي مسلم الأصفهاني، معتزلي، من كبار المفسرين. أهم كتبه «جامع التأويل» في التفسير، توفي سنة ٣٢٢ هجرية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٦

وقيل يمنعه في القرآن خاصة محتجا بقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٤٢- فصلت) على معنى أن أحكامه لا تبطل أبدا. ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله.

٤- و جمهور العلماء: على جواز النسخ عقلا و وقوعه شرعا لأدلة:

١- لأن أفعال الله لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشئ في وقت و ينسخه بالنهي عنه في وقت، و هو أعلم بمصالح العباد.

٢- و لأن نصوص الكتاب و السنة دالة على جواز النسخ و وقوعه:

أ- قال تعالى: (وَ إِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ١٠١- النحل) و قال (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَاتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ١٠٦- البقرة).

ب- و في الصحيح عن ابن عباس رضی الله عنه: قال: قال عمر رضی الله عنه: أقرؤنا أبي، و أفضانا، و إنا لندع من قول أبي، و ذاك أن أبا يقول:

لا أدع شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قد قال الله عز و جل (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا).

أقسام النسخ

و النسخ أربعة أقسام:

القسم الأول: نسخ القرآن بالقرآن: و هذا القسم متفق على جوازه و وقوعه من القائلين بالنسخ، فأية الاعتداد بالحول مثلا نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر و عشر، كما سيأتي في الأمثلة.

القسم الثاني: نسخ القرآن بالسنة: و تحت هذا نوعان:

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٧

أ- نسخ القرآن بالسنة الأحادية. و الجمهور على عدم جوازه. لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، و الأحادي مظنون، و لا يصح رفع المعلوم بالمظنون.

ب- و نسخ القرآن بالسنة المتواترة. و قد أجازها مالك و أبو حنيفة و أحمد في رواية، لأن الكل وحى. قال تعالى (وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ٣، ٤- النجم) و قال (وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ٤٤- النحل) و النسخ نوع من البيان- و منعه الشافعي و أهل الظاهر و أحمد في الرواية الأخرى، لقوله تعالى (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَاتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ١٠٦- البقرة) و السنة ليست خيرا من القرآن و لا مثله.

القسم الثالث: نسخ السنة بالقرآن، و يجيزه الجمهور، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتا بالسنة، و ليس في القرآن ما يدل عليه، و قد نسخ بالقرآن في قوله (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ١٤٤- البقرة) و وجوب صوم يوم عاشوراء، كان ثابتا بالسنة و نسخ بقوله (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ١٨٥- البقرة) «١» و منع هذا القسم الشافعي في إحدى روايته، و قال: «و حيث وقع بالسنة فمعها قرآن، أو بالقرآن فمعها سنة عاضده تبين توافق الكتاب و السنة» «٢» القسم الرابع: نسخ السنة بالسنة: و تحت هذا أربعة أنواع: ١- نسخ متواترة بمتواترة ٢- و نسخ آحاد بآحاد ٣- و نسخ آحاد بمتواترة ٤- و نسخ متواترة بآحاد- و الثلاثة الأولى جائزة- أما النوع الرابع ففيه

الخلافاً للوارد في نسخ القرآن بالسنة الأحادية، والجمهور على عدم جوازه. أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه.

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «كان عاشوراء صياماً، فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر».

(٢) انظر الإتقان صفحة ٢١ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٨

أنواع النسخ في القرآن

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً، ومثاله: ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت: «كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرم من فنسخن بخمس معلومات» فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم «وهن مما يقرأ من القرآن» وقولها «وهن مما يقرأ في القرآن» ظاهره بقاء التلاوة، وليس كذلك، فإنه غير موجود في المصحف العثماني. وأجيب بأن المراد قارب الوفاة. (١)

والأظهر أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتوفي وبعض الناس يقرؤها. وحكى القاضي أبو بكر في «الانتصار» عن قوم إنكار هذا القسم لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها تفيد القطع، ولكنها ظنية.

ويجاب على ذلك بأن ثبوت النسخ شيء، وثبوت نزول القرآن شيء آخر، فثبوت النسخ يكفي فيه الدليل الظني بخبر الآحاد، أما ثبوت نزول القرآن فهو الذي يشترط فيه الدليل القطعي بالخبر المتواتر، والذي معنا ثبوت النسخ لا ثبوت القرآن فيكفي فيه أخبار الآحاد. ولو قيل إن هذه القراءة لم تثبت بالتواتر لصح ذلك.

النوع الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة: ومثاله: نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوتها - وهذا النوع هو الذي ألفت فيه الكتب و ذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة. والتحقيق أنها قليلة، كما بين ذلك القاضي أبو بكر بن العربي. (٢)

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافري، أحد فقهاء اشبيلية و علمائها رحل إلى المشرق، ثم عاد إلى المغرب، وتوفي سنة ٥٤٤ هـ.

(٢) رواه البخاري تعليقا عن عمر.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٣٩

وقد يقال ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

والجواب من وجهين: أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه، والعمل به، فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

و ثانيهما: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة في رفع المشقة.

و أما حكمه النسخ قبل العمل، كالصدقة عند النجوى، فيثاب على الإيمان به، وعلى نية طاعة الأمر.

النوع الثالث: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم: وقد ذكروا له أمثلة كثيرة، منها آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم» ومنها ما روى في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقت الرسول يدعو على قاتليهم، قال أنس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع «أن بلغوا عنا قومنا أن لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا، ثم نسخت تلاوته» - وبعض

أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ. لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن و نسخه بأخبار آحاد قال ابن الحصار: «إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا، قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر، قال ولا يعتمد في النسخ على قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صريح، ولا معارضة بينه، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد، قال: والناس في هذا بين مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٠

طرفي نقيض، فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد، والصواب خلاف قولهما «١» وقد يقال: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان، لأن الآية دليل على الحكم. فإذا نسخت الآية نسخ حكمها. وإلا وقع الناس في لبس.

ويجاب عن ذلك بأن هذا التلازم يسلم لو لم ينصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة، وعلى إبقاء الحكم، أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها، وعلى إبقاء الحكم واستمراره فإن التلازم يكون باطلاً، وينتفى اللبس بهذا الدليل الشرعي الذي يدل على نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

حكمة النسخ

- ١- مراعاة مصالح العباد.
- ٢- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس ٣- ابتلاء المكلف واختباره بالامثال وعدمه.
- ٤- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر.

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل- والنسخ إلى بدل: إما إلى بدل أخف، وإما إلى بدل مماثل، وإما إلى بدل أثقل:

- ١- فالنسخ إلى غير بدل: كنسخ الصدقة بين يدي نجوى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ١٢- المجادلة) نسخت بقوله (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ١٣- المجادلة).

(١) انظر الإتيان، صفحة ٢٤ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤١

وأنكر بعض المعتزلية والظاهرية ذلك، وقالوا: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعاً، لأن الله تعالى يقول: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ١٠٦- البقرة) حيث أفادت الآية أنه لا بد أن يوتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه أو مثله. ويجاب عن ذلك بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته، رعايته لمصلحة عباده، فيكون عدم الحكم خيراً من ذلك الحكم المنسوخ في نفعه للناس، ويصح حينئذ أن يقال: إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيراً للناس.

٢- والنسخ إلى بدل أخف: يمثلون له بقوله تعالى (أحل لكم ليلمة الصيام الرّفث إلى نسائكم ١٨٧- البقرة) الآية- فهي ناسخة لقوله (كما كتبت على الذين من قبلكم ١٨٣- البقرة) لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا

أليم).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٣

١- قوله تعالى (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۗ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة) منسوخة بقوله (قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۗ وَإِنَّ أُولَئِكَ لَكَاذِبٌ) (البقرة) وقد قيل - وهو الحق - إن الأولى غير منسوخة لأنها في صلاة التطوع في السفر على الرحلة وكذا في حال الخوف والاضطرار، وحكمها باق، كما في الصحيحين، والثانية في الصلوات الخمس، والصحيح أنها ناسخة لما ثبت في السنة من استقبال بيت المقدس.

٢- قوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنِ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۗ لِلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ) (البقرة) قيل منسوخة بآية المواريث، وقيل بحديث «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا- وصية لوارث!» (١) ٣- قوله (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ) (البقرة) نسخت بقوله (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۗ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ) (البقرة) لما في الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ) كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها.

وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة: روى البخاري عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ وَالَّذِينَ يُلَاقُوا الْوَيْلَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ۖ) قال ابن عباس: ليست بمنسوخة. هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان كل يوم مسكيناً- وليس معنى (يطيقونه) على هذا يستطيعونه، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة.

وبعضهم جعل الكلام على تقدير لا النافية، أو وعلى الذين لا يطيقونه.

٤- قوله (يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَنْ يُطِيقُوا الْغَضَبَ بِأَنَّهُمْ يُخَيِّبُونَ) (البقرة) نسخت بقوله (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ تَوْبَةٌ لَكُمْ أَنْ تَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) (التوبة) وقيل يحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحرم فلا نسخ.

(١) رواه أبو داود و الترمذى، وقال: حسن صحيح.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٤

٥- قوله (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْخَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ۗ) (البقرة) نسخت بقوله (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۗ) (البقرة).

وقيل إن الآية الأولى محكمة لأنها في مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج، أما الثانية فهي لبيان العدة، ولا تنافي بينهما.

٦- قوله (وَإِنْ تَبَدَّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوا فَيُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْأَفْهَامَ ۗ) (البقرة) نسخت بقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ) (البقرة).

٧- قوله (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ۗ) (النساء) نسخت بآية المواريث وقيل - وهو الصواب - إنها غير منسوخة، وحكمها باق على النذب.

٨- قوله (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاذْهَبْنَ عَنْهَا وَإِلَيْكُمْ يَأْتِيَنَّكُمْ فَاصْبِرْنَ ۗ إِنَّ الصَّبْرَ لَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادْهَبُوا عَنْهَا ۗ) (النساء) نسخت بقوله (وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادْهَبُوا عَنْهَا ۗ) (النساء) نسخت بآية الجلد للبكر في سورة النور (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۚ وَلَا يَقْبَلُوا الْعِقَابَ حَتَّىٰ يُؤْتُوا مَالَهُمَا طَائِفَةٌ ۚ وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادْهَبُوا عَنْهَا ۗ) (النور) وبالجلد للبكر وبالرجم للشيب الوارد في السنة.

.. البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والشيب بالشيب جلد مائة والرجم (١) ٩- قوله (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ۗ) (الأنفال) نسخت بقوله (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ۗ) (الأنفال).

١٠- قوله (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ۗ وَالَّذِينَ يَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ فَأُولَٰئِكَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة) نسخت بقوله (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ ۗ) (التوبة) الآية، وقوله (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ۗ) (التوبة) الآية.

وقيل إنه من باب التخصيص لا النسخ. وقد مر ذكر أمثله أخرى.

(١) رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٥

١٥- المطلق والمقيد

إشارة

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقا في فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط، و يرد تارة أخرى متناولا له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط، و إطلاق اللفظ مرة و تقييده أخرى من البيان العربي، و هو ما يعرف في كتاب الله المعجز «بمطلق القرآن و مقيده». (١)

تعريف المطلق و المقيد

و المطلق: هو ما دل على الحقيقة بلا قيد، فهو يتناول واحدا لا بعينه من الحقيقة، و أكثر مواضعه النكرة في الإثبات كلفظ (رقبة) في مثل (ف تحرير رقبة) فإنه يتناول عتق إنسان مملوك- و هو شائع في جنس العبيد مؤمنهم و كافرهم على السواء- و هو نكرة في الإثبات، لأن المعنى: فعلية تحرير رقبة، و كقوله عليه الصلاة و السلام «لا نكاح إلا بولي» رواه أحمد و الأربعة. و هو مطلق في جنس الاولياء سواء كان رشيدا أو غير رشيد. و لهذا عرفه بعض الأصوليين بأنه عبارة

(١) أنظر الإتيان صفحة ٣١ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٦

عن الفكرة في سياق الإثبات، فقولنا «نكرة» احتراز عن أسماء المعارف و ما مدلوله واحد معين، و قولنا «في سياق الإثبات» احتراز عن النكرة في سياق النفي فإنها تعم جميع ما هو من جنسها. و المقيد: هو ما دل على الحقيقة بقيد، كالرقبة المقيدة بالايان في قوله: (ف تحرير رقبة مؤمنة).

أقسام المطلق و المقيد و حكم كل منها

و للمطلق و المقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلي:

١- أن يتحد السبب و الحكم: كالصيام في كفارة اليمين: جاء مطلقا في القراءة المتواترة بالمصحف (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ٨٩- المائدة) و مقيدا بالتتابع في قراءة ابن مسعود «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»- فمثل هذا يحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا- يوجب المتتابعين- و لهذا قال قوم بالتتابع «١»، و خالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة- و إن كانت مشهورة- ليست حجة، فليس هنا مقيد حتى يحمل عليه المطلق.

٢- أن يتحد السبب و يختلف الحكم: كالأيدي في الوضوء و التيمم. قيد غسل الأيدي في الوضوء بأنه إلى المرافق، قال تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ٦- المائدة) و أطلق المسح في التيمم قال تعالى (فَتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ٦- المائدة) فليل لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف الحكم. و نقل الغزالي عن أكثر

الشافعية حمل المطلق على المقيد هنا لانحد السبب و إن اختلف الحكم.

٣- أن يختلف السبب و يتحد الحكم: و في هذا صورتان:

أ- الأولى: أن يكون التقييد واحدا. كعتق الرقبة في الكفارة، ورد اشتراط

(١) و به قال أبو حنيفة و الثوري، و هو أحد قولي الشافعي.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٧

الإيمان في الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة في كفارة القتل الخطأ، قال تعالى (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقْتَلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ٩٢- النساء) و أطلقت في كفارة الظهار، قال تعالى (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ٣- المجادلة) و في كفارة اليمين، قال تعالى (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ و لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ هَلِيكُمُ أَوْ كِسْفٌ مِنْهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ٨٩- المائدة) فقال جماعة منهم المالكية و كثير من الشافعية يحمل المطلق على المقيد من غير دليل، فلا تجزئ الرقبة الكافرة في كفارة الظهار و اليمين، و قال آخرون- و هو مذهب الأحناف- لا يحمل المطلق على المقيد إلا بدليل، فيجوز إعتاق الكافرة في كفارة الظهار و اليمين.

و حجة أصحاب الرأي الأول أن كلام الله تعالى متحد في ذاته، لا تعدد فيه، فإذا نص على اشتراط الإيمان في كفارة القتل، كان ذلك تنصيحا على اشتراطه في كفارة الظهار، و لهذا حمل قوله تعالى: (وَالذَّاكِرَاتِ) على قوله في أول الآية (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا ٣٥- الأحزاب) من غير دليل خارج، أي و الذاكرات الله كثيرا، و العرب من مذهبها استحباب الإطلاق اكتفاء بالقيود و طلبا للإيجاز و الاختصار. و قد قال تعالى: (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧- ق) و المراد: «عن اليمين قعيد»، و لكن حذف لدلالة الثاني عليه «١». و أما حجة أصحاب أبي حنيفة فإنهم قالوا: إن حمل (وَالذَّاكِرَاتِ) على (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا) جاء بدليل. و دليله أن قوله: (وَالذَّاكِرَاتِ) معطوف على قوله (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا) و لا استقلال له بنفسه، فوجب رده إلى ما هو معطوف عليه و مشارك له في حكمه، و مثله العطف في قوله تعالى (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) و إذا امتنع التقييد من غير دليل، فلا بد من دليل، و لا نص من كتاب أو سنه يدل على ذلك. و القياس يلزم منه رفع ما اقتضاه المطلق من

(١) انظر «الإحكام» للآمدى صفحة ٥ ج ٣، و «البرهان» للزر كشي. صفحة (١٦) ج ٢

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٨

الخروج عن العهدة بأي شيء كان، مما هو داخل تحت اللفظ المطلق، فيكون نسخا، و نسخ النص لا يكون بالقياس. و يجاب عن ذلك من أصحاب الرأي الأول بأننا لا نسلم أنه يلزم من قياس المطلق على المقيد نسخ النص المطلق، بل تقييده ببعض مسمياته، فتقيد «الرقبة» بأن تكون مؤمنة، فيكون الإيمان شرطا في الخروج عن العهدة. كما أنكم تشترطون فيها صفة السلامة و لم يدل على ذلك نص من كتاب أو سنه.

ب- الثانية: أن يكون التقييد مختلفا، كالكفارة بالصوم، قيد الصوم بالتتابع في كفارة القتل، قال تعالى (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ٩٢- النساء) و في كفارة الظهار، قال تعالى (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ٣- المجادلة) و جاء تقييده بالتفريق في صوم المتمتع بالحج. قال تعالى (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَعْيِهِ إِذَا رَجَعْتُمْ ١٩٦- البقرة) ثم جاء الصوم مطلقا دون تقييد بالتتابع أو التفريق في كفارة اليمين قال تعالى (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ٨٩- المائدة) و في قضاء رمضان قال تعالى (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ١٨٤- البقرة) فالمطلق في هذا لا يحمل على المقيد. لأن القيد مختلف.

فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح.

٤- أن يختلف السبب و يختلف الحكم:- كاليد في الوضوء. و السرقة.

قيدت في الوضوء إلى المرافق، و أطلقت في السرقة. قال تعالى (وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ٣٨- المائدة) فلا يحمل المطلق على المقيد للاختلاف سببا و حكما، و ليس في هذا شيء من التعارض.

قال صاحب البرهان «١»: «إن وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه، و إلا فلا و المطلق على إطلاقه، و المقيد على تقييده، لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب،

(١) صفحة ١٥ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٤٩

و الضابط أن الله تعالى إذا حكم في شيء بصفة أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقا نظر، فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به، و إن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥٠

١٦- المنطوق و المفهوم

إشارة

دلالة الألفاظ على المعاني قد يكون مأخذها من منطوق الكلام الملفوظ به نصا او احتمالا بتقدير أو غير تقدير، و قد يكون مأخذها من مفهوم الكلام سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه- و هذا هو ما يسمى: بالمنطوق و المفهوم. «١»

تعريف المنطوق و أقسامه

المنطوق: هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق- أي أن دلالاته تكون من مادة الحروف التي ينطق بها.

و منه: النص، و الظاهر، و المؤول:

فالنص: هو ما يفيد بنفسه معنى صريحا لا يحتمل غيره. كقوله تعالى (فَصَبِّأْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ١٩٦- البقرة) فإن وصف عشرة بكامله قطع احتمال العشرة لما دونها مجازا. و هذا هو الغرض من النص- و قد نقل عن قوم أنهم قالوا بندرة النص جدا في الكتاب و السنة، و بالغ

(١) أنظر الإتيان صفحة ٣١ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥١

إمام الحرمين في الرد عليهم فقال: «لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على القطع مع انحسام جهات التأويل و الاحتمال، و هذا و إن عز حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللغة، فما أكثره مع القرائن الحالية و المقاليية» و الظاهر: هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالا مرجوحا، فهو يشترك مع النص في أن دلالاته في محل النطق، و يختلف عنه في أن النص يفيد معنى لا- يحتمل غيره، و الظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالا مرجوحا كقوله تعالى (فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ ١٧٣- البقرة) فإن الباغي يطلق على الجاهل. و يطلق على الظالم، و لكن إطلاقه على الظالم أظهر و أغلب فهو إطلاق راجح، و الأول

مرجوح، و كقوله (وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ٢٢٢- البقرة) فانقطاع الحيض يقال فيه طهر، و الوضوء و الغسل يقال فيهما طهر، و دلالة الطهر على الثانى أظهر، فهى دلالة راجحة، و الأولى مرجوحة.

و المؤول: هو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح، فهو يخالف الظاهر فى أن الظاهر يحمل على المعنى الراجح حيث لا- دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح، أما المؤول فإنه يحمل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح. و ان كان كل منهما يدل عليه اللفظ فى محل النطق، كقوله تعالى (وَ أَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ٢٤- الإسراء) فإنه محمول على الخضوع و التواضع و حسن معاملته الوالدين. لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة.

دلالة الاقتضاء و دلالة الإشارة

قد تتوقف صحة دلالة اللفظ على إضمار، و تسمى بدلالة الاقتضاء، و قد لا تتوقف على إضمار و يدل اللفظ على ما لم يقصد به قصدا أوليا، و تسمى دلالة الإشارة:

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٥٢

فالأول: كقوله تعالى (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ١٨٤- البقرة). أى فأفطر فعده. لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر فى سفره، أما إذا صام فى سفره فلا- موجب للقضاء خلافا للظاهرة، و كقوله تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ٢٣- النساء) فإنه يتضمن إضمار الوطء و يقتضيه، أى وطء أمهاتكم، لأن التحريم لا يضاف إلى الأعيان، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم و هو الوطء، و هذا النوع يقرب من حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه، و هو من باب إيجاز القصر فى البلاغة- و سمي اقتضاء لاقتضاء الكلام شيئا زائدا على اللفظ.

و الثانى: و هو دلالة الإشارة- كقوله تعالى (أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ١٨٧- البقرة) فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنبا- لأنه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل، و هذا يستلزم الإصباح على جنابه، و إباحه سبب الشىء نفسه، فإباحة الجماع إلى آخر جزء من الليل لا يتسع معه الغسل قبل الفجر إباحه للإصباح على جنابه.

و هاتان الدالتان- الاقتضاء و الإشارة- أخذا من المنطوق أيضا، فهما من أقسام المنطوق، فالمنطوق على هذا يشمل ١- النص، ٢- و الظاهر ٣- و المؤول ٤- و الاقتضاء ٥- و الإشارة.

تعريف المفهوم و أقسامه

المفهوم:- هو ما دل عليه اللفظ لا فى محل النطق- و هو قسمان ١- مفهوم موافقة ٢- مفهوم مخالفة.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٥٣

١- مفهوم الموافقة: هو ما يوافق حكمه المنطوق- و هو نوعان:

أ- النوع الاول: فحوى الخطاب:- و هو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق، كفهم تحريم الشتم و الضرب من قوله تعالى (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ ٢٣- الإسراء) لأن منطوق الآية تحريم التأفيف، فيكون تحريم الشتم و الضرب أولى لأنهما أشد.

ب- النوع الثانى: لحن الخطاب: و هو ما ثبت الحكم فيه للمفهوم كنبوته للمنطوق على السواء- كدلالة قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ١٠- النساء) على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأى نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل فى الإتلاف.

و تسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن المسكوت عنه يوافق المنطوق به في الحكم و إن زاد عليه في النوع الأول، و ساواه في الثاني و الدلالة فيه من قبيل التنبيه.

بالأدنى على الأعلى، أو بالأعلى على الأدنى، و قد اجتمعا في قوله تعالى:

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ۗ۷۵- آل عمران) فالجمله الأولى (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) من التنبيه على أنه يؤدي إليك الدينار و ما تحته، و الجمله الثانية (وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) من التنبيه على أنك لا تأمنه بقنطار.

٢- مفهوم المخالفة: هو ما يخالف حكمه المنطوق - و هو أنواع: - أ- مفهوم صفة: و المراد بها الصفة المعنوية، كالمشتق: في قوله تعالى (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ۖ۶- الحجرات) فمفهوم التعبير بفاسق أن غير الفاسق لا يجب التثبت في خبره، و معنى هذا انه يجب قبول خبر الواحد العدل. و كالحال:

- في قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ۙ۹۵- المائدة) فهو يدل على انتفاء الحكم في المخطئ،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥٤

لأن تخصيص العمد بوجود الجزاء به يدل على نفي وجوب الجزاء في قتل الصيد خطأ. و كالعدد: - في قوله (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۙ۱۹۷- البقرة) مفهومه أن الإحرام بالحج في غير أشهره لا يصح، و قوله (فَأَجْرِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جِلْدَةً ۙ۴- النور) مفهومه ألا يجلد أقل أو أكثر.

ب: مفهوم شرط: - كقوله تعالى (وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ۙ۶- الطلاق) فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن.

ح: مفهوم غاية: - كقوله تعالى (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۙ۲۳۰- البقرة) فمفهوم هذا أنها تحل للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح.

د: مفهوم حصر: - كقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۙ۵- الفاتحة) مفهومه أن غيره سبحانه لا يعبد و لا يستعان به، و لذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة و الاستعانة.

الاختلاف في الاحتجاج به

اختلف في الاحتجاج بهذه المفاهيم، و الأصح في ذلك أنها حجة بشروط، منها: - ١- ألا يكون المذكور خرج مخرج الغالب - فلا مفهوم للحجور في قوله تعالى (وَرَبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ ۙ۲۳- النساء)، لأن الغالب كون الربائب في حجور الأزواج.

ب- و منها ألا يكون المذكور لبيان الواقع - فلا مفهوم لقوله (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ۙ۱۱۷- المؤمنون) لأن الواقع أن أى إله لا برهان عليه، و قوله (لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) صفة لازمة جىء بها للتوكيد و التهكم بمدعى إله مع الله لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان - و مثله قوله (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ۙ۳۳- النور) فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأتمته على البغاء إن لم ترد التحصن، و انما قال (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) لأن الإكراه لا

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥٥

يتأتى إلا مع إرادة التحصن. و عن جابر بن عبد الله قال: «كان عبد الله بن أبى يقول لجارية له: اذهبى فابغينا شيئا، و كانت كارهه، فأنزل الله (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)» و عن جابر أيضا: «ان جارية لعبد الله بن أبى، يقال لها مسيكة، و أخرى يقال لها أميمة. فكان يريد هما على الزنى. فشكنا ذلك إلى النبى صلى الله عليه و سلم. فأنزل الله (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ) الآية (١)» و الأمر فى الاحتجاج بمفهوم الموافقة أيسر، فقد اتفق

العلماء على صحة الاحتجاج به سوى الظاهرية. أما الاحتجاج بمفهوم المخالفة فقد أثبتته مالك و الشافعي و أحمد، و نفاه أبو حنيفة و أصحابه.

و احتج المثبتون بحجج نقلية و عقلية.

فمن الحجج النقلية: ما روى أنه لما نزل قوله تعالى: (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ٨٠- التوبة) قال النبي صلى الله عليه و سلم: قد خيرني ربي، فوالله لأزيدنه على السبعين .. ففهم النبي صلى الله عليه و سلم أن ما زاد على السبعين بخلاف السبعين «٢».

و منها: ما ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما من منع توريث الأخت مع البنت «٣» استدلالاً بقوله تعالى (إِنْ أَمْرٌ هَلَكَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ١٧٦- النساء) حيث أنه فهم من توريث الأخت مع عدم الولد امتناع توريثها مع البنت، لأنها ولد، و هو من فصحاء العرب، و ترجمان القرآن.

(١) اخرجها مسلم و غيره.

(٢) نقله ابن جرير بأسانيد كثيرة.

(٣) نقله ابن جرير و غيره عن ابن عباس.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥٦

و منها: ما روى «أن يعلى بن أمية» قال لعمر: ما بالنا نقصر و قد أمنا.

و قد قال الله تعالى (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ ١٠١- النساء) و وجه الاحتجاج به أنه فهم من تخصيص القصر عند الخوف عدم القصر عند الأمن، و لم ينكر عليه عمر، بل قال: «لقد عجبت مما عجبت منه، فسألت النبي صلى الله عليه و سلم عن ذلك، فقال لى: «هى صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» «١» و يعلى بن أمية و عمر من فصحاء العرب، و قد فهما ذلك، و النبي صلى الله عليه و سلم أقرهما عليه.

و من الحجج العقلية: أنه لو كان حكم الفاسق و غير الفاسق سواء فى قوله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ٦- الحجرات) فى وجوب التثبت فى الخبر لما كان لتخصيص الفاسق بالذكر فائدة. و قس على ذلك سائر الأمثلة.

(١) رواه الإمام أحمد، و رواه مسلم و أهل السنن.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥٧

١٧- إعجاز القرآن

إشارة

هذا الكون الفسيح الذى يعج بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة، و بحاره الزاخرة، و مهاده الواسعة، أمام مخلوق ضعيف هو الإنسان، ذلك لما جمع الله فيه من خصائص، و ما منحه من قوة التفكير التى تشع فى الأرجاء لتسخر عناصر القوى الكونية، و تجعلها فى خدمة الإنسانية. و ما كان الله ليذر هذا الإنسان دون أن أن يمدده بقبس من الوحي بين فترة و أخرى يقوده إلى معالم الهدى ليسلك دروب الحياة على بينة و بصيرة، إلا أن غلواءه الفطرى يأبى عليه الخضوع لقرينه من بنى الإنسان ما لم يأت له بما لا يستطيع

حتى يعترف و يخضع و يؤمن بقدره عليا فوق قدرته، فكان رسل الله الذين ينتزل عليهم الوحي و يؤيدهم الله بخوارق العادات التي تقيم الحجج على الناس فيعرفون أمامها بالعجز، و يدينون لها بالولاء و الطاعة، و لكن العقل البشري كان في أطوار نموه الأولى لا يرى شيئا يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسية حيث لا يرقى عقله إلى السمو في المعرفة و التفكير، فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة، و أن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارفة لما ألقوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء، فلما اكتمل العقل البشري أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة، و كانت معجزتها معجزة العقل البشري في أرقى تطورات نضجه و نموه، فبينما كان تأييد الله لرسله

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥٨

السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار و لا سبيل للعقل في معارضتها. كمعجزة اليد و العصا لموسى، و إبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى بإذن الله لعيسى، كانت معجزة محمد صلى الله عليه و سلم في عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحتاج العقل البشري و تتحداه إلى الأبد، و هي معجزة القرآن بعلومه و معارفه، و أخباره الماضية و المستقبلية، فالعقل الإنساني على تقدمه لا يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قبل له بها.

و لكن عجزه لقصوره الذاتي، فيكون هذا اعترافا منه بأنه وحى الله إلى رسوله، و أن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه، و ترقى مواهبه. و هذا المعنى، هو ما يشير إليه رسول الله صلى الله عليه و سلم في قوله «ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، و إنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا» (١).

و هكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخي الزمن و تقدم العلم عن معارضتها.

و الحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز لا يصل الباحث فيه إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سر إعجازها الزمن. فهو كما يقول الرافعي «ما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه و إعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهه، و تعاوره من كل ناحية، و أخلقوا جوانبه بحثا و تفتيشا، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقا جديدا، و مراما بعيدا».

تعريف الإعجاز و إثباته

الإعجاز: إثبات العجز، و العجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء. و هو ضد القدرة» و إذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز، و المراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي صلى الله عليه و سلم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب

(١) رواه البخارى.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٥٩

عن معارضته في معجزته الخالدة- و هي القرآن- و عجز الأجيال بعدهم.

و المعجزة:- أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة.

و القرآن الكريم تحدى به النبي صلى الله عليه و سلم العرب، و قد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة و البلاغة، و مثل هذا لا يكون إلا معجزة.

فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه و سلم تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث:- أ- تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام يتناولهم و يتناول غيرهم من الإنس و الجن تحديا يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى (قُلْ لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتيوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٨٨- الأسماء). (١)

ب- ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ إِنَّهُ ۙ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (١٣، ١٤-هود).

ج- ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ ۚ-٣٨-يونس) وكرر هذا التحدي في قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ ۚ-٢٣-البقرة).

و من عنده إلمام قليل بتاريخ العرب و أدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ التي رقت بلغه العرب و هدّبت لسانها و جمعت خير ما في لهجاتها من أسواق الأدب و المفارقة بالشعر و النشر. حتى انتهى مصب جداول الفصاحة و إدارة الكلام بالبيان في لغة قريش التي نزل بها القرآن، و ما كان عليه العرب من

(١) التحدي إنما وقع للإنس دون الجن، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، و انما ذكروا في قوله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ) تعظيما لاعجازه لأنه إذا فرض اجتماع الإنس و الجن و ظاهر بعضهم بعضا و عجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٠

صلف يعلوا بأحدهم على أبناء عمومته أنفا و كبيرا مضرب مثل في التاريخ الذي سجل لهم أياما نسبت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك و حروب طاحنة. أشعلها شر من الكبرياء و الأنفة.

و مثل هؤلاء مع توفر دواعي اللسان و قوة البيان التي يوقدها حماس القبيل و يؤججها أتون الحمية لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثر هذا عنهم، و تطاير خبره في الأجيال. فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب و قلبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعر و نثر فلم يجدوا مسلكا لمحاكاته، أو منفذا لمعارضته، بل جرى على ألسنتهم الحق الذي أخرجهم عفو الخاطر عند ما زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة، و عند ما عجزت حيلتهم رموه بقول باهت فقالوا: سحر يؤثر، أو شاعر مجنون، أو أساطير الأولين. و لم يكن لهم بد أمام العجز و المكابرة إلا- أن يعرضوا رقابهم للسيوف، و كأن اليأس القاتل ينقل بنيه من نظرهم للحياة الطويلة و العمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام- و بهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مراة.

و كان سماعه حجة ملزمة (وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ۚ-٦-التوبة). و كان ما يحتويه من نواحي الإعجاز يفوق كل معجزة كونيّة سابقة و يغني عنها جميعا (وَ قَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ-٥٠، ٥١-العنكبوت).

و عجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي عجز للغة العربية في ريعان شبابها و عنفوان قوتها.

و الإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل و لا يزال في موقف التحدي شامخ الأنف، فأسرار الكون التي يكشف عنها العلم الحديث ما هي إلا مظاهر للحقائق العليا التي ينطوي عليها سر هذا الوجود في خالقه و مدبره، و هو ما أجمله القرآن أو أشار إليه- فصل القرآن بهذا معجزا للإنسانية كافة.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦١

وجوه إعجاز القرآن «١»

لقد كان لنشأة علم الكلام في الإسلام أثر أصدق ما يقال فيه: إنه كلام في كلام، و ما فيه من وميض التفكير يجر متتبعه إلى مجاهل من القول بعضها فوق بعض. و قد بدأت مأساة علماء الكلام في القول بخلق القرآن، ثم اختلفت آراؤهم و تضاربت في وجوه إعجازه:- ١- فذهب أبو اسحاق إبراهيم النظام «٢» و من تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، و معنى

الصرفة في نظر النظام: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة. و معناها في نظر المرتضى: ان الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن- و هو قول يدل على عجز ذويه، فلا يقال فيمن سلب القدرة على شيء إن الشيء أعجزه ما دام في مقدوره أن يأتي به في وقت ما، وإنما المعجز حينئذ هو قدر الله، فلا يكون القرآن معجزاً، و حديثنا عن إعجاز مضاف إلى القرآن سوف يظل ثابتاً له في كل عصر، لا عن إعجاز الله.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني «و مما يبطل القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه» و القول بالصرفة قول فاسد يرد عليه القرآن الكريم في قوله تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ٨٨- الإسراء) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، و لو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره.

(١) ذكر العلماء في وجوه الاعجاز ما يربو على عشرة أوجه، و سنتصر على أهمها.

(٢) هو أبو اسحاق إبراهيم بن سيار النظام شيخ الجاحظ، و أحد رءوس المعتزلة، و إليه تنسب الفرقة النظامية، توفي في خلافة المعتصم سنة بضع و عشرين و مائتين مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٢

ب- و ذهب قوم إلى أن القرآن معجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها مثل- و هذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعاني الحية في النسيج المحكم، و البيان الرائع.

ج- و بعضهم يقول: إن وجه إعجازه في تضمنه البديع الغريب المخالف لما عهد في كلام العرب من الفواصل و المقاطع، د- و يقول آخرون بل إعجازه في الإخبار عن المغيبات المستقبلية التي لا يطلع عليها إلا بالوحي. أو الإخبار عن الأمور التي تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أمي لم يتصل بأهل الكتاب.

كقوله تعالى في أهل بدر (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّونَ الدُّبُرَ ٤٥- القمر) و قوله: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ٢٧- الفتح) و قوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ٥٥- النور) و قوله: (الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ١: ٣- الروم) و قوله: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ٤٩- هود) و سائر قصص الأولين.

و هذا قول مردود. لأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها عن المغيبات المستقبلية و الماضية لا إعجاز فيها، و هو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها «١».

ج- و ذهب جماعة إلى أن القرآن معجز لما تضمنه من العلوم المختلفة، و الحكم البليغة، و هناك وجوه أخرى للإعجاز تدور في هذا الفلك جمعها بعضهم في عشرة أو أكثر.

و الحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحملة هذا اللفظ من معنى:- فهو معجز في ألفاظه و أسلوبه، و الحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز

(١) انظر «البرهان» للزركشي صفحة ٩٥، ٩٦ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٣

الذي لا يغنى عنه غيره في تماسك الكلمة، و الكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، و الجملة في موضعها من الإعجاز

في تماسك الآية.

وهو معجز في بيانه ونظمه، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان وهو معجز في معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود.

وهو معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيرا من حقائقها المغيبة.

وهو معجز في تشريعه وحياته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه.

والقرآن - أولا و آخرًا - هو الذي صير العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم، وهذا وحده إعجاز.

قال الخطابي في كتابه «١»: «فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني، من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لمنهاج عبادته، في تحليل و تحريم، و حظر و إباحة، و من وعظ و تقويم، و أمر بمعروف و نهى عن منكر، و إرشاد إلى محاسن الأخلاق، و زجر عن مساوئها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، و لا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعا أخبار القرون الماضية و ما نزل من مثلات الله بمن عصى و عاند منهم، مبنيا عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الماضية من الزمان - جامعا في ذلك بين الحجّة و المحتج له، و الدليل و المدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، و إنباء عن وجوب ما أمر به و نهى عنه ..

و معلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، و الجمع بين أشاتها حتى تنتظم و تتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، و لا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، و عجزوا عن معارضته بمثله».

(١) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، في كتابه «بيان إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاثة رسائل بمطبعة المعارف بتحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، و انظر «البرهان» للزركشى صفحة ١٠١ و ما بعدها ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٤

القدر المعجز من القرآن

أ- يذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه، أو بكل سورة برأسها.

ب- و يذهب البعض إلى أن المعجز منه القليل و الكثير دون تقييد بالسورة لقوله تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ٣٤- الطور).

ج- و يذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة و لو قصيرة، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات.

و لقد وقع التحدى بالقرآن كله (قُلْ لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) و بعشر سور (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ) و بسورة واحدة (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) و بحديث مثله (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ).

و نحن لا نرى الإعجاز في قدر معين لأننا نجد في أصوات حروفه و وقع كلماته، كما نجده في الآية و السورة، فالقرآن كلام الله و كفى.

و أيا كان وجه الإعجاز، أو القدر المعجز. فإن الباحث المنصف الذي يطلب الحق إذا نظر في القرآن من أى النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم و غير به وجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة، وجد الأعجاز واضحا جليا. و يجدر بنا أن نأتى بكلمة في هذه النواحي الثلاثة من الإعجاز القرآني: ناحية الإعجاز اللغوي، و ناحية الإعجاز العلمي، و ناحية الإعجاز التشريعي.

الإعجاز اللغوي

لقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبت و ترعرعت، و أصبحت في عنفوان شبابها عملاقا معطاء، و استظهروا شعرها و نثرها. و حكمها

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٥

و أمثالها، و طوعهم البيان في أساليب ساحرة، حقيقية و مجازا، ايجازا و إطنابا، حديثا و مقالا، و كلما ارتفعت اللغة و تسامت، و قفت على أعتاب لغة القرآن في اعجازه اللغوي كسيرة صاغرة، تنحني أمام أسلوبه إجلالا و خشية، و ما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ. ازدهرت فيها اللغة إلا و تطامن أعلامها و أساتذتها أمام البيان القرآني اعترافا بسموه، و إدراكا لأسراره، و لا عجب «فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه، لا يزيدك العلم بها و الوقوف على أسرارها إلا إذعانا لعظمتها، و ثقة بالعجز عنها، و لا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكنك منها و يفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها، و من هنا كان سحره فرعون هم أول المؤمنين برب موسى و هارون» (١) و الذين تملكهم الغرور، و أصابتهم لوثة الإعجاب بالنفس، و حاولوا التناول على أسلوب القرآن، حاكوه بكلام فارغ. أشبه بالسخف و التفاهة و الهذيان و العبث، و ارتدوا على أعقابهم خاسرين، كالمتمبئين و أشباه المتمبئين، من الدجالين و المغرورين.

و قد شهد التاريخ فرسانا للعربية خاضوا غمارها و أحرزوا قصب السبق فيها، فما استطاع أحد منهم أن تحدثه نفسه بمعارضة القرآن. إلا بآء بالخزي و الهوان، بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللغة، في أزهى عصورها، و أرقى أدوارها، حين نزل هذا القرآن، و قد بلغت العربية أشدها، و توافرت لها عناصر الكمال و التهذيب في المجامع العربية و أسواقها، و وقف القرآن من أصحاب هذه اللغة موقف التحدي.

في صور شتى، متنزلا معهم إلى الأخف من عشر سور إلى سورة إلى حديث مثله، فما استطاع أحد أن يباريه أو يجاريه منهم، و هم أهل الأنفة و العزة و الإباء. و لو وجدوا قدرة على محاكاة شيء منه، أو وجدوا ثغرة فيه. لما ركبوا المركب الصعب أمام هذا التحدي، بإشهار السيوف، بعد أن عجز البيان، و تحطمت الأقلام.

و تتابعت القرون لدى أهل العربية، و ظل الإعجاز القرآني اللغوي راسخا

(١) النبأ العظيم، صفحة ٨١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٦

كالطود الشامخ. تذلل أمامه الأعناق خاضعة. لا تفكر في أن تدانيه، فضلا عن أن تساميه، لأنها أشد عجزا و اقل طمعا في هذا المطلب العزيز. و سيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين.

و لا يستطيع أحد أن يدعى عدم الحاجة إلى معارضة القرآن، و إن كان ذلك ممكنا، فإن التاريخ يشهد بأنه قد توافرت الدواعي الملحة لدى القوم لمعارضة القرآن، حيث وقفوا من الرسالة و صاحبها موقف الجحود و النكران، و استثار القرآن حميتهم. و سفه أحلامهم، و تحداهم تحديا سافرا يثير حفيظة الجبان الرعديد مع ما كانوا عليه من أنفة و عزة. فسلكوا مع الرسول صلى الله عليه و سلم مسالك شتى، ساوموه بالمال و الملك ليكف عن دعوته، و قاطعوه و من معه حتى يموتوا جوعا. و اتهموه بالسحر و الجنون، و تأمروا على حبسه، أو قتله أو إخراجه. و قد دلهم على الطريق الوحيد لإسكاته و هو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به، «ألم يكن ذلك أقرب إليهم و أبقى عليهم لو كان أمره في يدهم؟ و لكنهم طرقت الأبواب كلها إلا هذا الباب، و كان القتل و الأسر و الفقر و الذل و كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه، فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز؟» و القرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم. ألفاظا و حروفا، تركيبا و أسلوبا، و لكنه في اتساق حروفه، و طلاوة عبارته، و حلاوة أسلوبه، و جرس آياته، و مراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان، في الجمل الاسمية و الفعلية .. و في النفي و

الإثبات، وفي الذكر والحذف، وفي التعريف والتكبير، وفي التقديم والتأخير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الاطناب والإيجاز. وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتقييد، وفي النص والفحوى.. و هلم جرا- ولكن القرآن في هذا ونظائره بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر.

عن ابن عباس: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكانه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأناه فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا يعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله. قال:

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٧

قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له و كاره، قال: وما ذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يآثره عن غيره، فنزلت (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ۱۱- المَدْثَرُ) «١» وحيثما قلب الإنسان نظره في القرآن وجد أسراراً من الإعجاز اللغوي.

يجد ذلك في نظامه الصوتي البديع بحرس حروفه. حين يسمع حركاتها و سكناتها، و مداتها و غناتها، و فواصلها و مقاطعها، فلا تمل أذنه السماع، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

و يجد ذلك في ألفاظه التي تفي بحق كل معنى في موضعه، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص.

و يجد ذلك في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم بما تطيقه عقولهم، فيراها كل واحد منهم مقدرة على مقياس عقله و وفق حاجته، من العامة و الخاصة (وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۗ ١٧- القمر) و يجد ذلك في إقناع العقل و إمتاع العاطفة، بما يفى بحاجة النفس البشرية تفكيراً و وجداناً في تكافؤ و اتزان، فلا تطغى قوة التفكير على قوة الوجدان، و لا قوة الوجدان على قوة التفكير.

و هكذا حيثما قلب النظر قامت أمامه حجة القرآن في التحدي و الإعجاز «٢».

(١) أخرجه الحاكم و صححه، و البيهقي في الدلائل.

(٢) راجع الإعجاز اللغوي في «النبا العظيم» بتوسع.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٨

قال القاضي أبو بكر الباقلاني «١»: «والذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه: منها ما يرجع إلى الجملة، و ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه و اختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، و مباين للمألوف من ترتيب خطابهم، و له أسلوب يختص به و يتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، و ذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى يرسل إرسالاً فتطلب فيه الإصابة و الإفادة و إفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، و ترتيب لطيف، و إن لم يكن معتدلاً في وزنه، و ذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل.

يتصنع له، و قد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، و مباين لهذه الطرق، فليس من باب السجع، و ليس من قبيل الشعر، و تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، و أساليب خطابهم أنه خارج عن العادة. و أنه معجز، و هذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، و تميز حاصل في جميعه ...

و ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة و الغرابة و التصرف البديع، و المعاني اللطيفة، و الفوائد الغزيرة، و الحكم الكثيرة، و التناسب في البلاغة، و التشابه في البراعة على هذا الطول- و على هذا القدر، و إنما تنسب إلى حكمهم كلمات معدودة، و ألفاظ قليلة، و إلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال و الاختلاف، و التكلف و التعسف، و قد جاء القرآن على كثرة و طوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله عز من قائل: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ۲۳- الزمر) (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۗ ٨٢- النساء) فأخبر أن كلام آدمي إن امتد وقع فيه التفاوت و بان عليه الاختلال.

و عجيب نظم القرآن و بديع تأليفه لا- يتفاوت و لا- يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها- من ذكر قصص و مواظ، و احتجاج و حكم و أحكام،

(١) هو القاضي ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب «اعجاز القرآن» و كتاب «التقريب و الارشاد» في أصول الفقه، توفي سنة ٤٠٣ هـ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٦٩

و إعدار و إنذار، و وعد و وعيد، و تبشير و تخويف، و أخلاق كريمة، و شيم رفيعة، و سير مأثورة، و غير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، و نجد كلام البليغ الكامل، و الشاعر المفلق، و الخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، و منهم من يبرز في الهجو دون المدح، و منهم من يسبق في التفريط دون التأبين، و منهم من يقرب في وصف الإبل و الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر و يتداوله الكلام. و لذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، و النابغة إذا رهب، و بزهير إذا رغب، و مثل ذلك يختلف في الخطب و الرسائل و سائر أجناس الكلام ...

و قد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، و بديع التأليف و الوصف، لا تفاوت فيه و لا انحطاط عن المنزلة العليا .. فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ..» (١)

(١) أعجاز القرآن بتصرف

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧٠

الإعجاز العلمي

يخطئ كثير من الناس حين يحرصون على أن يتضمن القرآن الكريم كل نظرية علمية، و كلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملا في آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية.

و منشأ الخطأ في هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعا لسنة التقدم، فلا تزال في نقص دائم يكتنفه الغموض أحيانا، و الخطأ أحيانا أخرى، و تستمر هكذا حتى تقترب من الصواب، و تصل إلى درجة اليقين، و أي نظرية منها تبدأ بالحدس و التخمين و تخضع للتجربة حتى يثبت يقينها، أو يتضح زيفها و خطأها، و لهذا كانت عرضة للتبديل، و كثير من القواعد العلمية التي ظن الناس أنها أصبحت من المسلمات تترزع بعد ثبوت، و تقوض بعد رسوخ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى.

و الذين يفسرون القرآن الكريم بما يطابق مسائل العلم، و يحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر في أفق الحياة العلمية، سيئون إلى القرآن من حيث يظنون أنهم يحسنون صنعا، لأن هذه المسائل التي تخضع لسنة التقدم تتبدل، و قد تقوض من أساسها و

تبطل، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنا في تفسيره للنقائص كلما تبدلت القواعد العلمية، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم، أو يقين يبطل التخمين.

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية، يخاطب الضمير فيحيي فيه عوامل النمو والارتقاء، و بواعث الخير والفضيلة. وإعجازه العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتبدل وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر، وإنما في حثه على التفكير، فهو يحث الإنسان على النظر في الكون وتدبره، ولا يشل حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيل. وليس ثمة كتاب من كتب الأديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧١

فأى مسألة من مسائل العلم، أو قاعدة من قواعده، يثبت رسوخها، ويتبين يقينها، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها ولم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آيات القرآن، وهذا وحده إعجاز.

والقرآن الكريم يجعل التفكير السديد والنظر الصائب في الكون وما فيه أعظم وسيلة من وسائل الإيمان بالله. إنه يحث المسلم على التفكير في مخلوقات الله في السماء والأرض. (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. ١٩٠، ١٩١- آل عمران) ويحثه على التفكير في نفسه، وفي الأرض التي يعمرها، وفي الطبيعة التي تحيط به (أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ٨- الروم) (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟ ٢٠، ٢١- الذاريات) (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ؟ ١٧- ٢٠- الغاشية) ويثير فيه الحس العلمي للتفكير والفهم والتعقل.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩- البقرة) (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١- الحشر) (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤- يونس) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٣- الرعد)

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧٢

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢- الأعراف) (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٩٧- الأنعام) (انظُرْ كَيْفَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ٦٥- الأنعام) (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ٩٨- الأنعام) ويرفع القرآن مكانه المسلم بفضيلة العلم. (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ١١- المجادلة) ولا يسوى بين عالم وجاهل. (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ ٩- الزمر) ويأمر المسلم أن يسأل ربه نعمة العلم.

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤- طه) ويجمع الله علوم الفلك والنبات وطبقات الأرض والحيوان ويجعل ذلك من بواعث خشيته (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ٢٧- ٢٨- فاطر) وهكذا فإن إعجاز القرآن العلمي في أنه يحث المسلمين على التفكير. ويفتح لهم أبواب المعرفة، ويدعوهم إلى ولوجها، والتقدم فيها، وقبول كل جديد راسخ من العلوم.

وفي القرآن مع هذا إشارات علمية سيقت مساق الهداية. فالتلقيح في النبات ذاتي و خلطي: والذاتي: ما اشتملت زهرته على عضوى التذكير والتأنيث، و الخلطي: هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلا عن عضو التأنيث كالنخيل، فيكون التلقيح بالنقل. ومن وسائل ذلك الرياح، وجاء في هذا قول الله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ٢٢- الحجر)

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧٣

«و الأوكسجين» ضروري لتنفس الإنسان، و يقل في طبقات الجو العليا، فكلما ارتفع الإنسان في أجواء السماء أحسن بضيق الصدر و صعوبة التنفس، و الله تعالى يقول (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَانَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ١٢٥- الأنعام) و قد ساد الاعتقاد بأن الذرة هي الجزء الذي لا يقبل التجزئة: و في القرآن (وَمَا يَغْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَضِغْرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦١- يونس) و لا أصغر من الذرة سوى تحطيم الذرة.

و في علم الأجنه جاء قوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٥-٧ الطارق) و قوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢- العلق) و قوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لُبِّينَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ٥- الحج). و في وحدة الكون و حاجة الحياة إلى عنصر الماء يقول تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ؟ ٣٠- الأنبياء) تلك الإشارات العلمية و نظائرها في القرآن جاءت في سياق الهداية الإلهية، و للعقل البشري أن يبحث فيها و يتدبر.

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ ١٨٩- البقرة): «اتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري، و حدثهم عن وظيفة الأهل في واقعهم و في حياتهم و لم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر، و كيف تتم؟ و هي داخله في مدلول السؤال ... إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، و لم يجيء ليكون كتاب علم فلكي، أو كيمائي أو طبي ... كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتسوا مخالفاته لهذه العلوم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧٤

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب و وظيفته و مجال عمله. إن مجاله هو النفس الإنسانية و الحياة الإنسانية، و إن وظيفته أن ينشئ تصورا عاما للوجود و ارتباطه بخالقه، و لوضع الإنسان في هذا الوجود و ارتباطه بربه، و أن يقيم على أساس هذا التصور نظاما للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته و من بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، و إطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان، و بالتجريب و التطبيق، و تصل إلى ما تصل إليه من نتائج، ليست نهائية و لا مطلقة. بطبيعة الحال

و إنى لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، و أن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، و أن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب و الكيمياء و الفلك و ما إليها .. كأنما ليعظموه بهذا و يكبروه ... إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة .. أما ما يصل إليه البحث الإنساني - أيا كانت الأدوات المتاحة له - فهي حقائق غير نهائية و لا قاطعة، و هي مقيدة بحدود تجاربه و ظروف هذه التجارب و أدواتها، فمن الخطأ المنهجي - بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته - أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، و هي كل ما يصل إليه العلم البشري.

هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية، و الأمر أوضح بالقياس إلى النظريات الفروض التي تسمى «علمية» ... فهي قابلة دائما للتغيير و التعديل و النقص و الإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة.

و كل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوي أو لا على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثه، كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧٥

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس، أن العلم هو المهيمن و القرآن تابع، و من هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، و نهائي في حقائقه، و العلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبتته بالأمس، و كل ما يصل إليه غير نهائي و لا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان و عقله و أدواته، و كلها ليس من طبيعتها أن تعطى حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

و الثانية: سوء فهم طبيعة القرآن و وظيفته. و هي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق- بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية- مع طبيعة هذا الوجود و ناموسه الإلهي، حتى لا- يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادفه و يعرف بعض أسرارها، و يستخدم بعض نواميسه من خلافته، نواميسه التي تكشف له بالنظر و البحث و التجريب و التطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة.

و الثالثة: هي التأويل المستمر- مع التمثل و التكلف- لنصوص القرآن كي نحملها و نلهث بها وراء الفروض و النظريات التي لا تثبت و لا تستقر، و كل يوم يجد فيها جديد «١»

الإعجاز التشريعي

أودع الله في الإنسان كثيرا من الغرائز التي تعتمل في النفس و تؤثر عليها في اتجاهات الحياة، و لئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تغطي على سلطان العقل، و لا يستطيع العقل أن يكبح جماحها في كل حال. لهذا كان لا بد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه، تهذيبها و تنميتها، و تقودها إلى الخير و الفلاح.

(١) اقتبسنا هذه الفقرات من كتاب «في ظلال القرآن» بتصرف.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧٦

و الإنسان مدني بالطبع، فهو في حاجة إلى غيره، و غيره في حاجة إليه، و تعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشري.

و كثيرا ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة و حب السيطرة، فلو ترك أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم، و ينظم أحوال معاشهم، و يصون حقوقهم. و يحفظ حرمانهم لصار أمرهم فوضى، و لذا كان لا بد لأي مجتمع بشري من نظام يحكم زمامه، و يحقق العدل بين أفراد.

و بين تربية الفرد و صلاح الجماعة. و شائع قويه لا تنفصم عراها، فإن هذا يقوم على تلك، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة، و صلاح الجماعة بصلاح الفرد.

و قد عرفت البشرية في عصور التاريخ ألوانا مختلفة من المذاهب و النظريات و النظم و التشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، و لكن واحدا منها لم يبلغ من الروعة، و الإجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي.

إن القرآن يبدأ بتربية الفرد، لأنه لبنة المجتمع و يقيم تربيته على تحرير وجدانه، و تحمله التبعة.

يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد الذي تخلصه من سلطان الخرافة و الوهم، و تفكك أسره من عبودية الأهواء و الشهوات، حتى يكون عبدا خالصا لله، يتجرد للإله الخالق المعبود، و يستعلى بنفسه عما سواه، فلا حاجة للمخلوق إلا لدى خالقه، الذي له الكمال المطلق، و منه يمنح الخير للخلائق كلها. إنه خالق واحد و إله واحد. لا أول له و لا آخر، قدير على كل شيء، عليم بكل شيء. محيط بكل شيء، و ليس كمثل شيء.

عالم مخلوق خلقه الله، و يرجع إلى الله، و يفنى كما يوجد بمشيئة الله، و هذه أكمل عقيدة في العقل و أكمل عقيدة في الدين.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣- الحديد)

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٧٧

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٨- القصص) (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ١٠٢- الأنعام) (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢٧- الأحزاب) (وَاللَّهُ بِصَعِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦- البقرة) (أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ٥٤- فصلت) (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١- الشورى) (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٠٥- الأنعام). و يؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بالحجج القاطعة التي تقوم على المنطق العقلي السليم. فلا تقبل الجدال والمراء (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ٢٢- الأنبياء) (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَمَاتَنَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢- الإسراء) وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات، و كل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، و الجماعة واجبة على الرأى الراجح إلا لعذر، و هى شرط فى الجمعة والعيدىن، و الذى يصلى منفردا لا- يغيب عن شعوره آصرة القربى بينه و بين الجماعة الإسلامىة فى أقطار الأرض، من شمال إلى جنوب، و من مشرق إلى مغرب، لأنه يعلم أنه فى تلك اللحظة يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم على ظهر الأرض، يؤدى فريضة الصلاة، و يستقبل معه قبلة واحدة، و يدعو بدعاء واحد، و إن تباعدت بينهم الديار.

و حسب المسلم فى تربيته أن يقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم الواحد

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٧٨

لتمتج حياته بشرع الله، و يتمثل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين كل صلاة و صلاة (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ٤٥- العنكبوت) و الزكاة تقتلع من النفس جذور الشح، و عبادة المال، و الحرص على الدنيا، و هى مصلحة للجماعة. فتقيم دعائم التعاون بين المجدودين و المحرومين، و تشعر النفس بتكافل الجماعة شعورا يخرجها من ضيق الأثرة و الانفراد. و الحج سياحة تروض النفس على المشقة، و تفتح بصيرتها على أسرار الله فى خلقه، و هو مؤتمر عالمى يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد، يتعارفون و يتشاورون.

و الصيام ضبط للنفس، و شحذ لعزيمتها، و تقوية للإرادة، و حبس للشهوات، و هو مظهر اجتماعى يعيش فيه المسلمون شهرا كاملا على نظام واحد فى طعامهم.

كما تعيش الأسرة فى البيت الواحد.

و القيام بهذه العبادات المفروضة يربى المسلم على الشعور بالتبعة الفردية التى يقررها القرآن و ينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين، و كل فضيلة من فضائل الأخلاق.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ٣٨- المدثر) (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١- الطور) (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ٢٨٦- البقرة) و حض القرآن على الفضائل المثلى التى تروض النفس على الوازع الدينى، كالصبر و الصدق و العدل و الإحسان و الحلم و العفو و التواضع ..

و من تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة، لأنها نواة المجتمع، فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس و إبقاء على النوع الإنسانى فى تناسل طاهر نظيف.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٧٩

و يقوم رباط الأسرة فى الزواج على الود و الرحمة و السكن النفسى و العشرة بالمعروف، و مراعاة خصائص الرجل و خصائص المرأة،

و الوظيفة الملائمة لكل منهما.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ۲١- الروم) (وَ عَاشَتْ زَوْجُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۱٩- النساء) (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ ۳۳- النساء) ثم يأتي نظام الحكم الذي يسود المجتمع المسلم، وقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية في أصلح أوضاعها.

فهي حكومة الشورى و المساواة و منع السيطرة الفردية.

(وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ ١٥٩- آل عمران) (وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ۚ ٣٨- الشورى) (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ۚ ١٠- الحجرات) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ ٦٤- آل عمران).

و هي حكومة تقوم على العدل المطلق الذى لا يتأثر بحب الذات، أو عاطفة القرابة، أو العوامل الاجتماعية فى الغنى و الفقر. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ ۚ إِنَّ يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۚ ١٣٥- النساء) كما لا تؤثر فى هذا العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبعوضين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ ٢٨٠- مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٨٠)

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ٨- المائدة) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ ٥٨- النساء).

و التشريع فى الحكومة الإسلامية ليس متروكا للناس، فقد قرره القرآن، و الخروج عنه كفر و ظلم و فسق.

(وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۚ ٤٤- المائدة) (وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۚ ٤٥- المائدة) (وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۚ ٤٧- المائدة) (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۚ ٥٠- المائدة) و قرر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية: النفس، و الدين، و العرض، و المال، و العقل و رتب عليها العقوبات المنصوصة، التى تعرف فى الفقه الإسلامى بالجنايات و الحدود.

(وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ ۚ ١٧٩- البقرة) (الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً ۚ ٢- النور) (وَ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ۚ ٤- النور) (وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ۚ ٣٨- المائدة).

و قرر القرآن العلاقات الدولية فى الحرب و السلم بين المسلمين و جيرانهم أو معاهديهم، و هى أرفع معاملته عرفت فى عصور الحضارة الإنسانية.

و خلاصة القول أن القرآن دستور تشريعى كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة و أرقى مثال، و سيظل إعجازه التشريعى قرينا لإعجازه العلمى و إعجازه اللغوى إلى الأبد. و لا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث فى العالم أثرا غير وجه التاريخ.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٢٨١

١٨- أمثال القرآن

إشارة

الحقائق السامية فى معانيها و أهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت فى قالب حسن يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، و التمثيل هو القالب الذى يبرز المعانى فى صورة حية تستقر فى الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر، و المعقول بالمحسوس. و قياس النظير على النظير، و كم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة و جمالا، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، و اقتناع العقل به، و هو من أساليب القرآن الكريم فى صروب بيانه و نواحي إعجازه.

و من العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف، و منهم من عقد لها بابا في كتاب من كتبه، فأفردا بالتأليف أبو الحسن الماوردي «١»، و عقد لها بابا السيوطي في الإتيان «٢» و ابن القيم في كتاب أعلام الموقعين. حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره، و التسوية بينهما في الحكم - فبلغت بضعة و أربعين مثلا.

و ذكر الله في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال (وَ تَلَمَّكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١- الحشر) (وَ تَلَمَّكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ٤٣- العنكبوت)

(١) هو ابو الحسن علي بن حبيب الشافعي، صاحب كتاب «أدب الدنيا و الدين» و كتاب «الأحكام السلطانية» توفي سنة ٤٥٠ هـ.

(٢) انظر الإتيان، صفحة ١٣١ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٢

(وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧- الزمر) و عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إن الله أنزل القرآن أمرا و زاجرا، و سنة خالیه، و مثلا مضروبا» «١» و كما عنى العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية. و عقد لها أبو عيسى الترمذي بابا في جامعه أورد فيه أربعين حديثا. و قال القاضي أبو بكر بن العربي: لم أر من أهل الحديث من صنّف فأفرد للأمثال بابا غير أبي عيسى، و لله دره، لقد فتح بابا، و بنى قصرا أو دارا، و لكنه اختط خطأ صغيرا. فنحن نقتنع به، و نشكره عليه»

تعريف المثل

و الأمثال: جمع مثل، و المثل و المثل و المثل: كالشبه و الشبه و الشبيه لفظا و معنى.

و المثل في الأدب: قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله، أى يشبه مضربه بمورده، مثل «رب رمية من غير رام» أى رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ، و أول من قال هذا الحكم بن يغوث النقرى، يضرب للمخطئ يصيب أحيانا، و على هذا فلا بد له من مورد يشبه مضربه به.

و يطلق المثل على الحال و القصة العجيبة الشأن. و بهذا المعنى فسر لفظ المثل فى كثير من الآيات. كقوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ١٥- محمد) «٢»: أى قصتها و صفتها التى يتعجب منها.

و أشار الزمخشري إلى هذه المعانى الثلاثة فى كشفه فقال: «و المثل فى أصل

(١) رواة الترمذي.

(٢) أنظر بلاغة القرآن للأستاذ محمد الخضر حسين صفحة ٢٦.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٣

كلامهم بمعنى المثل و النظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، و لم يضربوا مثلا و لا رأوه أهلا للتسيير و لا جديرا بالتداول و القبول الا- قولاً- فيه غرابة من بعض الوجوه. ثم قال: و قد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن و فيها غرابة.

و هناك معنى رابع ذهب اليه علماء البيان فى تعريف المثل فهو عندهم:

المجاز المركب الذى تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله. و أصله الاستعارة التمثيلية. كقولك للمتروك فى فعل أمر: «ما لى أراك تقدم رجلا و تؤخر أخرى».

وقيل في ضابط المثل كذلك: إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعةً وجمالاً. والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة، أم بطريق التشبيه الصريح؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو التشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضر بها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفسح استعماله. ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن: فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلًا.

فابن القيم يقول في أمثال القرآن: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٤

و يسوق الأمثلة: فتجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ٢٤- يونس) و منها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمني، كقوله تعالى (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ١٢- الحجرات)! إذ ليس فيه تشبيه صريح. و منها ما لم يشتمل على تشبيه ولا- استعارة، كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ٧٣- الحج) فقوله (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا) قد سماه الله مثلاً و ليس فيه استعارة و لا تشبيه.

أنواع الأمثال في القرآن

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع: ١- الأمثال المصرحة ٢- والأمثال الكامنة ٣- والأمثال المرسله.

النوع الأول:- الأمثال المصرحة:- وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه. وهي كثيرة في القرآن نورد منها ما يأتي! أ- قوله تعالى في حق المنافقين (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، صُمُّ بكم عمى فهم لا- يزجعون، أو كصيب من السماء فيه ظلمات و رعيد و برق- إلى قوله- إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧- ٢٠- البقرة).

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلاً نارياً في قوله: (كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...) لما في النار من مادة النور، و مثلاً مائياً في قوله: (أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ...) لما في الماء من مادة الحياة، و قد نزل الوحي من السماء متضمناً لاستنارة القلوب و حياتها. و ذكر الله حظ المنافقين في الحالين. فهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة و النفع حيث انتفعوا مادياً بالدخول في الإسلام، و لكن لم يكن

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٥

له أثر نوري في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) و أبقى ما فيها من الإحراق، و هذا مثلهم الناري. و ذكر مثلهم المائي فشبهم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة و رعد و برق فخارت قواه و وضع إصبعه في أذنه و غمض عينه خوفاً من صاعقه تصيبه، لأن القرآن بزواجه و أوامره و نواهي و خطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

ب- و ذكر الله المثلين: المائي و الناري- في سورة الرعد للحق و الباطل.

فقال تعالى (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ

مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ١٧- الرعد).

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياء القلوب بالماء الذي أنزله لحياء الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، و السيل إذا جرى في الأودية احتمال زبدا و غناء، فكذلك الهدى و العلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها، و هذا هو المثل المائي في قوله (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...) و هكذا يضرب الله الحق و الباطل.

و ذكر المثل الناري في قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ...) فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث و تفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن و يجفوها كما يطرح السيل و النار ذلك الزبد و هذا الخبث.

النوع الثاني من الأمثال: الأمثال الكامنة- و هي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، و لكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، و يمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١- ما في معنى قولهم (خير الأمور الوسط).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٦

أ- قوله تعالى في البقرة (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ٦٨- البقرة).

ب- قوله تعالى في النفاة (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٦٧- الفرقان).

ج- قوله تعالى في الصلاة (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ١١٠- الإسراء).

د- قوله تعالى في الإنفاق (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ٢٩- الإسراء).

٢- ما في معنى قولهم (ليس الخبر كالمعاينة).

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام (قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ٢٦٠- البقرة) ٣- ما في معنى قولهم (كما تدين تدان).

قوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ١٢٣- النساء) ٤- ما في معنى (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين).

قوله تعالى على لسان يعقوب (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ٦٤- يوسف).

النوع الثالث: الأمثال المرسله في القرآن: و هي جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهي آيات جارية مجرى الأمثال. و من أمثلة ذلك ما يأتي:

١- (الآن حَصَّصَ الْحَقَّ ٥١- يوسف) ٢- (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨- النجم) ٣- (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ٤١- يوسف)

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٧

٤- (أَلَيْسَ الضُّبْحُ بِقَرِيبٍ ٨١- هود) ٥- (لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ٦٧- الأنعام) ٦- (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ٤٣- فاطر) ٧- (قُلْ كُلُّ

يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ٨٤- الإسراء) ٨- (وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ٢١٦ البقرة) ٩- (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا ٣٨- المدثر)

١٠- (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ٦٠- الرحمن) ١١- (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَمْ يُحِزُّوا فَرِحُوا ٥٣ المؤمنون) ١٢- (ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ

الْمَطْلُوبُ ٧٣- الحج) ١٣- (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ٦١- الصافات) ١٤- (لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ١٠٠- المائدة) ١٥- (كَمْ مِنْ

فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ٢٤٩- البقرة) ١٦- (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ١٤- الحشر).

و اختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ما حكم استعماله استعمال الأمثال؟

فراءه بعض أهل العلم خروجا عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ) «جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند التاركه، و ذلك غير جائز، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه».

و رأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفا شديدا لنزول كارثته قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ) أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواؤه إلى باطله فيقول (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) و الإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل و المزاح (١).

فوائد الأمثال

١- الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله

(١) بلاغة القرآن صفحة ٣٣

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٨

العقل لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ٢٦٤- البقرة).

٢- و تكشف الأمثال عن الحقائق، و تعرض الغائب في معرض الحاضر، كقوله تعالى (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ٢٧٥- البقرة).

٣- و تجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال الكامنة و الأمثال المرسله في الآيات الأنفة الذكر.

٤- و يضرب المثل للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُئِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١- البقرة) ٥- و يضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ١٢- الحجرات).

٦- و يضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ٢٩- الفتح) و كذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلا، ثم أخذوا في النمو حتى استحکم أمرهم. و امتلأت القلوب إعجابا بعظمتهم.

٧- و يضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٩

الله مثلا- لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به، و انحدر في الدنيا منغمسا. فقال تعالى (وَ أَتَى عَلَىٰ آلِهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ١٧٤، ١٧٥- الأعراف) ٨- و الأمثال أوقع في النفس، و أبلغ في الوعظ، و أقوى في الزجر، و أقوم في الإقناع، و قد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكير و العبرة، قال تعالى:

(وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧- الزمر) و قال: (وَ تَلَمَّكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ٤٣- العنكبوت) و ضربها النبي صلى الله عليه و سلم في حديثه، و استعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق و إقامة الحجة، و يستعين بها المربون، و يتخذونها من وسائل الإيضاح و التشويق، و وسائل التربية في الترغيب أو التنفير، في المدح أو الذم.

ضرب الأمثال بالقرآن:

جرت عادة أهل الأدب أن يسوقوا الأمثلة في مواطن تشبه الأحوال التي قيلت فيها، وإذا صح هذا في أقوال الناس التي جرت مجرى المثل، فإن العلماء يكرهون ضرب الأمثال بالقرآن، ولا يرون أن يتلو الإنسان آية من آيات الأمثال في كتاب الله عند شيء يعرض من أمور الدنيا، حفاظا على روعة القرآن، و مكانته في نفوس المؤمنين قال أبو عبيد: «و كذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهّم بحاجته، فيأتيه من غير طلب فيقول كالمزاح (جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ٤٠- طه) فهذا من الاستخفاف بالقرآن، و منه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله و لا بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال ابو عبيد: يقول: لا تجعل لهما نظيرا من القول و لا الفعل.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٠

١٩- اقسام القرآن

إشارة

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق و انقياده لنوره، فالنفس الصافية التي لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى، و تفتح قلبها لإشعاعه، و يكفيها في الانصياع إليه اللمحة و الإشارة. أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، و غشيتها ظلمة الباطل فلا يهتر قلبها إلا- بمطارق الزجر، و صيغ التأكيد، حتى يتزعزع نكيرها. و القسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، و الاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد. «١»

تعريف القسم و صيغته

و الأقسام: جمع قسم: بفتح السين، بمعنى الحلف و اليمين، و الصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل أقسم أو أخلف متعديا بالباء إلى المقسم به. ثم يأتي المقسم عليه، و هو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى (وَ أَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ٣٨- النحل) فأجزاء صيغة القسم ثلاثة: ١- الفعل الذي يتعدى بالباء ٢- و المقسم به ٣- و المقسم عليه.

(١) أفرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم في كتابه «أقسام القرآن»، المسمى بالبيان و هو كتاب فريد في بابه اختصرنا منه هذا المبحث.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩١

و لما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف و يكتفى بالباء «١» ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى (وَ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ١- الليل) و بالتاء في لفظ الجلالة كقوله (وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ٥٧- الأنبياء) و هذا قليل، أما الواو فكثيرة.

و القسم و اليمين واحد: و يعرف بأنه: ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الاقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادا، و سمي الحلف يمينا لان العرب كان أحدهم يأخذ يمين صاحبه عند التحالف.

فائدة القسم في القرآن

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير و اختلاف الأساليب بتنوع الأغراض، و للمخاطب حالات مختلفة، هي المسماة في المعاني بأضرب الخبر

الثلاثة:

الابتدائي، والطلبى، والإنكارى.

فقد يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم فيلقى اليه الكلام غفلا من التأكيد، ويسمى هذا الضرب ابتدائيا. وقد يكون مترددا في ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده، ويسمى هذا الضرب طلبيا. وقد يكون منكرا للحكم، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة و ضعفا، ويسمى هذا الضرب إنكاريا. والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد. فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، و يقيم الحجة، و يؤكد الاخبار، و يقرر الحكم في أكمل صورة.

(١) و الباء لم ترد في القرآن إلا مع فعل القسم، كقوله تعالى: (وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ٥٣ النور).

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٢

المقسم به في القرآن

يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته و صفاته، و إقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته. و قد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع:

١- في قوله (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَنُبْعَثُنَّ ٧- التباين) ٢- وقوله (وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ ٣- سبأ) ٣- وقوله (وَ يَسْتَبْشِرُونَكَ أَ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ ٥٣- يونس) و في هذه الثلاثة أمر الله نبيه صلى الله عليه و سلم أن يقسم به ٤- وقوله (فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ ٦٨- مريم) ٥- وقوله (فَو رَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعين ٩٢- الحجر) ٦- وقوله (فَلَا- وَ رَبِّكَ لَا- يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ٦٥- النساء) ٧- وقوله (فَلَا- أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَ الْمَغَارِبِ ٤٠- المعارج).

و سائر القسم في القرآن بمخلوقاته سبحانه، كقوله (وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا، وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ... ١- ٧- الشمس)، و قوله (وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ، وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ، وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ ١: ٣- الليل) و قوله (وَ الْفَجْرِ وَ لَيَالٍ عَشْرًا ١، ٤- الفجر) و قوله (فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ١٥- التكوير) و قوله (وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ وَ طُورِ سِينِينَ ١، ٢- التين) و هذا هو الكثير في القرآن.

و لله أن يحلف بما شاء، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك، فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك (١)». و إنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها، و هو الله تعالى، و للإشارة إلى فضيلتها و منفعتها ليعتبر الناس بها. و عن الحسن قال: «إن الله يقسم بما شاء من خلقه و ليس لأحد أن يقسم إلا بالله» (٢).

(١) رواه الترمذى و حسنه، و صححه الحاكم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٣

أنواع القسم

القسم إما ظاهر، و إما مضمّر.

١- فالظاهر:- هو ما صرح فيه بفعل القسم، و صرح فيه بالمقسم به، و منه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء او الواو أو التاء.

وقد أدخلت- (لا)- النافية على فعل القسم في بعض المواضع. كقوله تعالى (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ ١، ٢- القيامة) فقيل: لا- في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام، و التقدير مثلا: لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب و لا عقاب، ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، و بالنفس اللوامة، إنكم ستبعثون، و قيل: لا. لنفى القسم كأنه قال:

لا- أقسم عليك بذلك اليوم و تلك النفس، و لكنى أسألك غير مقسم، أ تحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا- يحتاج إلى قسم- و قيل: لا. زائدة- و جواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد: أ يحسب الإنسان. الخ، و التقدير: لتبعثن و لتحاسبين.

٢- و القسم المضمّر: هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم و لا بالمقسم به، و إنما تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى (لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ١٨٦- آل عمران) أي و الله لتبلون.

احوال المقسم عليه

١- المقسم عليه يراد بالقسم توكيده و تحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمر الغائبة و الخفية إذا أقسم على ثبوتها. ٢- و جواب القسم يذكر تارة- و هو الغالب- و تارة يحذف، كما يحذف جواب لو كثيرا، كقوله (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥- التكاثر) و حذف مثل هذا من أحسن الأساليب، لأنه يدل على التفضيم و التعظيم، فالتقدير مثلا:

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٤

لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفلتم ما لا يوصف من الخير، فحذف جواب القسم كقوله (وَ الْفَجْرِ، وَ لَيَالٍ عَشْرٍ، وَ الشَّفَعِ وَ الْوَثْرِ، وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٍ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٍ لِإِثْنَى حَجْرٍ ١: ٦- الفجر) فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز و جل به. فلا يحتاج إلى جواب، و قيل: الجواب محذوف، أي: لتعذبين يا كفار مكة، و قيل:

مذكور، و هو قوله (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ١٤- الفجر) و الصحيح المناسب أنه لا يحتاج إلى جواب.

وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه، كقوله تعالى (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ) فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ... الخ) و التقدير: لتبعثن و لتحاسبين.

٣- و الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جوابا للقسم تلزمه اللام و قد، و لا يجوز الاختصار على إحداهما إلا عند طول الكلام. كقوله تعالى (وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا، وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا، وَ الْبَارِضِ وَ مَا طَحَاهَا، وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ١: ٨- الشمس) فجواب القسم (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) حذفت منه اللام لطول الكلام.

و لذلك قالوا في قوله تعالى (وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ، قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ١: ٤- البروج): إن الأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، و أنه من آيات الرب العظيمة، و قيل الجواب محذوف دل عليه (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) أي أنهم ملعونون، يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، و قيل حذف صدره، و تقديره: لقد قتل لأن الفعل الماضي إذا وقع جوابا للقسم تلزمه اللام و قد، و لا يجوز الاختصار على إحداهما إلا عند طول الكلام، كما سبق في قوله تعالى (وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا ... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا). مباحث في علوم القرآن ٢٩٥ احوال المقسم عليه ص: ٢٩٣

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٥

٤- و يقسم الله على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على التوحيد كقوله (وَ الصَّافَّاتِ صِيْفًا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا،

فَالْتَالِيَاتِ ذِكْرًا، إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤- الصافات).

و تارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٥: ٧٧- الواقعة).

و تارة على أن الرسول حق كقوله (يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١: ٣- يس).

و تارة على الجزاء و الوعد و الوعيد، كقوله (وَ الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا، فَالْجَارِيَاتِ يُسِيرًا، فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا، إِنَّمَا تُوعِدُونَ لِصَادِقٍ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝١: ٦- الذاريات).

و تارة على حال الإنسان، كقوله (وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى، وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى، إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝١: ٤- الليل). و المتتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة.

٥- و القسم إما على جملة خبرية- و هو الغالب- كقوله تعالى (فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ۝٢٣- الذاريات)، و إما على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى (فَو رَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٢، ٩٣- الحجر) لأن المراد التهديد و الوعيد. مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٦

القسم و الشرط

يجتمع القسم و الشرط فيدخل كل منهما على الآخر فيكون الجواب للمتقدم منهما- قسما كان أو شرطا- و يغني عن جواب الآخر. فإن تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم و أغنى عن جواب الشرط، كقوله تعالى: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَمَأْرُجْمَنَكَ ۝٤٦- مريم) إذ التقدير: و الله لئن لم تنته.

و اللام الداخلة على الشرط ليست بلام جواب القسم كالتى فى مثل قوله تعالى (وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ۝٥٧- الأنبياء) و لكنها اللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبنى على قسم قبلها لا على الشرط، و تسمى اللام المؤذنة، و تسمى كذلك الموطئة، لأنها وطأت الجواب للقسم، أى مهدئه له. و منه قوله تعالى: (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤَلِّنَّ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢- الحشر) و أكثر ما تدخل اللام الموطئة على «إن» الشرطية، و قد تدخل على غيرها. و لا يقال: إن الجملة الشرطية هى جواب القسم المقدر، فإن الشرط لا يصلح أن يكون جوابا، لأن الجواب لا يكون إلا خيرا، و الشرط إنشاء، و على هذا فإن قوله تعالى فى المثال الأول: (لَأَرْجُمَنَّكَ) يكون جوابا للقسم المقدر أغنى عن جواب الشرط.

و دخول اللام الموطئة للقسم على الشرط ليس واجبا، فقد تحذف مع كون القسم مقدر قبل الشرط. كقوله تعالى: (وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣- المائدة).

و الذى يدل على أن الجواب للقسم لا- للشرط دخول اللام فيه و أنه ليس بمجزوم، بدليل قوله تعالى: (لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۝٨٨- الإسراء)، و لو كانت جملة (لا يأتون) جوابا للشرط لجزم الفعل.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٧

و أما قوله تعالى (وَ لَئِنْ مَتَّمْ أَوْ قَتَلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُخَشَرُونَ ۝١٥٨- آل عمران) فاللام فى (وَ لَئِنْ) هى الموطئة للقسم، و اللام فى (لِإِلَى اللَّهِ) هى لام القسم، أى الواقعة فى الجواب، و لم تدخل نون التوكيد على الفعل «١» للفصل بينه و بين اللام بالجاء و المجرور و الأصل: لئن متم أو قتلتم لتخشرون إلى الله.

إجراء بعض الأفعال مجرى القسم:

إذا كان القسم يأتى لتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجرى مجراه إذا كان سياق الكلام فى معناه، كقوله تعالى: (وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ

ميثاق الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ ۙ - آل عمران) فاللام في قوله (لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ) لام القسم، و الجملة بعدها جواب القسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف.

و حمل المفسرون على هذا قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۚ - البقرة) وقوله: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ۚ - البقرة) وقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ - النور).

(١) يجب توكيد الفعل إذا كان مثبتا مستقبلا، جوابا لقسم، غير مفصول من لامة بفاصل، و جواب القسم هنا و إن كان مثبتا مستقبلا فانه قد فصل بينه و بين اللام بالجار و المجرور.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٨

٢٠- جدل القرآن «١»

إشارة

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان و تنطق بها شواهد الكون و لا- يحتاج إلى برهان على ثبوتها، أو دليل على صحتها. و لكن المكابرة كثيرا ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك و تمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق، و تزينها في مرآة العقل، فهي في حاجة إلى مقارعتها بالحجة، و استدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت او كفرت. و القرآن الكريم- و هو دعوة الله إلى الإنسانية كافة- وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه و مجادلته أصوله. فألجم خصومتهم بالحس و العيان، و عارضهم في أسلوب مفتح، و استدلال ملزم، و جدل محكم.

تعريف الجدل

و الجدل و الجدل:- المفاوضة على سبيل المنازعة و المغالبة للإلزام الخصم، أصله من جدلت الجبل: أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.

و قد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۚ - الكهف) أي خصومه و منازعته.

(١) أفرده من المتأخرين بالتصنيف العلامة سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم المعروف بابن أبي العباس الحنبلي نجم الدين الطوفي المتوفى سنة ٧١٦ هـ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٩٩

و أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنه التي تلين عريكتهم في قوله (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ - النحل).

و أباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله (وَ لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ - العنكبوت).

و مثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، و إقامة البرهان على صحتته، و هي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين و إلزام المعاندين. بخلاف مجادلته أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قال تعالى (وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ۚ - الكهف).

طريقة القرآن في المناظرة

و القرآن الكريم تناول كثيرا من الأدلة و البراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة و الخاصة، و أبطل كل شبهة فاسدة و نقضها بالمعارضة و المنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث. و لم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات و النتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلية على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزئين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء.

أ- لأن القرآن جاء بلسان العرب، و خاطبهم بما يعرفون.

ب- و لأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٠

بما تشاهد و تحس دون عمل فكري عميق أقوى أثرا و أبلغ حجة.

ج- و لأن ترك الجلي من الكلام و الالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض و الإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة، و هو على طريقة المناطقة ليس سليما من كل وجه، فأدلة التوحيد و المعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين): «و ما يذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه و تعالى لا يدل شيء منها على عينه، و إنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإننا إذا قلنا: هذا محدث، و كل محدث فلا بد له من محدث. أو ممكن، و الممكن لا بد له من واجب، إنما يدل هذا على محدث مطلق، أو واجب مطلق... لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه»... و قال: «فبرهانهم لا يدل على شيء معين بخصوصه، لا واجب الوجود و لا غيره، و إنما يدل على أمر كلي، و الكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، و واجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، و من لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله»... و قال: «و هذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤- البقرة) و قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) و غير ذلك، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار... و قال تعالى (وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ ١٢- الإسراء) فالآيات تدل على نفس الخالق

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠١

سبحانه لا على قدر مشترك بينه و بين غيره، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه.» فأدله الله على توحيده و ما أخبر به من المعاد، و ما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولى أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عينا، و العلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، و انتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطبوعها، و هذا النوع من الاستدلال بدهى يستوى في إدراكه كل العقول.

قال الزركشى: «١» «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين و الأدلة، و ما من برهان و دلالة و تقسيم و تحديد شيء من كليات المعلومات العقلية و السمعية إلا و كتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: (وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ٤- إبراهيم) الآية و الثانى: أن المائل إلى دقيق المحاجه هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكترون لم يتخط إلى الأغمض الذى لا

يعرفه إلا- الأقلون و لم يكن ملغزا، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم و يلزمهم الحجة، و تفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء.

و على هذا حمل الحديث المروى: «إن لكل آية ظهرا و بطنا و لكل حرف حدا و مطلقا» لا على ما ذهب إليه الباطنية، و من هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، و لذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته و وحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولى العقل، و مرة إلى

(١) انظر «البرهان» صفحة ٢٤ و ما بعدها، بتصرف.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٢

السامعين، و مرة إلى المفكرين، و مرة إلى المتذكرين، تنبيهها أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، و ذلك نحو قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤- الرعد) و غيرها من الآيات.

و اعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين و من ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد، بدلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ٢٢- الأنبياء) لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام، و لا- يتسق على إحكام، و لكان العجز يلحقهما أو أحدهما، و ذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم، و أراد الآخر إماتته، فما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، و إما لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، و الإله لا يكون عاجزا.

أنواع من مناظرات القرآن و أدلته

أ- ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر و التدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته، و الإيمان بملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر- و هذا النوع كثير في القرآن.

فمنه قوله تعالى (يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢١، ٢٢- البقرة) و قوله تعالى (وَ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ- إلى قوله- (لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٣، ١٦٤- البقرة).

ب- ما يرد به على الخصوم و يلزم أهل العناد، و لهذا صور مختلفة:

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٣

١- منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم و تسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ، أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَ لَكُمْ الْبُنُونَ، أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ، أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ، أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ، أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣٥-٤٣- الطور).

٢- الاستدلال بالمبدأ على المعاد. كقوله تعالى (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥- ق) و قوله (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ٣٦-٤٠، القيامة) و قوله (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ؟ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ ٥: ٨- الطارق)- و مثله الاستدلال بحياء الأرض بغير موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله (وَ مِنْ

آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى ۗ (فصلت- ٣٩).

٣- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها- كقوله تعالى (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ٩١- الأنعام) ردا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ).

٤- السبر و التقسيم- بحصر الأوصاف، و إبطال أن يكون واحد منها علته للحكم، كقوله تعالى (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٤

حَرَّمَ أَمْ الْأُنثِيَيْنِ أَمَْا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نُبُونِي بِعَلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثِيَيْنِ، أَمَْا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٤٢- ١٤٤- الأنعام).

٥- إفحام الخصم و إلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد- كقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ، يَدْبِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبِيَّةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٠٠- ١٠١، الأنعام) فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، و أن التولد إنما يكون من اثنين، و هو سبحانه لا صاحبه له، و أيضا فإنه خلق كل شيء، و خلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، و هو بكل شيء عليم، و علمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلا- بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة و الفاعل بالطبع، فيمتنع مع كونه عالما أن يكون كالأمر الطبعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور- كالحر و البارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه «١».

و هناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة، كمنافرة الانبياء مع أممهم، أو فريق المؤمنين مع المنافقين، و ما شابه ذلك.

(١) هذه الفقرة (*) من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية، و هي رائعة في الاستدلال.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٥

٢١- قصص القرآن

إشارة

الحادثة المرتبطة بالأسباب و النتائج يهفو إليها السمع. فاذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفة من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، و الموعة الخطابية تسرد سردا لا يجمع العقل أطرافها و لا يعي جميع ما يلقي فيها، و لكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، و يرتاح المرء لسماعها، و يصغى إليها بشوق و لهفة، و يتأثر بما فيها من عبر و عظات، و قد أصبح أدب القصة اليوم فنا خاصا من فنون اللغة و آدابها، و القصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل، و يصوره في أبلغ صورة قصص: القرآن الكريم.

معنى القصص

القصص: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، و القصص مصدر، قال تعالى (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصِيصًا ٦٤- الكهف) أي رجعا يقصان الأثر الذي جاء به. و قال على لسان أم موسى (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ١١- القصص) أي تبعى أثره حتى تنظري من يأخذه. و

القصص كذلك: الأخبار المتتبعه قال تعالى (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ٦٢- آل عمران) وقال (لَقَدْ كَانَ فِي

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٦

قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ١١١- يوسف) والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة- وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار. وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

انواع القصص في القرآن

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول:- قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقة المؤمنين والمكذابين. كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصص الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وطالوت و جالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذو القرنين، وقارون، وأصحاب السبت ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٧

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآني فوائد نجل أهمها فيما يأتي:- ١- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي (وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلَّا نوحى إليه أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ٢٥- الأنبياء).

٢- تثبيت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله (وَكَأَنَّ نَقْصُ عَلِيكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠- هود).

٣- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

٤- إظهار صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

٥- مقارنته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيئات والهدى، وتحديد لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٩٣- آل عمران).

٦- والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغى إليه السمع، وترسخ عبره في النفس، (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ١١١- يوسف).

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، و تعرض في صور مختلفة في التقديم و التأخير، و الإيجاز و الإطناب، و ما شابه ذلك. و من حكمة هذا:

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٨

١- بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها. فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، و القصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر، و تصاغ في قالب غير القالب، و لا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

٢- قوة الإعجاز- فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

٣- الاهتمام بشأن القصة لتمكين غيرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد و امارات الاهتمام. كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق و الباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

٤- اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة- فتذكر بعض معانيها الوافية بالعرض في مقام، و تبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

القصة في القرآن حقيقة لا خيال

و من الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين في مصر قدم رسالة لنيل درجة «الدكتوراة» كان موضوعها «الفن القصصي في القرآن» «١» أثار جدلا طويلا سنة ١٣٦٧ هجرية، و كتب عنها أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة، و هو الأستاذ أحمد أمين- تقريرا بعث به إلى عميد كلية الآداب، و نشر في مجلة «الرسالة» و قد تضمن التقرير نقدا لاذعا لما كتبه الطالب الجامعي، و ان كان أستاذه المشرف قد دافع عنه. و صدر الأستاذ «أحمد أمين تقريره بالعبارة الآتية:

(١) هو الدكتور محمد أحمد خلف الله.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٠٩

«و قد وجدتها رسالة ليست عادية، بل هي رسالة خطيرة، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق و ابتكار من غير التزام لصدق التاريخ. و الواقع أن محمدا فنان بهذا المعنى» ثم قال: «و على هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها، و أنى أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة و كيفية بنائها» ثم أورد الاستاذ «أحمد أمين» أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجمل. «١» كادعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي. و إنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويرا فنيا، و زعمه أن القرآن يختلق بعض القصص و أن الأقدمين أخطئوا في عدّ القصص القرآني تاريخا يعتمد عليه ...

و المسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله، و أنه منزه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يعنى فيه بالواقع التاريخي، و ليس قصص القرآن الا الحقائق التاريخية تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المنتقاة، و الأساليب الرائعة.

و لعل صاحب الرسالة درس فن القصة في الأدب، و أدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذي يعتمد على التصور، و أنه كلما ارتقى خيالها و نأى عن الواقع كثر الشوق إليها، و رغبت النفس فيها، و استمتعت بقراءتها. ثم قاس القصص القرآني على القصة الأدبية.

و ليس القرآن كذلك، فإنه تنزّل من عليم حكيم، و لا- يرد في أخباره إلا- ما يكون موافقا للواقع، و إذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زورا و يعدونه من أقبح الرذائل المزريّة بالإنسانية، فكيف يسوغ لعاقل أن يلصق الزور بكلام ذي العزة و

الجلال؟

والله تعالى هو الحق:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ۚ - الحج)

(١) انظر نقد كتاب «الفن القصصي في القرآن» للأستاذ محمد الخضر حسين - بلاغة القرآن صفحة ٩٤

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١٠

و أرسل رسوله بالحق (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا ۚ - فاطر) (وَأَلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ۚ - فاطر) (يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ - النساء) (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۚ - المائدة) (وَأَلَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ۚ - الرعد) و ما قصه الله تعالى في القرآن هو الحق:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ۚ - الكهف) (تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ۚ - القصص)

أثر القصص القرآني في التربية و التهذيب

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف - و تنفذ إلى النفس البشرية بسهولة و يسر، و تسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل و لا تكدر، و يرتاد العقل عناصرها فيجنى من حقولها الأزاهير و الثمار.

و الدروس التلقينية و الإلقائية تورث الملل، و لا تستطيع الناشئة أن تتابعها و تستوعب عناصرها إلا بصعوبة و شدة. و إلى أمد قصير. و لذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً، و أكثر فائدة.

و المعهود - حتى في حياة الطفولة - أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية، و يصغى إلى رواية القصة، و تعي ذاكرته ما يروى له، فيحاكيه و يقصه.

هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم، لا سيما التهذيب الديني، الذي هو لب التعليم، و قوام التوجيه فيه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١١

و في القصص القرآني تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم، و تمدهم بزايد تهذيبي، من سيرة النبيين، و أخبار الماضين و سنة الله في حياة المجتمعات، و أحوال الأمم. و لا تقول في ذلك إلا حقا و صدقا.

و يستطيع المربي أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذي يلائم المستوى الفكري للمتعلمين، في كل مرحلة من مراحل التعليم. و قد نجحت مجموعة القصص الديني للأستاذين «سيد قطب، و السحار» في تقديم زاد مفيد نافع لصغارنا نجاحا معدوم النظير، كما قدم «الجارم» القصص القرآني في أسلوب أدبي بليغ أعلى مستوى، و أكثر تحليلا - و عمقا. و حبذا لو نهج آخرون هذا النهج التربوي السديد (١).

(١) صدر للسيد أبي الحسن على الحسن الندوي مجموعة قصص النبيين و هي من القصص الرائدة (الناشر)

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١٢

- ٢٢ - ترجمة القرآن

يتوقف نجاح الدعوة إلى حد كبير على التقارب بين الداعية و أمته. فالداعية الذي ينبت من صميم البيئته يكون على دراية كاملة بمسالك الغواية و دروب الجهالة التي يغشاها قومه. يعرف نفوسهم و الأبواب التي يطرقها منها حتى تتفتح لتعاليم دعوته، و تهتدى بهداها، و التخاطب بينهما بلسان واحد رمز للتجانس الاجتماعي في جميع صورته. و في هذا يقول الله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۚ - إبراهيم).

و قد نزل القرآن الكريم على الرسول العربي بلسان عربي مبين، فكانت هذه الظاهرة ضرورة اجتماعية لنجاح رسالة الإسلام، و منذ ذلك الحين أصبحت اللغة العربية جزءاً من كيان الإسلام، و أساساً للتخاطب في إبلاغ دعوته. و كانت بعثته رسولنا صلى الله عليه و سلم إلى الإنسانية كلها. و أعلن ذلك القرآن في غير موضع (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ١٥٨- الأعراف) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا ٢٨- سبأ) و نشأت نواة الدولة الإسلامية في جزيرة العرب، و لا شك أن اللغة تحيا بحياة أمتها و تموت بموتها، فكانت نشأة الدولة الإسلامية على هذا النحو حياة للغة العرب، فالقرآن وحي الإسلام، و الإسلام دين الله المفروض، و لن يتأتى معرفة

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١٣

أصوله و أسسه إلا إذا فهم القرآن بلغته، فأخذت موجة الفتح الإسلامي تمتد إلى الألسنة الأخرى الأعجمية، فتعربها بالإسلام، و صار لزاماً على كل من يدخل في حوزة هذا الدين الجديد أن يستجيب له في لغة كتابه باطنا و ظاهراً، حتى يستطيع القيام بواجباته، و لم يكن هناك حاجة إلى ترجمة القرآن له ما دام القرآن قد ترجم لسانه و عربيه إيماناً و تسليماً.

معنى الترجمة

و الترجمة تطلق على معنيين:- أولهما: الترجمة الحرفية:- و هي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللغة الأخرى بحيث يكون النظم موافقاً للنظم، و الترتيب موافقاً للترتيب.

ثانيهما: الترجمة التفسيرية أو المعنوية:- و هي بيان معنى الكلام بلغته أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه. و الذين على بصير باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل و الإحاطة بجميع معناه. فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة. فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل في الاستفهام و غيره، و المضاف مقدم على المضاف إليه، و الموصوف مقدم على الصفة، إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلاً كالجين الماء، أو كان الكلام من إضافة الصفة، إلى معمولها كعظيم الأمل، و ليس الشأن كذلك في سائر اللغات.

و التعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغته أخرى، فإن الألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلاً عن التراكيب.

و القرآن الكريم في قمة العربية فصاحة و بلاغة، و له من خواص التراكيب

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١٤

و أسرار الأساليب و لطائف المعاني، و سائر آيات إعجازه ما لا يستقل بأدائه لسان.

حكم الترجمة الحرفية

و لهذا لا يجد المرء أدنى شبهة في حرمة ترجمة القرآن ترجمة حرفية. فالقرآن كلام الله المنزل على رسوله المعجز بألفاظه و معانيه المتعبد بتلاوته، و لا- يقول أحد من الناس إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها إنها كلام الله، فإن الله لم يتكلم إلا بما نتلوه بالعربية، و لن يتأتى الإعجاز بالترجمة، لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية- و الذي يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربي المبين

بألفاظه و حروفه و ترتيب كلماته.

فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات و أساليبها و تراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآنا.

الترجمة المعنوية

القرآن الكريم و كذا كل كلام عربي بليغ - له معان أصلية، و معان ثانوية.

و المراد بالمعاني الأصلية المعاني التي يستوى في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة و عرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية.

و المراد بالمعاني الثانوية خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام، و بها كان القرآن معجزا.

فالمعنى الأصلي لبعض الآيات قد يوافق فيه منشور كلام العرب أو منظومه، و لا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن، فإن إعجازه بيديع نظمه و روعة بيانه، أي

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١٥

بالمعنى الثانوي. و إياه عنى الزمخشري في كشافه بقوله: «إن في كلام العرب - خصوصا القرآن - من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان».

حكم الترجمة المعنوية

و ترجمة معاني القرآن الثانوية أمر غير ميسور، إذ أنه توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب، و ذلك ما لا يسهل على أحد ادعاؤه. و هو ما يقصده الزمخشري من عبارته السابقة. فوجوه البلاغة القرآنية في اللفظ أو التركيب. تنكيروا و تعريفا، أو تقديمها و تأخيرا، أو ذكرا و حذفها، إلى غير ذلك مما تسامت به لغة القرآن، و كان له وقعة في النفوس - هذه الوجوه في بلاغة القرآن لا يفى بحقها في أداء معناها لغة أخرى، لأن أي لغة لا تحمل تلك الخواص.

أما المعاني الأصلية فهي التي يمكن نقلها إلى لغة أخرى. و قد ذكر الشاطبي في الموافقات المعاني الأصلية و المعاني الثانوية ثم قال: «إن ترجمة القرآن على الوجه الأول - يعني النظر إلى معانيه الأصلية - ممكن - و من جهته صح تفسير القرآن و بيان معانيه للعامه و من ليس لهم فهم يقوى على تحصيل معانيه. و كان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي» و مع هذا فإن ترجمة المعاني الأصلية لا تخلو من فساد فإن اللفظ الواحد في القرآن قد يكون له معنيان أو معان تحتملها الآية فيضع المترجم لفظا يدل على معنى واحد حيث لا يجد لفظا يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة.

و قد يستعمل القرآن اللفظ في معنى مجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي. و لهذا و نحوه وقعت أخطاء كثيرة فيما ترجم لمعاني القرآن.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١٦

و ما ذهب إليه الشاطبي و اعتبره حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي ليس على إطلاقه. فإن بعض العلماء يخص هذا بمقدار الضرورة في إبلاغ الدعوة. بالتوحيد و أركان العبادات، و لا يتعرض لما سوى ذلك، و يؤمر من أراد الزيادة بتعلم اللسان العربي.

الترجمة التفسيرية

و يحق لنا أن نقول: إن علماء الإسلام إذا قاموا بتفسير للقرآن، يتوخى فيه أداء المعنى القريب الميسور الراجح، ثم يترجم هذا التفسير

بأمانه و براعة، فإن هذا يقال فيه «ترجمة تفسير القرآن» أو «ترجمة تفسيرية» بمعنى شرح الكلام و بيان معناه بلغة أخرى. و لا بأس بذلك، فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه و سلم برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها و ألوانها «و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعث إلى الناس كافة» (١) و شرط لزوم الرسالة البلاغ- و القرآن الذي نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمم العربية ملزما لها، و لكن سائر الأمم التي لا تحسن العربية، أو لا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها. و قد عرفنا قبل استحالة الترجمة الحرفية و حرمتها. و استحالة ترجمة المعاني الثانوية، و مشقة ترجمة المعاني الأصلية و ما فيها من أخطار، فلم يبق إلا أن يترجم تفسير القرآن الذي يتضمن أسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب و صريح السنة إلى لسان كل قبيل حتى تبلغهم الدعوة و تلتزمهم الحجة. و ترجمة تفسير للقرآن على نحو ما ذكرنا يصح أن نسميها بالترجمة التفسيرية. و هي تختلف عن الترجمة المعنوية و إن كان الباحثون لا يفرقون بينهما، فإن الترجمة المعنوية توهم أن المترجم أخذ معاني القرآن من أطرافها و نقلها إلى اللغة الأجنبية، كما يقال في ترجمة غيره: ترجمة طبق الأصل. فالمفسر يتكلم بلهجة المبين لمعنى الكلام على حسب فهمه، فكأنه يقول للناس: هذا ما أفهمه من الآية،

(١) من حديث: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ... فى الصحيحين و غيرهما ...».

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣١٧

و المترجم يتكلم بلهجة من أحاط بمعنى الكلام و صبه فى ألفاظ لغة أخرى. و شتان بين الأمرين. فالمفسر يقول فى تفسير الآية: يعنى كذا، و يذكر فهمه الخاص.

و المترجم يقول: معنى هذا الكلام هو عين معنى الآية، و قد عرفنا ما فى ذلك.

و ينبغى أن يؤكد فى الترجمة التفسيرية أنها ترجمة لفهم شخصى خاص، لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعانى القرآن، و إنما تتضمن ما أدركه المفسر منها، و بهذا تكون ترجمة للعقيدة الإسلامية و مبادئ الشريعة كما تفهم من القرآن.

و إذا كان إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام فإن ما يتوقف على هذا البلاغ من دراسة اللغات و نقل أصول الإسلام إليها واجب كذلك. كما أن معرفتنا لهذه اللغات بالقدر الضرورى تمكننا من دراسة كتبها للرد على المبشرين و المستشرقين الذين غمزوا عود الإسلام من بعيد أو قريب، و هذا هو ما عناه شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه «العقل و النقل» عند ما قال: «و أما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم و لغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك، و كانت المعانى صحيحة- كمخاطبة العجم من الروم و الفرس و الترك بلغتهم و عرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة، و إنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه» ثم قال: «و لذلك يترجم القرآن و الحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة، و كذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم و كلامهم بلغتهم، و يترجم بالعربية، كما أمر النبى صلى الله عليه و سلم زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقراً له و يكتب له ذلك. حيث لم يأتمن اليهود عليه» و إذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقى و لو للمعاني الأصلية لا تيسر فى جميع آيات القرآن. و إنما الميسر الترجمة على معنى التفسير كان من الضرورى إشعار القارئ بذلك، و من وسائله كتابة جمل فى حواشى الصحائف يبين بها أن هذا أحد وجوه أو أرجح وجوه تحتملها الآية «و لو قامت جماعة ذات نيات صالحة و عقول راجحة. و تولت نقل تفسير القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية، و هى على بينة

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣١٨

من مقاصده- و على رسوخ فى معرفة تلك اللغات، و تحامت الوجوه التى دخل منها الخلل فى التراجم السائرة اليوم فى أوروبا لفتحت لدعوة الحق سبيلا كانت مقفلة.

و نشرت الحنفية السمحة فى بلاد طافحة بالغواية قائمة» (١)

يختلف العلماء في القراءة في الصلاة بغير العربية إلى مذهبين: أحدهما: الجواز مطلقاً أو عند العجز عن النطق بالعربية. و ثانيهما: أن ذلك محذور، و الصلاة بهذه القراءة غير صحيحة. و المذهب الأول هو مذهب الأحناف، فإنه يروى عن أبي حنيفة أنه كان يرى جواز القراءة في الصلاة باللغة الفارسية، و بنى على هذا بعض أصحابه جوازها بالتركية و الهندية و غيرها من الألسنة، و لعلمهم يرون في ذلك أن القرآن اسم للمعاني التي تدل عليها الألفاظ العربية. و المعاني لا تختلف باختلاف ما قد يتعاقب عليها من الألفاظ و اللغات. و قيد الصحابان: أبو يوسف و محمد بن الحسين. هذا بما تدعو إليه الضرورة. فأجازا للعاجز عن العربية القراءة في الصلاة باللسان الأعجمي دون القادر على القراءة بها، قال في «معراج الدراية»: «إنما جوزنا القراءة بترجمة القرآن للعاجز إذا لم يخل بالمعنى، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى، فالإتيان به أولى من الترك مطلقاً، إذ التكليف بحسب الوسع .. و يروى أن أبا حنيفة رجع عن الإطلاق الذي نقل عنه. و المذهب الثاني هو ما عليه الجمهور، فقد منع المالكية و الشافعية و الحنابلة القراءة بترجمة القرآن في الصلاة، سواء أ كان المصلي قادراً على العربية أم عاجزاً،

(١) بلاغة القرآن - صفحة ٢١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣١٩

لأن ترجمة القرآن ليست قرآناً، إذ القرآن هو النظم المعجز الذي هو كلام الله، و الذي وصفه تعالى بكونه عربياً، و بالترجمة يزول الإعجاز، و ليست الترجمة كلام الله. قال القاضي أبو بكر بن العربي، و هو من فقهاء المالكية، في تفسير قوله تعالى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟ ٤٤- فصلت) قال علماؤنا: هذا يبطل قول أبي حنيفة رضى الله تعالى عنه، إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز، لأن الله تعالى قال: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟) نفى أن يكون للعجمية إليه طريق - فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه؟ ثم قال: إن التبيان و الإعجاز إنما يكون بلغة العرب، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآناً و لا بيانا و لا اقتضى إعجازاً.

و قال الحافظ ابن حجر - و هو من فقهاء الشافعية - في «فتح الباري»:

«إن كان القارئ قادراً على تلاوته باللسان العربي فلا يجوز له العدول عنه، و لا تجزئ صلاته - أى بقراءة ترجمته - و إن كان عاجزاً» ثم ذكر أن الشارع قد جعل للعاجز عن القراءة بالعربية بدلاً و هو الذكر» و قال شيخ الإسلام ابن تيمية - و هو من فقهاء الحنابلة - و إن كانت له اجتهاداته: - «و أما الإتيان بلفظ يبين المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلاً، و لهذا كان أئمة الدين على أنه لا يجوز أن يقرأ بغير العربية، لا - مع القدرة عليها و لا مع العجز عنها، لأن ذلك يخرج عن أن يكون هو القرآن المنزل» «١» و يقول ابن تيمية في «كتاب اقتضاء الصراط المستقيم» عند الحديث عن اختلاف الفقهاء في أذكار الصلاة، أ تقال بغير العربية أم لا؟: «فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور، و هذا هو

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢٠

الصواب الذي لا- ريب فيه، بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو مما يقوم به الإعجاز» و قد خص السورة أو ما يقوم به الإعجاز إشارة إلى أقل ما وقع به التحدى.

و الدين يوجب على معتقيه تعلم العربية لأنها لغة القرآن و مفتاح فهمه. قال ابن تيمية كذلك فى الاقتضاء: «و أيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين- و معرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب و السنة فرض، و لا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

أما اختلاف الأحناف فى جواز الصلاة بترجمة القرآن، فالمجيزون يرون إباحة هذا عند العجز على أنه رخصة، و هم متفقون على أن الترجمة لا تسمى قرآنا، فهي لمجرد الاجزاء فى الصلاة، و مثلها مثل ذكر الله عند غير الحنيفة.

و الذكر فى الصلاة مختلف فيه، سواء أ كان واجبا كتكبيره الاحرام أم غير واجب؟ فقد منع ترجمة الأذكار الواجبة مالك و إسحاق و أحمد فى أصح الروايتين.

و أباحها أبو يوسف و محمد و الشافعى، و سائر الأذكار لا- يترجم عند مالك و إسحاق و بعض أصحاب الشافعى، و متى فصل بالترجمة بطلت صلاته» و نص الشافعى على الكراهة و هو قول أصحاب أحمد إذا لم يحسن العربية.

قوة الامة الاسلامية هي سبيل انتصار الاسلام و سيادة لغة القرآن و تنتهى من هذا البحث إلى أن القرآن لا يمكن و لا يجوز أن يترجم ترجمة حرفية. و أن ترجمة المعانى الأصلية و إن كانت ممكنة فى بعض الآيات الواضحة المعنى فإنها لا تخلو من فساد. و أن ترجمة المعانى الثانوية غير ممكنة، لأن وجوه البلاغة القرآنية لا تؤديها ألفاظ بأى لغة أخرى.

بقى أن يفسر القرآن، و أن يترجم تفسيره لإبلاغ دعوته. قال القفال- من كبار علماء الشافعية:- «عندى أنه لا يقدر أحد على أن يأتى بالقرآن بالفارسية».

قيل له: فإذا لا يقدر أحد أن يفسر القرآن، قال: ليس كذلك، لأنه هناك

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٢١

يجوز أن يأتى ببعض مراد الله و يعجز عن بعضه، أما إذا أراد أن يقرأها بالفارسية فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله» و ترجمة التفسير تكون ضرورة بقدر الحاجة إلى إبلاغ دعوة الإسلام إلى الشعوب غير الإسلامية، قال الحافظ ابن حجر: «فمن دخل الإسلام أو أراد الدخول فيه فقرأ عليه القرآن فلم يفهمه فلا بأس أن يعزب له لتعريف أحكامه.

أو لتقوم عليه الحجة فيدخل فيه» (١).

و لقد كان المسلمون فيما سلف يقتحمون للسيادة كل وعرو و يركبون لإظهار دين الله كل خطر، و يلبسون من برود البطولة و العدل و كرم الأخلاق ما يملأ عيون مخالفيهم مهابة و إكبارا، و كانت اللغة العربية تجر رداءها أينما رفعوا رايتهم، و تنتشر فى كل واد و طئته أقدامهم، فلم يشعروا فى دعوتهم إلى الإسلام بالحاجة إلى نقل معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية، و ربما كان عدم نقلها إلى غير العربية و هم فى تلك العزة و السلطان من أسباب إقبال غير العرب على معرفة لسان العرب، حتى صارت أوطان أعجمية إلى النطق بالعربية» (٢) و الظاهرة التى نشاهدها الآن فى ضرورة تعلم اللغات الأجنبية للأمم العربية حتى تتمكن من إرسال بعثاتها العلمية إلى جامعات الدول الأخرى، أو دراسة أمهات الكتب للعلوم الكونية فى جامعاتها لأنها بلغة أجنبية لمؤلفين أجنب- هذه الظاهرة دعت إليها الحاجة إلى العلم و الثقافة، و نحن نراها تنتشر سيطرتها على تفكير الكثير و تحدد اتجاهه فى الحياة، و تصل إلى درجة الولوع بها و الشغف و التوسع فى فنونها، و قد كان لها الأثر البالغ فى الأخلاق و العادات و التقاليد مما جعل حياتنا العامة فى شتى صورها تخرج عن سمت الإسلام و طابع فضائله، و لم تكن الأمم الأخرى فى حاجة إلى ترجمة كتبها إلى اللغة العربية لما لها من المكانة العلمية فلو ظلت دولة الإسلام فى طريق نهضتها الأولى علما و ثقافة و سياسة و خلقا و قوة و سلطانا

(١) فتح الباري باب ما يجوز من تفسير التوراة و كتب الله بالعربية

(٢) بلاغة القرآن، صفحة ١٨

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢٢

و مهابة لرمقها العالم من جميع أطراف المعمورة، و تطلع إلى دراسة اللغة العربية لينهل من معين نتاج الإسلام الفكري، و يروى ظمأه من معارفه، و يستظل بسلطانه، و يحتمى في سيادته، و لرأى في هذا حاجته بمثل ما نرى نحن اليوم حاجتنا إلى لغته.

فالحديث عن ترجمة القرآن من مظاهر ضعف دولته، و حرى بنا أن يتجه نظرنا إلى بذل جهودنا في تكوين دولة القرآن و توطيد دعائم نهضتها على أساس من الإيمان و العلم و المعرفة، فهي وحدها الكفيلة بالسيطرة الروحية على أجناس البشر و تعريب ألسنتهم. و إذا كان الإسلام هو دين الإنسانية كافة، فالشأن في لغته حين نعمل على تحقيق ما كتبه الله له و لأمته من العزة أن تكون كذلك.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢٣

٢٣- التفسير والتأويل

إشارة

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية، و على فقه معناه و معرفة أسراره و العمل بما فيه تتوقف سعادتها. و لا يستوى الناس جميعا في فهم ألفاظه و عباراته مع وضوح بيانه و تفصيل آياته، فإن تفاوت الإدراك بينهم أمر لا مراء فيه فالعامي يدرك من المعاني ظاهرها و من الآيات مجملها، و الذكي المتعلم يستخرج منها المعنى الرائع. و بين هذا و ذاك مراتب فهم شتى، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتماما بالغا في الدراسة لتفسير غريب، أو تأويل تركيب.

معنى التفسير والتأويل

التفسير في اللغة:- تفعيل من الفسر بمعنى الإبانة و الكشف و إظهار المعنى المعقول، و فعله: كضرب و نصر، يقال: فسر الشيء يفسر بالكسر و يفسره بالضم فسرا، و فسّره: أبانه، و التفسير و الفسر: الإبانة و كشف المغطى، و في لسان العرب: الفسر كشف المغطى. و التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل. و في القرآن (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣- الفرقان) أى بيانا و تفصيلا و المزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢٤

و قال ابن عباس في قوله تعالى: (وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) أى تفصيلا.

و قال بعضهم: هو مقلوب من «سفر» و معناه أيضا: الكشف، يقال:

سفرت المرأة سفورا: إذا ألت خمارها عن وجهها، و هى سافرة، و أسفر الصبح: أضاء، و إنما بنوه على التفعيل، لأنه للتكثير، كقوله تعالى:

(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَ كُمْ ٤٩- البقرة) و قوله: (وَعَلَّقَتِ الْمَأْتُونَ ٢٣- يوسف) فكأنه يتبع سورة بعد سورة، و آية بعد أخرى، و قال الراغب:

الفسر و السفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول، و جعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل سفرت المرأة عن وجهها، و أسفر الصبح و التفسير في الاصطلاح:- عرفه أبو حيان بأنه: «علم يبيح عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، و مدلولاتها، و أحكامها الإفرادية و التركيبية، و معانيها التي تحمل عليها حالة التركيب و تتمات لذلك.

ثم خرج التعريف فقال: فقولنا: علم، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، هذا هو علم القراءات، وقولنا! ومدلولاتها، أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: وأحكامها الإفرادية و التركيبية، هذا يشمل علم التصريف و علم الإعراب، و علم البيان، و علم البديع، وقولنا: ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، يشمل ما دللته عليه بالحقيقة، و ما دللته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضى بظاهرة شيئا و يصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر، و هو المجاز، وقولنا: و تمت لذلك. هو معرفة النسخ و سبب النزول، و قصة توضيح بعض ما أنبهم في القرآن و نحو ذلك.

و قال الزركشى: التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه و سلم، و بيان معانيه، و استخراج أحكامه و حكمه. (١)

(١) الإتقان صفحة ١٧٤ ج ٢

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢٥

و التأويل في اللغة: مأخوذ من الأول، و هو الرجوع إلى الأصل، يقال:

آل إليه أولا- و مآلا- رجع .. و يقال: أول الكلام تأويلا- و تأوله: دبره و قدره و فسره. و على هذا: فتأويل الكلام في الاصطلاح له معنيان: ١- تأويل تأويل الكلام: بمعنى ما أوله اليه المتكلم أو ما يؤول إليه الكلام و يرجع، و الكلام إنما يرجع و يعود إلى حقيقته التي هي عين المقصود. و هو نوعان: انشاء و إخبار، و من الإنشاء الأمر.

فتأويل الأمر: هو الفعل المأمور به، و من ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في ركوعه و سجوده:

سبحانك اللهم و بحمدك اللهم أغفر لى، يتأول القرآن «١» معنى قوله تعالى (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٢- النصر). و تأويل الإخبار: هو عين المخبر به إذا وقع. كقوله تعالى: (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَا عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ٥٢، ٥٣- الأعراف) فقد أخبر أنه فصل الكتاب، و أنهم لا ينتظرون إلا تأويله، أى مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه، من القيامة و أشراطها، و ما فى الآخرة من الصحف و الموازين و الجنة و النار و غير ذلك. فحينئذ يقولون: (قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)؟

٢- تأويل الكلام: أى تفسيره و بيان معناه. و هو ما يعنيه ابن جرير الطبرى فى تفسيره بقوله: «القول فى تأويل قوله تعالى كذا و كذا» و بقوله:

«اختلف أهل التأويل فى هذه الآية» فإن مراده التفسير.

ذلك هو معنى التأويل عند السلف:

(١) رواه البخارى و مسلم

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٢٦

و التأويل فى عرف المتأخرين: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به- و هذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يراد بلفظ التأويل فى القرآن عند السلف.

هذا و من العلماء من يفرق بين المعنى، و التفسير، و التأويل، للتفاوت بينها لغة و إن كانت متقاربة، و قد نقل «الزركشى» هذا «(١):

قال ابن فارس: معانى العبارات التى يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة:

المعنى، و التفسير، و التأويل، و هى و إن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة:

فأما المعنى: فهو القصد و المراد، يقال: عنيت بهذا الكلام كذا، أى قصدت و عمدت، و هو مشتق من الإظهار، يقال: عنيت القربة، إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته، و من هذا عنوان الكتاب.

و أما التفسير فى اللغة: فهو راجع إلى معنى الإظهار و الكشف. و قال ابن الأنبارى: قول العرب: فسرت الدابة و فسّرتها، إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها، و هو يؤول إلى الكشف أيضا. فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، و إطلاق للمحتبس عن الفهم به.

و أما التأويل: فأصله فى اللغة من الأول، و معنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام؟ أى إلام تؤول العاقبة فى المراد به؟ كقوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ٥٣- الأعراف) أى تكشف عاقبته، و يقال: آل الأمر إلى كذا، أى صار إليه، و قال تعالى: (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٨٢- الكهف) و أصله من المأل، و هو العاقبة و المصير، و قد أولته قال- أى صرفته فانصرف فكأن التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعانى. و إنما بنوه على التفعيل للتكثير.

(١) انظر «البرهان» صفحة ١٤٦ ج ٢ بتصرف.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٢٧

الفرق بين التفسير و التأويل

اختلف العلماء فى الفرق بين التفسير و التأويل- و على ضوء ما سبق فى معنى التفسير و التأويل نستطيع أن نستلخص أهم الآراء فيما يأتى:

١- إذا قلنا: إن التأويل هو تفسير الكلام و بيان معناه، فالتأويل و التفسير على هذا متقاربان أو مترادفان، و منه دعوة رسول الله صلى الله عليه و سلم لابن عباس «اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل» ٢- و إذا قلنا أن التأويل هو نفس المراد بالكلام، فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب، و تأويل الخبر نفس الشئ، المخبر به، فعلى هذا يكون الفرق كبيرا بين التفسير و التأويل، لأن التفسير شرح و إيضاح للكلام، و يكون وجوده فى الذهن بتعقله، و فى اللسان بالعبارة الدالة عليه، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة فى الخارج، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، و هذا هو الغالب فى لغة القرآن كما تقدم، قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ٣٨- ٣٩- يونس) فالمراد بالتأويل وقوع المخبر به.

٣- و قيل: التفسير: ما وقع مبينا فى كتاب الله أو معينا فى صحيح السنة، لأن معناه قد ظهر و وضح، و التأويل ما استنبطه العلماء، و لذا قال بعضهم:

«التفسير ما يتعلق بالرواية، و التأويل ما يتعلق بالدراية» (١).

٤- و قيل: التفسير: أكثر ما يستعمل فى الألفاظ و مفرداتها، و التأويل:

أكثر ما يستعمل فى المعانى و الجمل- و قيل غير ذلك.

شرف التفسير

و التفسير من أجل علوم الشريعة و أرفعها قدرا، و هو أشرف العلوم موضوعا و غرضا و حاجة إليه- لأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة.

(١) الإتقان، صفحة ١٧٣ ج ٢

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢٨

و معدن كل فضيلة- ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية- وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد وأن يكون موافقا للشرع، و موافقته تتوقف على العلم بكتاب الله «١».

(١) انظر الإتقان صفحة ١٧٥ ج ٢

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٢٩

٢٤- شروط المفسر و آدابه

إشارة

البحث العلمي التزيه أساس المعرفة الحققة التي تعود على طلابها بالنفع، و ثمرته من أشهى الأكل لغذاء الفكر و تنمية العقل، و لذلك فإن تهيؤ أسبابه لأي باحث أمر له اعتباره في نضج ثماره و دنو قطفه، و البحث في العلوم الشرعية عامة و في التفسير خاصة من أهم ما يجب الاعتناء به و التعرف على شروطه و آدابه، حتى يصفو مشربه، و يحفظ روعه الوحي و جلاله.

شروط المفسر

و قد ذكر العلماء للمفسر شروطا نجملها فيما يأتي:

١- صحة الاعتقاد: فإن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها، و كثيرا ما تحمل ذوبها على تحريف النصوص و الخيانة في نقل الأخبار، فإذا صنّف أحدهم كتابا في التفسير أول الآيات التي تخالف عقيدته، و حملها باطل مذهبه، ليصد الناس عن اتباع السلف، و لزوم طريق الهدى.

٢- التجرد عن الهوى: فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصره مذهبهم،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٣٠

فيغرون الناس بلبين الكلام و لحن البيان، كدأب طوائف القدرية و الرافضة و المعتزلة و نحوهم من غلاة المذاهب.

٣- أن يبدأ أولا بتفسير القرآن بالقرآن، فما أجمل منه في موضع فإنه قد فصل في موضع آخر، و ما اختصر منه في مكان فإنه قد بسط في مكان آخر.

٤- أن يطلب التفسير من السنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له، و قد ذكر القرآن أن أحكام رسول الله صلى الله عليه و سلم إنما تصدر منه عن طريق الله (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ١٠٥- النساء) و ذكر الله أن السنة مبينة للكتاب (وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤- النحل) و لهذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «ألا إني أوتيت القرآن و مثله معه» يعني السنة.

و قال الشافعي رضي الله عنه «كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه و سلم فهو مما فهمه من القرآن» و أمثلة هذا في القرآن كثيرة- جمعها صاحب الإتقان مرتبة مع السور في آخر فصل من كتابه كتفسير السبيل بالزاد و الراحلة، و تفسير الظلم بالشرك، و تفسير الحساب اليسير بالعرض.

٥- فإذا لم يجد التفسير من السنّة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، و لما لهم من الفهم التام، و العلم الصحيح، و العمل الصالح.

٦- فإذا لم يجد التفسير في القرآن و لا في السنّة و لا في أقوال الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد ابن جبر، و سعيد بن جبير، و عكرمة مولى ابن عباس، و عطاء بن أبي رباح، و الحسن البصرى، و مسروق بن الأجدع، و سعيد بن المسيب، و الربيع بن أنس، و قتادة، و الضحاك ابن مزاحم، و غيرهم من التابعين، و من التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، و ربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط و الاستدلال، و المعتمد في ذلك كله النقل الصحيح، و لهذا قال أحمد: «ثلاث كتب لا أصل لها، المغازى و الملاحم و التفسير». يعنى بهذا التفسير الذى لا يعتمد على الروايات الصحيحة فى النقل.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٣١

٧- العلم باللغة العربية و فروعها: فإن القرآن نزل بلسان عربى، و يتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ و مدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب».

و المعانى تختلف باختلاف الإعراب، و من هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو. و التصريف الذى تعرف به الأنبياء، و الكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها و مشتقاتها. و خواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، و من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة و خفائها. ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام- و هى علوم البلاغة الثلاثة المعانى و البيان و البديع- من أعظم أركان المفسر. إذ لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، و إنما يدرك الإعجاز بهذه العلوم.

٨- العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن، كعلم القراءات لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن و يترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض، و علم التوحيد، حتى لا يؤول آيات الكتاب التى فى حق الله و صفاته تأويلا يتجاوز به الحق، و علم الأصول، و أصول التفسير خاصة مع التعمق فى أبوابه التى لا يتضح المعنى و لا يستقيم المراد بدونها، كمعرفة أسباب النزول، و الناسخ و المنسوخ، و نحو ذلك.

٩- دقة الفهم التى تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة.

آداب المفسر

١- حسن النية و صحة المقصد- فإنما الأعمال بالنيات، و العلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام، و إسداء المعروف لصالح الإسلام، و أن يتطهر من أعراض الدنيا ليسدد الله خطاه، و الانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه.

٢- حسن الخلق: فالمفسر فى موقف المؤدب، و لا تبلغ الآداب مبلغها فى

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٣٢

النفس إلا إذا كان المؤدب مثالا يحتذى فى الخلق و الفضيلة، و الكلمة النابية قد تصرف الطالب عن الاستفادة مما يسمع أو يقرأ و تقطع عليه مجرى تفكيره.

٣- الامتثال و العمل:- فإن العلم يجد قبولاً من العاملين أضعاف ما يجد من سمو معارفه و دقة مباحثه- و حسن السيرة يجعل المفسر قدوة حسنة لما يقرره من مسائل الدين، و كثيرا ما يصد الناس عن تلقى العلم من بحر زاخر فى المعرفة لسوء سلوكه و عدم تطبيقه.

٤- تحرى الصدق و الضبط فى النقل: فلا يتكلم أو يكتب إلا عن ثبت لما يرويه حتى يكون فى مأمن من التصحيف و اللحن.

٥- التواضع و لين الجانب:- فالصلف العلمى حاجز حصين يحول بين العالم و الانتفاع بعلمه.

٦- عزة النفس:- فمن حق العالم أن يترفع عن سفاسف الأمور، و لا يغشى عتاب الجاه و السلطان كالسائل المتكفف.

٧- الجهر بالحق:- فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

٨- حسن السمات:- الذى يكسب المفسر هيبه و وقارا فى مظهره العام و جلوسه و وقوفه و مشيته دون تكلف.

٩- الأناة و الروية:- فلا يسرد الكلام سردا بل يفصله و يبين عن مخارج حروفه.

١٠- تقديم من هو أولى منه- فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم و هم أحياء، و لا يغمطهم حقهم بعد الممات، بل يرشد إلى الأخذ عنهم و قراءة كتبهم.

١١- حسن الإعداد و طريقة الأداء: كأن يبدأ بذكر سبب النزول- ثم معانى المفردات و شرح التراكيب و بيان وجوه البلاغة و الإعراب الذى يتوقف عليه تحديد المعنى، ثم يبين المعنى العام و يصله بالحياة العامة التى يعيشها الناس فى عصره، ثم يأتى إلى الاستنباط و الأحكام.

أما ذكر المناسبة و الربط بين الآيات أولا و آخرها فذلك حسب ما يقتضيه النظم و السياق.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٣٣

٢٥- نشأة التفسير و تطوره «١»

إشارة

جرت سنة الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه. ليتم مخاطبه معهم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ٤- إبراهيم) و أن يكون الكتاب الذى أنزل عليه بلسانه و لسانهم، و إذ كان لسان محمد صلى الله عليه و سلم عربيا فإن الكتاب الذى أنزل عليه يكون بلسان عربى، و بذلك نطق محكم التنزيل (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢- يوسف) (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ- نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٢-١٩٥- الشعراء).

فألفاظ القرآن عربية، و وجوه المعانى فى القرآن توافق وجوه المعانى عند العرب، و إذا كانت هناك ألفاظ قليلة تختلف فيها أنظار العلماء، أهى من لغات أخرى و عربت، أم هى عربية بحتة و لكنها مما تواردت عليها اللغات؟ فإن هذا لا يخرج القرآن عن أن يكون عربيا.

و الذى عليه المحققون أنها كلمات اتفقت فيها ألفاظ العرب مع ألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم. و هذا هو ما رجحه جهبذ المفسرين ابن جرير الطبرى. (٢)

(١) راجع هذا البحث بالتفصيل فى كتاب: «التفسير و المفسرون» للأستاذ محمد حسين الذهبى

(٢) تفسير الطبرى صفحة ١٣ ج ١

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٣٤

فقد أورد ما روى فى ذلك كقوله تعالى (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ٢٨- الحديد) قيل: الكفلان: ضعفان من الأجر بلسان الحبشة. و قوله (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ - ٦- المزمل) قيل: بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل قالوا: نشأ. و قوله (يَا جِبَالُ أَوَّيى مَعَهُ ١٠- سبأ) قيل: سبى بلسان الحبشة. و قوله (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ٥١- المدثر) قيل الأسد بالحبشة. و قوله (حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ٨٢- هود- و الحجر ٧٤) قيل فارسية أعربت- أورد الطبرى ما روى فى ذلك ثم بين أن أحدا لم يقل أن هذه الأحرف و ما أشبهها لم تكن للعرب كلاما. و إنما قال بعضهم:

حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا، و حرف كذا بلسان العجم معناه كذا، و قد ظهر أن بعض الألفاظ اتفقت فيها الألسن المختلفة، كالدرهم و الدينار و الدواة و القلم و القرطاس، فأى مرجح يجعل اللفظ من لغة بعينها ثم نقل إلى اللغة الأخرى؟ فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس و مدعى ذلك يدعى شيئا بلا دليل.

التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن و بيانه (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ١٧-١٩ القيامة) فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفهم القرآن جملة و تفصيلا. و كان عليه أن يبينه لأصحابه (وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤- النحل) و كان الصحابة رضی الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم. و إن كانوا لا يفهمون دقائقه، يقول ابن خلدون في مقدمته: «إن القرآن نزل بلغه العرب- و على أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، و يعلمون معانيه في مفرداته و تراكيبه» و لكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون في الفهم، فقد يغيب عن واحد منهم ما لا يغيب عن الآخر.

أخرج أبو عبيدة في الفضائل عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٣٥

(وَ فَكَيْهَةٌ وَ أَبًا) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر» (١) و أخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات و الأرض حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها». (٢)

و لذا قال ابن قتيبة: «إن العرب لا تستوى في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب و المتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك عن بعض» (٣) و كان الصحابة يعتمدون في تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على:

أولا: القرآن الكريم: فما جاء مجملا في موضع جاء مبينا في موضع آخر، تأتي الآية مطلقة أو عامة، ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها، و هذا هو الذي يسمى: بتفسير القرآن بالقرآن و لهذا أمثلة كثيرة، فقصص القرآن جاء موجزا في بعض المواضع و مسهبا في مواضع أخرى، و قوله تعالى (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ١- المائدة) فسر آية (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ٣- المائدة) و قوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ١٠٣- الأنعام) فسر آية (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣- القيامة) ثانيا: النبي صلى الله عليه وسلم: فهو المبين للقرآن، و كان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله و أين لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح «إن الشرك لظلم عظيم» إنما هو الشرك» (٤)

(١) الإتيقان صفحة ١١٣ ج ٢

(٢) الإتيقان صفحة ١١٣ ج ٢

(٣) التفسير و المفسرون صفحة ٣٦ ج ١

(٤) رواه أحمد و الشيخان و غيرهم

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٣٦

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لهم ما يشاء عند الحاجة عن عقبه بن عامر قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول و هو على المنبر (وَ أَعَدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) ألا و إن القوة الرمي» (١).

و عن أنس قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكوثر نهر أعطانيه ربي في الجنة» (٢).

و قد أفردت كتب السنة بابا للتفسير بالمأثور عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، و قال الله تعالى (وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٤- النحل) و من القرآن ما لا يعلم تأويله إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم. كتفصيل وجوه أمره و نهييه، و مقادير ما فرضه الله من أحكام، و هذا البيان هو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم: «ألا و إنى أوتيت الكتاب و مثله معه ..».

ثالثاً: الفهم والاجتهاد: فكان الصحابة إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى، و لم يجدوا شيئاً في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. اجتهدوا في الفهم، فإنهم من خلص العرب، يعرفون العربية، و يحسنون فهمها، و يعرفون وجوه البلاغة فيها. و اشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة منهم: الخلفاء الأربعة، و ابن مسعود، و ابن عباس، و أبي بن كعب، و زيد بن ثابت، و أبو موسى الأشعري، و عبد الله بن الزبير، و أنس بن مالك، و عبد الله بن عمر، و جابر بن عبد الله، و عبد الله بن عمرو بن العاص، و عائشة، على تفاوت فيما بينهم قلّة و كثرة، و هناك روايات منسوبة إلى هؤلاء و غيرهم في مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور تتفاوت درجتها من حيث السند. صحه و ضعفا.

(١) أخرجه مسلم و غيره

(٢) أخرجه أحمد و مسلم

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٣٧

و لا- شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته، و ذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول و كل ما ليس للرأى فيه مجال. أما ما يكون للرأى فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و الموقوف على الصحابي من التفسير يوجب بعض العلماء الأخذ به لأنهم أهل اللسان، و لما شاهدوه من القرائن و الأحوال التي اختصوا بها، و لما لهم من الفهم الصحيح. قال الزركشى في البرهان: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، و قسم لم يرد، و الأول: إما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أو الصحابة، أو رءوس التابعين- فالأول يبحث فيه عن صحه السند، و الثاني ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلا شك في اعتماده. أو بما شاهدوه من الأسباب و القرائن فلا شك فيه» (١).

و قال الحافظ بن كثير في مقدمه تفسيره «و حينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن و لا في السنه رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرائن و الأحوال التي اختصوا بها، و لما لهم من الفهم التام و العلم الصحيح و العمل الصالح- و لا سيما علماؤهم و كبراؤهم كالأئمة الأربعة، و الخلفاء الراشدين و الأئمة المهتدين المهديين، و عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم» (٢) و لم يدون شيء من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني، و كان التفسير فرعا من الحديث، و لم يتخذ شكلا- منظما- بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة آيات متفرقة. من غير ترتيب و تسلسل آيات القرآن و سوره كما لا تشمل القرآن كله.

التفسير في عصر التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير، اشتهر بعض أعلام التابعين

(١) الإتقان، صفحة ١٨٣ ج ٢.

(٢) ابن كثير، صفحة ٣ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٣٨

الذين أخذوا عنهم من تلاميذهم بالتفسير كذلك معتمدين في مصادره على المصادر التي جاءت في العصر السابق بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد و نظر.

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي: «وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه. وعلى ما روه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلى ما روه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم. وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيرا من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق: إن ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتوا تفسير القرآن تباعا، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن، وغير هذا من أدوات الفهم وسائل البحث» (١) لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية، وانتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة، ولدى كل واحد منهم علم. وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم، وأخذوا عنهم، ونشأت مدارس متعددة.

ففي مكة نشأت مدرسة ابن عباس، واشتهر من تلاميذه بمكة: سعيد بن

(١) التفسير والمفسرون صفحة ٩٩، ١٠٠ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٣٩

جبير، ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

وهؤلاء جميعا من الموالى، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلّة وكثرة، كما اختلف العلماء في مقدار الثقة بهم والركون إليهم، والذي ورد فيه شيء ذو بال هو عكرمة، فإن العلماء يختلفون في توثيقه وإن كانوا يشهدون له بالعلم والفضل وفي المدينة اشتهر أبي بن كعب بالتفسير أكثر من غيره، وكثر ما نقل عنه في ذلك. واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة أو بالواسطة: زيد ابن أسلم، وأبو العالبي، ومحمد بن كعب القرظي.

وفي العراق نشأت مدرسة ابن مسعود التي يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل الرأي: وعرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين. اشتهر منهم علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرّة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقادة بن دعامة السدوسي.

وهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين في الأمصار الإسلامية الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم. وخلقوا لنا تراثا علميا خالدا. واختلف العلماء فيما أثر عن التابعين من تفسير إذا لم يؤثر في ذلك شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة. أ يؤخذ بأقوالهم أم لا؟

فذهب جماعة إلى أنه لا- يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد.

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم، لأنهم تلقوه غالبا عن الصحابة.

والذي يترجح أنه إذا أجمع التابعون على رأي فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.

قال ابن تيمية: «قال شعبة بن الحجاج وغيره، أقوال التابعين ليست حجة،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٤٠

فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم.

و هذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشئ فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، و يرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك» (١) و قد ظل التفسير محتفظا في هذا العصر بطابع التلقى و الرواية، و لكن التابعين - بعد أن كثر دخول أهل الكتاب في الإسلام، نقلوا عنهم في التفسير كثيرا من الإسرائيليات، كالذى يروى عن عبد الله بن سلام، و كعب الأحبار - و وهب بن منبه، و عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، كما بدأ الاختلاف فيما يروى عنهم من تفسير لكثرة أقوالهم. و مع هذا فإنها أقوال متقاربة أو مترادفة، فهو من باب اختلاف العبارة لا اختلاف التباين و التضاد.

التفسير في عصور التدوين

بدأ التدوين في أواخر عهد بني أمية، و أوائل عهد العباسيين، و حظى الحديث بالنصيب الأول في ذلك، و شمل تدوين الحديث أبوابا متنوعه، و كان التفسير بابا من هذه الأبواب، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، و آية آية، من مبدئه إلى منتهاه. و اشتدت عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبي صلى الله عليه و سلم. أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، مع عنايتهم بجمع الحديث. و في مقدمه هؤلاء: يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية، و شعبه بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية، و وكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية، و سفيان بن عيينه المتوفى سنة ١٩٨ هجرية، و روح بن عباد البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ هجرية

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة ٢٨، ٢٩، و الإتقان صفحة ١٧٩ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٤١

و عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية، و آدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هجرية، و عبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هجرية.

و لم يصل إلينا من تفاسيرهم شئ، و إنما روى ما نقل مسندا إليهم في كتب التفسير بالمأثور.

جاء بعد هؤلاء من أفرد التفسير بالتأليف و جعله علما قائما بنفسه منفصلا عن الحديث. ففسر القرآن حسب ترتيب المصحف. و ذلك كابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هجرية، و ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية، و أبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨ هجرية. و ابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية، و أبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩ هجرية، و الحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ هجرية، و أبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هجرية.

و تفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و إلى الصحابة و التابعين، و أتباع التابعين مع الترجيح أحيانا فيما يروى من آراء، و استنباط بعض الأحكام. و الإعراب عند الحاجة، كما فعل ابن جرير الطبرى.

ثم جاء على أثر هؤلاء جماعة من المفسرين لم يتجاوزوا حدود التفسير بالمأثور، و لكنهم اختصروا الأسانيد، و جمعوا شتات الأقوال دون أن ينسبوا إلى قائلها، و بهذا التبس الأمر، و لم يتميز الصحيح من السقيم.

اتسعت العلوم، و تم تدوينها، و تشعبت فروعها، و كثر الاختلاف، و أثرت مسائل الكلام، و ظهر التعصب المذهبى، و اختلطت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية، و حرصت الفرق الإسلامية على دعم مذهبها فأصاب التفسير من هذا الجو غباره، و أصبح المفسرون يعتمدون في تفسيرهم على الفهم الشخصى، و يتجهون اتجاهات متعددة، و تحكمت فيهم الاصطلاحات العلمية.

و العقائد المذهبية، و الثقافة الفلسفية، و اهتم كل واحد من المفسرين بحشوه بما برز فيه من العلوم الأخرى، فصاحب العلوم العقلية

يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء و الفلاسفة كفخر الدين الرازى، و صاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية كالجصاص

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٤٢

و القرطبي، و صاحب التاريخ يعنى بالقصاص و الأخبار كالثعلبي و الخازن. و صاحب البدعة يؤول كلام الله على مذهبه الفاسد، كالرمانى و الجبائى، و القاضى عبد الجبار و الزمخشري من المعتزلة و ملا محسن الكاشى من الإمامية الاثنى عشرية. و صاحب التصوف يستخرج المعانى الإشارية كابن عربى.

هذا مع علوم النحو و الصرف و البلاغة، و هكذا أصبحت كتب التفسير تحمل فى طياتها الغث و الثمين، و النافع و الضار، و الصالح و الفاسد. و حمل كل مفسر آيات القرآن ما لا تحمله، انتصارا لمذهبيه. وردا على خصومه. و فقد التفسير وظيفته الأساسية فى الهداية و الإشارة و معرفة أحكام الدين.

و بذلك طغى التفسير بالرأى على التفسير بالأثر، و تدرج التفسير فى العصور المتتابعة على هذا النمط، بنقل المتأخر عن المتقدم، مع الاختصار تارة، و التعليق أخرى، حتى ظهرت أنماط جديدة فى التفسير المعاصر، حيث عنى بعض المفسرين بحاجات العصر، و تناولوا فى تفسيرهم الكشف عما تضمنه القرآن الكريم من اسس الحياة الاجتماعية، و مبادئ التشريع، و نظريات العلوم، كتفسير الجواهر، و تفسير المنار، و الظلال.

التفسير الموضوعى

و بإزاء التفسير العام فى عصور التدوين كان التفسير الموضوعى للمباحث الخاصة يسير معه جنبا لجنب، فألف ابن القيم كتابه: التبيان فى أقسام القرآن، و ألف أبو عبيدة كتابا عن مجاز القرآن، و ألف الراغب الاصفهاني فى مفردات القرآن، و ألف أبو جعفر النحاس فى الناسخ و المنسوخ، و ألف أبو الحسن الواحدى فى أسباب النزول، و ألف الجصاص فى أحكام القرآن، و تتابعت الأبحاث القرآنية فى العصر الحديث و لا يخلو واحد منها من تفسير لبعض آيات القرآن لجانب من الجوانب.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٤٣

طبقات المفسرين

و على ضوء ما سبق نستطيع أن نقسم طبقات المفسرين على النحو التالى:

١- المفسرون من الصحابة:- و اشتهر منهم الخلفاء الأربعة، و ابن مسعود، و ابن عباس، و أبى بن كعب، و زيد بن ثابت، و أبو موسى الأشعري، و عبد الله بن الزبير، و أنس بن مالك، و أبو هريرة، و جابر، و عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم أجمعين، و أكثر من روى عنه من الخلفاء الأربعة على بن أبى طالب، و الرواية عن الثلاثة نزره جدا، و كان السبب فى ذلك تقدم وفاتهم، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه، فقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبى الطفيل قال: «شهدت عليا يخطب و هو يقول: سلونى فو الله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم- و سلونى عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا و أنا أعلم أ بليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل».

و أما ابن مسعود فروى عنه أكثر مما روى عن على، و قد أخرج ابن جرير و غيره عنه أنه قال: «و الذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا- و أنا أعلم فيمن نزلت، و أين نزلت؟ و لو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته» و أما ابن عباس فستترجم له بعد إن شاء الله.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٤٤

٢- المفسرون من التابعين:- قال ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، و عطاء بن أبى رباح، و

عكرمة مولى ابن عباس، و سعيد بن جبير، و طاوس و غيرهم- و في الكوفة أصحاب ابن مسعود- و في المدينة زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد، و مالك بن أنس» و من أصحاب ابن مسعود علقمة، و الأسود بن يزيد، و إبراهيم النخعي، و الشعبي، و من هذه الطبقة: الحسن البصري، و عطاء بن أبي مسلم الخراساني-، و محمد ابن كعب القرظي، و أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، و الضحاك بن مزاحم، و عطية بن سعد العوفي. و قتادة بن دعامة السدوسي، و الربيع بن أنس، و السدي- فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين، و غالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.

٣- ثم بعد هذه الطبقة: طبقة الذين صنف كثير منهم كتب التفاسير التي تجمع أقوال الصحابة و التابعين، كسفيان بن عيينة، و وكيع بن الجراح و شعبة بن الحجاج، و يزيد بن هارون، و عبد الرزاق، و آدم بن أبي إياس، و اسحاق بن راهويه، و عبد بن حميد، و روح بن عباد، و أبي بكر بن أبي شيبة، و آخرين.

٤- ثم بعد هؤلاء طبقات أخرى: منها على بن أبي طلحة، و ابن جرير الطبري، و ابن أبي حاتم، و ابن ماجه، و الحاكم، و ابن مردويه، و أبو الشيخ بن حبان، و ابن المنذر في آخرين، و كلها مسندة إلى الصحابة و التابعين و أتباعهم، و ليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال و ترجيح بعضها على بعض و الإعراب و الاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

٥- ثم انتصبت طبقة بعدهم: صنف مشحونة بالفوائد اللغوية، و وجوه الإعراب، و ما أثر في القراءات بروايات محدوفة الأسانيد، و قد يضيف بعضهم شيئاً من رأيه، مثل أبي إسحاق الزجاج، و أبي علي الفارسي، و أبي بكر النقاش، و أبي جعفر النحاس.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٤٥

٦- ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين: فاقتصروا الأسانيد، و نقلوا الأقوال بتراء: فدخل من هنا الدخيل، و التبس الصحيح بالعليل.

٧- ثم صار كل من سنع له قول يورده: و من خطر بباله شيء يعتمد عليه.

ثم ينقل ذلك عنه من يحيى بعده ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح، و من هم القدوة في هذا الباب- قال السيوطي: رأيت في تفسير قوله تعالى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) نحو عشرة أقوال، مع أن الوارد عن النبي (ص) و جميع الصحابة و التابعين ليس غير اليهود و النصارى، حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك اختلافاً من المفسرين.

٨- صنف بعد ذلك قوم: برعوا في شيء من العلوم. منهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن، و اقتصر فيه على ما تمهر هو فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء.

فالنحوي نراه ليس له هم إلا الإعراب و تكثير أوجهه المحتملة فيه، و إن كانت بعيدة، و ينقل قواعد النحو و مسائله و فروع و خلافاته كأبي حيان في البحر و النهر.

و الأخباري همه القصص و استيفؤه، و الإخباري عن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة. و منهم الثعلبي.

و الفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً، و ربما استطرده إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية أصلاً و الجواب على أدلة المخالفين، كالقرطبي.

و صاحب العلوم العقلية، خصوصاً الإمام فخر الدين الرازي، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء و الفلاسفة، و خرج من شيء إلى شيء، حتى يقضى الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية. قال أبو حيان في البحر: جمع الامام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير و لذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٤٦

و المبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات و تسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لو لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، كما نقل عن البلقيني أنه قال: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقش، منها أنه قال في قوله سبحانه و

تعالى (فَمَنْ زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ۱٨٥- آل عمران) أى فوز أعظم من دخوله الجنة؟ أشار به إلى عدم الرؤية. وهكذا الشأن بالنسبة إلى الملحدون وغيرهم.

٩- ثم جاء عصر النهضة الحديثة:

فانتجى كثير من المفسرين منحى جديداً، فى العناية بطلاوة الاسلوب، و حسن العبارة، و الاهتمام بالنواحي الاجتماعية، و الافكار المعاصرة، و المذاهب الحديثة، فكان التفسير الأدبى الاجتماعى، و من هؤلاء: محمد عبده، و السيد محمد رشيد رضا، و محمد مصطفى المراغى، و سيد قطب، و محمد عزة دروزه.

و للحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ كتاب «طبقات المفسرين» ذكر فى مقدمته أنه سيتناول المفسرين من الصحابة و التابعين و أتباع التابعين، و المفسرين من المحدثين و أهل السنّة، و المفسرين من أهل الفرق كالمعتزلة و الشيعة و نحوهم، و لكنه لم يتم، و بلغ عدد التراجم فيه ١٣٦ ترجمة. و هو مرتب على الحروف الهجائية «١».

و صنّف فى طبقات المفسرين أيضا الشيخ أبو سعيد صنع الله الكوزه كنانى المتوفى سنة ٩٨٠ هـ.

كما صنّف فيها أحمد بن محمد الأدنهوى من علماء القرن الحادى عشر.

و للحافظ شمس الدين بن محمد بن على بن أحمد الداودى المصرى المتوفى سنة ٩٤٥ هـ كتابه المشهور «طبقات المفسرين» و هو أوفى كتاب فى موضوعه بالمكتبة الإسلامية، استقصى فيه الداودى تراجم أعلام المفسرين حتى أوائل القرن العاشر للهجرة، قال فيه حاجى خليفة فى «كشف الظنون»:

و هو أحسن ما صنّف فيه «٢».

(١) نشرته أخيراً مكتبة وهبة بالقاهرة بتحقيق على محمد عمر.

(٢) قامت مكتبة وهبة بنشره فى جزئين بتحقيق على محمد عمر.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٤٧

التفسير بالمأثور و التفسير بالرأى

التفسير بالمأثور: هو الذى يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التى ذكرت سابقاً فى شروط المفسر، من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله، أو بما روى عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة.

و هذا المسلك يتوخى الآثار الواردة فى معنى الآية فيذكرها، و لا يجتهد فى بيان معنى من غير أصل، و يتوقف عما لا طائل تحته و لا فائدة فى معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح.

قال ابن تيمية: يجب أن يعلم أن النبى صلى الله عليه و سلم بين لأصحابه معانى القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقله تعالى (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) يتناول هذا و هذا، و قد قال أبو عبد الرحمن السلمى «١»: حدثنا الذين كانوا يقرءونا القرآن. كعثمان بن عفان، و عبد الله بن مسعود و غيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم و العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعاً» و لهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة، قال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة و آل عمران جدّ فينا» رواه أحمد فى مسنده، و أقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين، أخرجه مالك

(١) هو عبد الله بن حبيب التابعى المقرئ، المتوفى سنة ٧٢ هـ و هو غير أبى عبد الرحمن السلمى الصوفى المتوفى سنة ٤١٢ هـ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٤٨

في الموطأ، و ذلك أن الله تعالى قال: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ).

وقال (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، و أيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب و الحساب و لا يستشروه.

فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، و به نجاتهم و سعادتهم و قيام دينهم و دنياهم؟ «١» و من التابعين من أخذ التفسير كله عن الصحابة، عن مجاهد قال:

«عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، استوقفه عند كل آية و أسأله عنها»

الاختلاف فيه

و التفسير بالمأثور يدور على رواية ما نقل عن صدر هذه الأمة، و كان الاختلاف بينهم قليلا جدا بالنسبة إلى من بعدهم، و أكثره لا يعدو أن يكون خلافا في التعبير مع اتحاد المعنى، أو يكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل، قال ابن تيمية: «و الخلاف بين السلف في التفسير قليل، و غالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، و ذلك نوعان:

أحدهما: أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، كتفسيرهم (الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ) قال بعضهم: القرآن أى اتباعه، و قال بعضهم: الإسلام، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، و لكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر.

الثاني: أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل

(١) الإتقان ١٧٦ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٤٩

و تنبيه المستمع على النوع، و مثاله: ما نقل في قوله تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ٣٢- فاطر) قيل: السابق: الذي يصلى في أول الوقت، و المقتصد: الذي يصلى في أثنائه، و الظالم لنفسه، الذي يؤخر العصر إلى الاصرار- و قيل: السابق:

المحسن بالصدقة مع الزكاة، و المقتصد: الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط، و الظالم: مانع الزكاة» «١».

و قد يكون الاختلاف لاحتمال اللفظ الأمرين، كلفظ (عسعس) الذي يراد به إقبال الليل و إدباره، أو لأن الألفاظ التي عبر بها عن المعاني متقاربة، كما إذا فسر بعضهم (تبسل) بتحبس، و بعضهم بترهن، لأن كلا منهما قريب من الآخر.

تجنب الاسرائيليات

و ربما كان الاختلاف فيما لا فائدة فيه و لا حاجة بنا إلى معرفته مما وقع فيه بعض المفسرين في نقل اسرائيليات عن أهل الكتاب، كاختلافهم في أسماء أصحاب الكهف، و لون كلبهم، و عددهم، و قد قال الله تعالى (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ٢٢- الكهف) و اختلافهم في قدر سفينة نوح و خشبها، و في اسم الغلام الذي قتله الخضر و في أسماء الطيور التي أحياها الله لابراهيم، و في نوع شجرة عصا موسى، و نحو ذلك.

فهذه الأمور طريق العلم بها النقل. فما كان منه منقولا نقلا صحيحا عن النبي صلى الله عليه و سلم قبل، و إلا توقفنا عنه، و إن كانت النفس تسكن إلى ما نقل عن الصحابة، لأن نقلهم عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين «٢».

(١) الإتقان صفحة ١٧٧ ج ٢.

(٢) في الحديث: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم.»

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٥٠

حكم التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو الذي يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ في كتاب الله. وقد روى عن ابن عباس أنه قال «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله» فالذي تعرفه العرب هو الذي يرجع فيه إلى لسانهم ببيان اللغة. والذي لا يعذر أحد بجهله: هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ولا لبس فيها، فكل امرئ يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ١٩ محمد) وإن لم يعلم أن هذه العبارة وردت بطريق النفي والاستثناء فهي دالة على الحصر.

وأما ما لا يعلمه إلا الله، فهو المغيبات، كحقيقة قيام الساعة، وحقيقة الروح.

وأما ما يعلمه العلماء: فهو الذي يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي، من بيان مجمل، أو تخصيص عام، أو نحو ذلك.

وقد ذكر ابن جرير الطبري نحو هذا. فقال: «فقد تبين بيان الله جل ذكره: «أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم ما لا- يوصل إلى علم تأويله إلا- ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره- واجبه وندبه وإرشاده- و صنوف نهيه، و وظائف حقوقه و حدوده، و مبالغ فرائضه، و مقادير اللازم بعض خلقه لبعض، و ما أشبه ذلك من أحكام آية التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأتمته، و هذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم له تأويله بنص منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالة أمره على تأويله.

و أن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، و ذلك ما فيه من الخبر عن

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٥١

آجال حادثه، و أوقات آتيه، كوقت قيام الساعة، و النفخ في الصور، و نزول عيسى بن مريم، و ما أشبه ذلك (يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسِرًّا لَوْ أَنَّكَ كَانَتْ حَفِيًّا عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧- الأعراف)

و أن منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، و ذلك إقامة إعرابه، و معرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، و الموضوعات بصفات الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجمله أحد منهم، و ذلك كسامع منهم لو سمع تاليا يتلو: (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١١، ١٢- البقرة) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضره و أن الإصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعه، و إن جهل المعاني التي جعلها الله إفسادا، و المعاني التي جعلها الله إصلاحا .. «١»

التفسير بالرأى

التفسير بالرأى: هو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص و استنباطه بالرأى المجرد- و ليس منه الفهم الذي يتفق مع

روح الشريعة، و يستند إلى نصوصها- فالرأى المجرد الذى لا شاهد له مدعاة للشطط فى كتاب الله، و أكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطله و عمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم و ليس لهم سلف من الصحابه و التابعين لا فى رأيهم و لا فى تفسيرهم، و قد صنفتوا تفاسير على أصول مذهبهم. كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، و الجبائى، و عبد الجبار، و الرماني، و الزمخشري و أمثالهم، و من هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس مذهبه فى كلام يروج على كثير من الناس كما صنع صاحب الكشاف فى اعتراضاته و إن كان بعضهم أخف من

(١) تفسير الطبرى صفحه ٧٤، ٧٥ ج ١.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٥٢

بعض، فمنهم طوائف من أهل الكلام أولت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبها. و هؤلاء أقرب إلى أهل السنه من المعتزله، إلا أنهم حين جاءوا بما يخالف مذهب الصحابه و التابعين فقد شاركوا المعتزله و غيرهم من أهل البدع.

حكم التفسير بالرأى

و تفسير القرآن بمجرد الرأى و الاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه، قال تعالى (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنَّ سِرَّ اللَّهِ سِرٌّ) (الإسراء) و قال صلى الله عليه و سلم: «من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار» (١) و فى لفظ: «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ».

و لهذا تخرج السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، فقد روى عن يحيى بن سعيد بن سعيد بن المسيب «أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال:

«إنا لا نقول فى القرآن شيئاً» (٢).

و أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام «أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سئل عن الأب فى قوله تعالى (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۚ ٣١- عبس) فقال: «أى سماء تظلنى؟»

و أى أرض تقلنى؟ إذا قلت فى كلام الله ما لا أعلم» (٣) قال الطبرى: «و هذه الأخبار شاهده لنا على صحة ما قلنا: من أن ما كان من تأويل أى القرآن الذى لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله صلى الله عليه و سلم، أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل فى ذلك برأيه- و إن اصاب الحق فيه- فمخطئ فيما كان من فعله، بقيله فيه برأيه، لأن إصابته ليست إصابه موقن أنه محق، و إنما هى إصابه خالص و ظان،

(١) أخرجه الترمذى و النسائى و أبو داود، و قال الترمذى: هذا حسن.

(٢) رواه مالك فى الموطأ.

(٣) و رواه ابن أبى شيبه و الطبرى.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٥٣

و القائل فى دين الله بالظن، قائل على الله ما لا- يعلم، و قد حرم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده، فقال: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ اللَّائِمَ وَ اللَّبِغَىٰ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣- الأعراف) «(١)».

فهذه الآثار و ما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم من الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. أما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة و شرعا فلا حرج عليه، و لهذا روى عن هؤلاء و غيرهم أقوال في التفسير- و لا منافاة- لأنهم تكلموا فيما علموه، و سكنوا عما جهلوه، و هذا هو الواجب على كل إنسان، و يكون الأمر أشد نكيرا لو ترك التفسير بالمأثور الصحيح و عدل عنه إلى القول برأيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «و في الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة و التابعين و تفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا، بل مبتدعا، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره و معانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه و سلم».

و قال الطبري: «فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن- الذي إلى علم تأويله للعباد سبيل- أوضحهم حجة فيما تأول و فسر، مما كان تأويله إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم دون سائر أمته، من أخبار رسول الله صلى الله عليه و سلم الثابتة عنه: إما من جهة النقل المستفيض فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض، و إما من جهة نقل العدول الاثبات، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض. أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته، و أصحهم برهانا- فيما ترجم و بين من ذلك- مما كان مدركا علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، و إما من منطقتهم و لغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنا من كان ذلك المتأول و المفسر، بعد أن لا يكون خارجا تأويله و تفسيره ما تأول و فسر من ذلك، عن أقوال السلف من الصحابة و الأئمة، و الخلف من التابعين و علماء الأمة» (٢).

(١) تفسير الطبري، صفحة ٧٨، ٧٩ ج ١.

(٢) تفسير الطبري صفحة ٩٣ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٥٤

الاسرائيليات

لليهودية ثقافتها الدينية التي تستمد من التوراة. و للنصرانية ثقافتها الدينية التي تستمد من الانجيل. و قد انضوى تحت لواء الإسلام منذ ظهوره كثير من اليهود و النصارى، و لهؤلاء و أولئك ثقافتهم الدينية.

و قد اشتمل القرآن على كثير مما جاء في التوراة و الإنجيل و لا سيما ما يتعلق بقصص الأنبياء و أخبار الأمم، و لكن القصص القرآني يجمع القول مستهدفا مواطن العبرة و العظة دون ذكر للتفاصيل الجزئية كتاريخ الوقائع، و أسماء البلدان و الأشخاص، أما التوراة فإنها تتعرض مع شروحا للتفاصيل و الجزئيات، و كذلك الإنجيل.

و حيث دخل أهل الكتاب في الاسلام فقد حملوا معهم ثقافتهم الدينية من الأخبار و القصص الديني، و هؤلاء حين يقرءون قصص القرآن قد يتعرضون لذكر التفاصيل الواردة في كتبهم، و كان الصحابة يتوقفون إزاء ما يسمعون من ذلك، امثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم، و قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا..» (١) و قد يدور حوار بينهم و بين أهل الكتاب في شيء من تلك الجزئيات، و يقبل الصحابة بعض ذلك ما دام لا يتعلق بالعقيدة و لا يتصل بالأحكام، ثم يتحدثون به، لما فهموه من الإباحة في قوله صلى الله عليه و سلم: «بلغوا عني و لو آية، و حدثوا عن بني اسرائيل و لا- حرج، و من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» (٢). أي حدثوا عن بني اسرائيل بما لا تعلمون كذبه، أما ما جاء في الحديث الأول: «لا تصدقوا أهل الكتاب و لا- تكذبوهم» فهو محمول على ما إذا كان ما يخبرون به محتملا- لأن يكون صدقا، و لأن يكون كذبا، فلا تعارض بين الحديثين.

(١) أخرجه البخاري

(٢) أخرجه البخارى

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٥٥

تلك الأخبار التي تحدث بها أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام هي التي يطلق عليها الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني، حيث كان النقل عن اليهود أكثر لشدة اختلاطهم بالمسلمين منذ بدأ ظهور الإسلام. و كانت الهجرة إلى المدينة.

و لم يأخذ الصحابة عن أهل الكتاب شيئاً في تفسير القرآن من الأخبار الجزئية سوى القليل النادر، فلما جاء عهد التابعين و كثر الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب كثر أخذ التابعين عنهم، ثم عظم شغف من جاء بعدهم من المفسرين بالإسرائيليات قال ابن خلدون: «و إذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، و بدء الخليقة، و أسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، و يستفيدونه منهم، و هم أهل التوراة من اليهود» و من تبع دينهم من النصارى فامتلات التفاسير من المنقولات عنهم ..» (١).

و لم يكن المفسرون يتحرون صحة النقل فيما يأخذونه من هذه الإسرائيليات، و منها ما هو فاسد باطل، لذا كان على من يقرأ في كتبهم أن يتجاوز عما لا طائل تحته، و ألا ينقل منها إلا ما تدعو إليه الضرورة و تتبين صحة نقله، و يظهر صدق خبره. و أكثر ما يروى من هذه الإسرائيليات إنما يروى عن أربعة أشخاص: هم:

عبد الله بن سلام، و كعب الأحبار، و وهب بن منبه، و عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، و قد اختلفت أنظار العلماء في الحكم عليهم و الثقة بهم، ما بين مجرح و موثق، و أكثر الخلاف يدور حول كعب الأحبار. و كان عبد الله بن سلام أكثرهم علماً، و أعلام قدره. و اعتمده البخارى و غيره من أهل الحديث، و لم ينسب إليه من التهم ما نسب إلى كعب الأحبار و وهب بن منبه.

(١) انظر التفسير و المفسرون صفحة ١٧٧ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٥٦

تفسير الصوفية

إذا أريد بالتصوف السلوك التعبدى المشروع الذى تصفو به النفس، و ترغب عن زينة الدنيا بالزهد و التقشف. و العبادة، فذلك أمر لا- غبار عليه إن لم يكن مرغوباً فيه. و لكن التصوف أصبح فلسفة نظرية خاصة لا صلة لها بالورع و التقوى و التقشف، و اشتملت فلسفته على أفكار تتنافى مع الإسلام و عقيدته. و هذا هو الذى نعنيه هنا، و هو الذى كان له أثره فى تفسير القرآن.

و يعتبر ابن عربى زعيم التصوف الفلسفى النظرى و هو يفسر الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع نظرياته الصوفية سواء كان ذلك فى التفسير المشهور باسمه، أو فى الكتب التى تنسب إليه كالفصوص، و هو من أصحاب نظرية وحدة الوجود.

فهو يفسر مثلاً قوله تعالى فى شأن إدريس عليه السلام: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧- مريم) بقوله: و أعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحي عالم الافلاك، و هو فلك الشمس، و فيه مقام روحانية إدريس ... ثم يقول: و أما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين، كما قال تعالى (وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ٣٥- محمد) فى هذا العلو و هو يتعالى عن المكان لا عن المكانة.

و يقول فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة النساء: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ...) اتقوا ربكم: اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، و اجعلوا ما بطن منكم- و هو ربكم- وقاية لكم، فإن الأمر ذم و حمد، فكونوا وقاية فى الذم، و اجعلوا وقايتكم فى الحمد تكونوا أدياء عالمين» (١) فهذا التفسير و نظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها، و يغرق فى التأويلات الباطنية البعيدة، و يجر إلى متاهات من الإلحاد و الزيف.

(١) انظر: التفسير و المفسرون صفحة ٧، ٨ .. ج ٣

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٥٧

التفسير الإشاري

و من هؤلاء المتصوفة من يدعى أن الرياضة الروحية التي يأخذ بها الصوفي نفسه تصل الى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية، و تنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية، و يسمى هذا بالتفسير الإشاري، فللاية ظاهر و باطن، و الظاهر: هو الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره، و الباطن هو: ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك و هذا التفسير الإشاري كذلك إذا أوغل في الإشارات الخفية صار ضربا من التجهيل، و لكنه إذا كان استنباطا حسنا يوافق مقتضى ظاهر العربية و كان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض، فإنه يكون مقبولا.

و من ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا و لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعا ذات يوم فأدخله معهم. فما رثيت أنه دعاني يومئذ إلا ليربهم، قال: ما تقولون في قوله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله و نستغفره إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئا» فقال لي: أ كذلك تقول يا ابن عباس، فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمه له، قال: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، و ذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابا، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول» (١).

قال ابن القيم: «و تفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، و هو الذي ينحو إليه المتأخرون، و تفسير على المعنى: و هو الذي يذكره السلف، و تفسير على الإشارة: و هو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية و غيرهم، و هذا لا بأس به بأربعة شروط: -١- ألا يناقض معنى الآية -٢- و أن يكون

(١) أخرجه البخاري

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٥٨

معنى صحيحا في نفسه -٣- و أن يكون في اللفظ إشعار به -٤- و أن يكون بينه و بين معنى الآية ارتباط و تلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا. (١)

غرائب التفسير

من الناس من له شغف بالإغراب في القول و إن حاد عن الجادة و ركب مسلكا وعرا، فكلفوا أنفسهم من الأمر ما لا يطيقون، و أعملوا فكرهم فيما لا- يعلم إلا بالتوقيف، فخرجوا و ليس في يدهم سوى ما تسفهه عقولهم من الرعونة و الغي، و لهذا عجائب في معاني آيات من القرآن نذكر من غرائبها: -١- قول من قال في (الم) معنى ألف: ألف الله محمدا فبعثه نبيا- و معنى لام: لأمه الجاحدون و أنكروه- و معنى ميم- ميم الجاحدون المنكرون، من الموم بالضم و هو البرسام، علة يهذى المعلول فيها.

-٢- قول من قال في (حم عسق) إن الحاء: حرب على و معاوية- و الميم:

المروانية «نسبة إلى مروان من بني أمية» و العين: ولاية العباسية- و السين: ولاية السفينية- و القاف: قدوة مهدي.

-٣- ما ذكره ابن فورك في تفسير قوله تعالى (وَ لَكِنَّ لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي -٢٦٠- البقرة) إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، أي ليسكن

هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً.

٤- قول أبي معاذ النحوى في قوله تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ٨٠- يس) يعنى من إبراهيم نارا، أى نورا، هو محمد صلى الله عليه و سلم (فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ) تقتبسون الدين.

(١) من أهم كتب التفسير الاشارى: تفسير القرآن العظيم للتفستري- مطبوع- و حقائق التفسير لأبى عبد الرحمن السلمى الصوفى- مخطوط- و عرائس البيان فى حقائق القرآن لأبى محمد الشيرازى- مطبوع- و التأويلات النجمية لنجم الدين داية و علاء الدين السماتى- مخطوط- و التفسير المنسوب إلى ابن عربى- مطبوع- مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٥٩

التعريف بأشهر كتب التفسير

تزخر المكتبة الإسلامية بكتب التفسير بالمأثور، و كتب التفسير بالرأى، و كتب التفسير المعاصر. و بعض هذه الكتب أشهر من بعض فى التداول بين أيدي القراء.

اشهر الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور

إشارة

- ١- التفسير المنسوب إلى ابن عباس.
- ٢- تفسير ابن عينة ٣- تفسير ابن أبى حاتم ٤- تفسير أبى الشيخ ابن حبان ٥- تفسير ابن عطية ٦- تفسير أبى الليث السمرقندى «بحر العلوم».
- ٧- تفسير أبى اسحاق «الكشف و البيان عن تفسير القرآن».
- ٨- تفسير ابن جرير الطبرى «جامع البيان فى تفسير القرآن» مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٦٠
- ٩- تفسير ابن أبى شيبه ١٠- تفسير البغوى معالم التنزيل ١١- تفسير أبى الفداء الحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم» ١٢- تفسير الثعالبى «الجواهر الحسان فى تفسير القرآن» ١٣- تفسير جلال الدين السيوطى «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» ١٤- تفسير الشوكانى «فتح القدير» و ستعرف ببعض منها:

١- تفسير ابن عباس

ينسب إلى ابن عباس رضى الله عنه جزء كبير فى التفسير. طبع فى مصر مرارا باسم: «تنوير المقياس من تفسير ابن عباس» جمعه «أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى الشافعى». صاحب القاموس المحيط.

و ابن عباس، كان بحق «ترجمان القرآن» و كان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره و يجله، و قد أخذ فى بعض المواضع عن أهل الكتاب فيما اتفق القرآن فيه مع التوراه و الإنجيل، و ذلك فى دائرة محدودة.

و قد اتهمه الأستاذ جولد زيهير فى كتاب «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب، و نسج على منواله الأستاذ أحمد امين فى «فجر الإسلام» و تولى الرد عليهما الأستاذ محمد حسين الذهبى فى كتابه «التفسير و المفسرون» «١» فابن

عباس كغيره من الصحابة ما كان يسأل علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عن شيء يمس العقيدة، أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، إنما كان يقبل الصواب الذي لا يتطرق إليه الشك في بعض القصص و الأخبار الماضية.

و يمتاز ابن عباس برجوعه في فهم معاني ألفاظ القرآن إلى الشعر العربي، لمعرفته بلغة العرب و إمامه بديوانها.

(١) أنظر صفحة ٧٢، ٧٣- ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦١

و تتعدد الروايات عن ابن عباس، و تتفاوت صحة و ضعفا، و قد تتبع العلماء هذه الروايات و كشفوا عن مبلغها من الصحة. فمن أشهر طرق هذه الروايات.

١- طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس- و هذه هي أجود الطرق عنه، و فيها قال الإمام أحمد «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا» (١) و قال الحافظ بن حجر: «و هذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث- رواها عن معاوية بن صالح- عن علي بن أبي طلحة- عن ابن عباس، و هي عند البخاري عن أبي صالح، و قد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس.

٢- طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس- و هذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين.

٣- طريق ابن اسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس- و هي طريق جيدة، و أسنادها حسن.

٤- طريق اسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، تارة عن أبي مالك، و تارة عن أبي صالح عن ابن عباس، و إسماعيل السدي مختلف فيه، و هو تابعي شيعي، و قال السيوطي: روى عن السدي الأئمة مثل الثوري و شعبة، لكن التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر، و أسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثال التفاسير «تفسير السدي». (١)

٥- طريق عبد الملك بن جريج عن ابن عباس- و هذه الطريق تحتاج إلى دقة في البحث، فإن ابن جريج روى ما ذكر في كل آية من الصحيح و السقيم.

٦- طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس- و هي طريق غير

(١) الإتيان، صفحة ١٨٨ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦٢

مقبولة، لان الضحاك مختلف في توثيقه، و طريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه لم يلقه. فإن انضم إلى ذلك رواية نشر بن عماره، عن أبي روق. عن الضحاك، فضعفه، لضعف بشر.

٧- طريق عطية العوفى، عن ابن عباس، و هي غير مقبولة، لأن عطية ضعيف و ربما حسن له الترمذي.

٨- طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني- و مقاتل ضعيف، يروى عن مجاهد و عن الضحاك و لم يسمع منهما، و قد كذبه غير واحد، و لم يوثقه أحد، و اشتهر عنه التجسيم و التشبيه، و قال أحمد بن حنبل: «لا يعجبني أن أروى عن مقاتل بن سليمان شيئا».

٩- طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس- و هذه أو هي الطرق، و الكلبي مشهور بالتفسير، و قد قيل فيه: أجمعوا على ترك حديثه، و ليس بثقة، و لا- يكتب حديثه، و اتهمه جماعة بالوضع، و لذا قال السيوطي في الإتيان: فإن انضم إلى ذلك- أي إلى طريق الكلبي- رواية محمد بن مروان السدي الصغير عنه فهي سلسلة الكذب.

و يتضح من التفسير المنسوب إلى ابن عباس أن معظم ما روى عن ابن عباس في هذا الكتاب- إن لم يكن جميعه- يدور على محمد

بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي. عن أبي صالح عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السدي الصغير عن الكلبي فيما تقدم. «١»

٢- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري

يعتبر ابن جرير الطبري من الأئمة الأعلام الذين برعوا في علوم كثيرة، و تركوا تراثا إسلاميا ضخما تناقلته العصور و الأجيال، و قد أحرز شهرة واسعة بكتابه: في التاريخ: تاريخ الأمم و الملوك، و التفسير، جامع البيان في تفسير

(١) انظر الاتقان صفحة ١٨٩ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦٣

القرآن. و هما من أهم المراجع العلمية. بل ان كتابه في التفسير هو المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير بالمأثور. و يقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءا من الحجم الكبير، و قد كان مفقودا إلى عهد قريب، ثم قدر الله له الظهور حين وجدت نسخة مخطوطة في حيازة أمير «حائل» الأمير حمود بن عبد الرشيد من أمراء نجد، طبع عليها الكتاب منذ زمن قريب، فأصبحت في يدنا دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور.

و هو تفسير عظيم القيمة، لا غنى لطالب التفسير عنه، قال السيوطي:

«و كتابه- يعنى تفسير محمد بن جرير- أجل التفاسير و أعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، و ترجيح بعضها على بعض، و الإعراب، و الاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين» و قال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري» «١». و تفسير الطبري أقدم كتاب وصل إلينا كاملا في التفسير. فإن المحاولات التفسيرية قبله لم يصل إلينا شيء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب.

و طريقة ابن جرير في تفسيره أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول:

«القول في تأويل قوله تعالى كذا و كذا» ثم يفسر الآية مستشهدا بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم، و يعرض لكل ما روى في الآية، و لا يقتصر على مجرد الرواية، بل يوجه الأقوال و يرجح بعضها على بعض، كما يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك، و يستنبط بعض الأحكام.

و قد يقف من السند موقف الناقد البصير أحيانا، فيعدل من رجال الإسناد، و يجرح من يجرح منهم، و يرد الرواية التي لا يتق بصحتها.

(١) الإتقان، صفحة ١٩٠ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦٤

و يعتنى ابن جرير بذكر القراءات و توجيهها، و يقال: انه ألف فيها مؤلفا خاصا.

و مع روايته الأخبار المأخوذة من القصص الإسرائيلية فإنه كثيرا ما يتعقبها بالبحث.

و يعتمد ابن جرير على الاستعمالات اللغوية بجانب الروايات المنقولة، و يستشهد بالشعر القديم، و يهتم بالمذاهب النحوية، و يحتكم إلى المعروف من لغة العرب، و يعالج الأحكام الفقهية مجتهدا، فيذكر أقوال العلماء و مذاهبهم، و يخلص من ذلك برأى يختاره لنفسه و يرجحه.

و يناقش مسائل العقيدة مناقشة فاحصة، يرد فيها على الفرق و مذاهب أهل الكلام، و ينتصر لأهل السنة و الجماعة.

و قد طبعت دار المعارف بمصر كتابه، في اخراج حسن، و خرج أحاديثه الأستاذ أحمد محمد شاكر، و لكن هذه الطبعة لم تتم. مع

عظيم نفعها، و العناية بتحقيقها.

٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية

ابن عطية من قضاة الأندلس المشهورين، نشأ في بيت علم و فضل، و كان فقيها جليلا، عارفا بعلوم الحديث و التفسير و اللغة و الأدب، ذكي الفؤاد، حسن الفهم، من أعيان مذهب المالكية. و كتابه في التفسير يسمى «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». و قد لخص فيه ابن عطية ما روى من التفسير بالمنقول و أضفى عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة و رواجاً، و الكتاب يقع في عشر مجلدات كبار، و لا يزال مخطوطا إلى اليوم، و ذكر الشيخ محمد الذهبي «١» أنه يوجد منه في دار

(١) التفسير و المفسرون صفحة ٣٤٠ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦٥

الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط. مع أن الكتاب له شهرته، و ينقل عنه كثير من المفسرين. و هو كثير الاهتمام بالشواهد الأدبية، و الصناعة النحوية.

و يقارن أبو حيان في مقدمته تفسيره بينه و بين تفسير الزمخشري فيقول: «و كتاب ابن عطية أنقل، و أجمع، و أخلص، و كتاب الزمخشري أخلص و أغوص».

و يعقد ابن تيمية مقارنة بين الكتابين كذلك فيقول: «و تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، و أصح نقلا و بحثا، و أبعد عن البدع، و إن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير».

و يقول ابن تيمية كذلك: «و تفسير ابن عطية و أمثاله أتبع للسنة و الجماعة، و أسلم من البدع من تفسير الزمخشري، و لو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن و أجمل. فإنه كثيرا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري - و هو من أجل التفاسير و أعظمها قدرا - ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، و يذكر ما يزعم أنه قول المحققين، و إنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة، أصولهم، و إن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة» «١».

٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير

كان عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير إماما جليلا حافظا. أخذ عن ابن تيمية، و اتبعه في كثير من آرائه. و شهد له العلماء بغزارة علمه في التفسير و الحديث و التاريخ، و كتابه في التاريخ «البداية و النهاية» مرجع أصيل للتاريخ الإسلامي. و كتابه في التفسير «تفسير القرآن العظيم» من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، و يأتي في المرتبة الثانية بعد كتاب ابن جرير، فهو يفسر كلام الله بالأحاديث و الآثار مسنده إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير صفحة ٢٣.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦٦

جرحا و تعديلا، و ترجيح بعض الأقوال على بعض، و تضعيف بعض الروايات و تصحيح بعضها الآخر.

و يمتاز ابن كثير بأنه ينه في كثير من الأحيان إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات، كما يذكر أقوال العلماء في الأحكام الفقهية، و يناقش مذاهبهم و أدلتهم أحيانا.

و تفسير ابن كثير طبع مع «معالم التنزيل» للبعوى، و طبع مستقلا في أربعة أجزاء كبار، و قام الشيخ أحمد شاكر بطبعه قبيل وفاته بعد أن جرده من الأسانيد.

اشهر الكتب المؤلفة في التفسير بالرأى

إشارة

١- تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصب ٢- تفسير أبى على الجبائى.

٣- تفسير عبد الجبار.

٤- تفسير الزمخشري «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، و عيون الأقاويل، فى وجوه التأويل».

٥- تفسير فخر الدين الرازى «مفاتيح الغيب» ٦- تفسير ابن فورك ٧- تفسير النسفى «مدارك التنزيل و حقائق التأويل» ٨- تفسير

الخازن «لباب التأويل فى معانى التنزيل» ٩- تفسير أبى حيان «البحر المحيط» ١٠- تفسير البيضاوى «أنوار التنزيل و أسرار التأويل» ١١-

تفسير الجلالين: جلال الدين المحلى، و جلال الدين السيوطى.

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٦٧

أما جلال الدين المحلى، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة، و بعد أن أتمها اختارته المنية فلم يفسر ما بعدها.

و أما جلال الدين السيوطى. فقد جاء بعد الجلال المحلى فأكمل تفسيره، فابتدأ بتفسير سورة البقرة و انتهى عند آخر سورة الإسراء، و

وضع تفسير الفاتحة فى آخر تفسير الجلال المحلى لتكون ملحقة به.

و كثيرا ما يخطئ بعض الناس فى هذا التقسيم.

١٢- تفسير القرطبى «الجامع لأحكام القرآن».

١٣- تفسير أبى السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» ١٤- تفسير الألوسى «روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم و

السبع المثانى» و سنعرف ببعض منها:

١- مفاتيح الغيب للرازى

فخر الدين الرازى من العلماء المتبحرين الذين نبغوا فى العلوم الثقيلة و العلوم العقلية، و اكتسب شهرة عظيمة طوّفت به فى الآفاق، و له

مصنفات كثيرة، و من أهم مصنفاته تفسيره الكبير، المسمى بمفاتيح الغيب.

و يقع هذا التفسير فى ثمانى مجلدات كبار، و تدل الأقوال على أن الفخر الرازى لم يتمه. و تتضارب الآراء فى الموضع الذى انتهى

إليه فى تفسيره، و فىمن أتمه بعده. و يعلق على هذا الشيخ محمد الذهبى فىقول: «و الذى أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب، هو

أن الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخويّى فشرع فى تكمله هذا التفسير

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٦٨

و لكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولى فأكمل ما بقى منه، كما يجوز أن يكون الخويّى أكمله إلى النهاية، و القمولى كتب

تكمله أخرى غير التى كتبها الخويّى، و هذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون «١».

و القارى لهذا التفسير لا يجد تفاوتاً فى المنهج و المسلك، و لا يستطيع أن يميز بين الأصل و التكملة.

و يهتم الفخر الرازى ببيان المناسبات بين آيات القرآن و سوره، و يكثّر من الاستطراد إلى العلوم الرياضيه و الطبيعیه و الفلكية و

الفلسفية و مباحث الإلهيات على نمط استدلالات الفلاسفة العقلية، و يذكر مذاهب الفقهاء، و معظم ذلك لا حاجة إليه في علم التفسير.

فكتابه موسوعة علمية في علم الكلام، و في علوم الكون و الطبيعة، و بهذا فقد أهميته كتفسير للقرآن الكريم.

٢- البحر المحيط لأبي حيان

كان أبو حيان الأندلسي الغرناطي على جانب كبير من المعرفة باللغة، و كان على علم واسع في التفسير، و الحديث، و تراجم الرجال، و معرفة طبقاتهم، خصوصا المغاربة، و له مؤلفات كثيرة، أهمها تفسيره «البحر المحيط».

و يقع هذا التفسير في ثمانى مجلدات كبار، و هو مطبوع متداول، و يهتم أبو حيان فيه بذكر وجوه الإعراب، و مسائل النحو، و يتوسع في هذا فيذكر الخلاف بين النحويين، و يناقش و يجادل، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

و ينقل أبو حيان في تفسيره كثيرا من تفسير الزمخشري و تفسير ابن عطية، و لا سيما ما يتعلق بمسائل النحو و وجوه الإعراب، و يتعقبها كثيرا بالرد، و يحمل

(١) التفسير و المفسرون ٢٩٣ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٦٩

على الزمخشري أحيانا حملات قاسية، و إن كان يشيد بما له من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن و قوة بيانه.

و لا يرضى أبو حيان عن اعتراضات الزمخشري فينقدها و يردّها بأسلوب ساخر، و يعتمد في أكثر نقوله على كتاب «التحرير و التحرير لأقوال أئمة التفسير» و هو لشيخه: جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان المقدسى المعروف بابن النقيب، و يذكر أبو حيان عنه أنه أكبر كتاب صنف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد.

٣- الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري

كان الزمخشري عالما عبقريا فذا في النحو و اللغة و الأدب و التفسير، و آراؤه في العربية يستشهد علماء اللغة بها لأصالتها و دقتها.

و الزمخشري معتزلى الاعتقاد، حنفى المذهب، ألف كتاب «الكشاف» بما يدعم عقيدته و مذهبه.

و اعتراضات الزمخشري في تفسيره أمانة على حذقه و دهائه و مهارته، فهو يأتي بالإشارات البعيدة ليضمنها معنى الآية في الانتصار للمعتزلة و الرد على خصومهم.

و لكنه في الجانب اللغوى كشف عن جمال القرآن و سحر بلاغته لما له من إحاطة بعلوم البلاغة و البيان و الأدب و النحو و

التصريف، فكان مرجعا لغويا غنيا، و هو يشير في مقدمته إلى هذا فيذكر أن من يتصدى للتفسير لا يغوص على شىء من حقائقه، إلا

رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، و هما علم المعانى، و علم البيان. و تمهل في ارتيادهما آونة، و تعب في التنقيب عنهما

أزمنة، و بعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله، و حرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من

سائر العلوم بحظ، جامعا

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧٠

بين أمرين: تحقيق و حفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا و رجع إليه. ورد عليه، فارسا في علم الإعراب، مقدا في حملة الكتاب.

و كان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مستقل القريحة وقادها». مباحث في علوم القرآن ٣٧٠ - الكشف عن حقائق التنزيل و

عيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ص : ٣٦٩

و يحلل ابن خلدون كتاب الكشاف للزمخشري في قوله عند الحديث عما يرجع إليه التفسير من معرفة اللغة و الإعراب و البلاغة «و من أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير، كتاب الكشاف للزمخشري، من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، و تحذير للجمهور من مكانه، مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان و البلاغة، و إذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية، محسنا للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابه فنونه في اللسان، و لقد وصل الينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، و هو شرف الدين الطيبي من أهل توريث من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، و تتبع ألفاظه، و تعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، و تبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، و فوق كل ذي علم عليم» «١».

اشهر كتب التفسير في العصر الحديث

اشاره

لقد أعطى المفسرون الأوائل كتب التفسير حظها من المنقول و المعقول، و توافروا على المباحث اللغوية، و البلاغية، و النحوية، و الفقهية و المذهبية و الكونية الفلسفية ثم فترت الهمم، و جاء من بعدهم مختصرا و ناقلا، أو مفندا و مرجحا. فلما جاءت النهضة العلمية في العصر الحديث شملت فيما شملته «التفسير» و إليك أمثلة منه:-

(١) مقدمة ابن خلدون، صفحة ٤٩١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧١

١- الجواهر في تفسير القرآن للشيخ طنطاوي جوهرى

كان الشيخ طنطاوي جوهرى مغرما بالعجائب الكونية، و كان مدرسا بمدرسه دار العلوم في مصر، يفسر بعض آيات القرآن على طلبتها، كما كان يكتب في بعض الصحف ثم خرج بمؤلفه في التفسير «الجواهر في تفسير القرآن». و قد عنى في هذا التفسير عناية فائقة، بالعلوم الكونية، و عجائب الخلق، و يقرر في تفسيره أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة و خمسين آية، و يهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون، و يحثهم على العمل بما فيها، و يفضلها على غيرها في الوقت الحاضر، حتى على فرائض الدين، فيقول: «يا ليت شعري: لما ذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟ و لكنى أقول: الحمد لله. الحمد لله! إنك تقرأ في هذا التفسير. خلاصات من العلوم، و دراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للزيادة في معرفة الله، و هي فرض عين على كل قادر» و يأخذ الغرور منه مأخذه، فينحى باللائمة على المفسرين السابقين، و يقول: «ان هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الاسلام، فهذا زمان الانقلاب، و ظهور الحقائق، و الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم». و المؤلف يخلط في كتابه خلطا، فيضع في تفسيره صور النبات و الحيوانات و مناظر الطبيعة، و تجارب العلوم كأنه كتاب مدرسى في العلوم، و يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، و عن إخوان الصفا في رسائلهم، و يستخدم الرياضيات، و يفسر الآيات تفسيرا يقوم على نظريات علمية حديثة.

وقد أساء الشيخ طنطاوى جوهرى فى نظرنا بهذا إلى التفسير إساءة بالغة من حيث يظن أنه يحسن صنعا و لم يجد تفسيره قبولا لدى كثير من المثقفين. لما فيه من تعسف فى حمل الآيات على غير معناها، و لذا وصف هذا التفسير بما وصف به تفسير الفخر الرازى، فقليل عنه «فيه كل شىء إلا التفسير».

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٧٢

٢- تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا

لقد قام الشيخ محمد عبده بنهضة علمية مباركة، آتت ثمارها فى تلاميذه، و تركزت هذه النهضة على الوعى الإسلامى، و إدراك مفاهيم الإسلام الاجتماعى، و علاج هذا الدين لمشاكل الحياة المعاصرة، و بدأت نواة ذلك فى حركة جمال الدين الأفغانى، الذى تتلمذ عليه الشيخ محمد عبده، و كان الشيخ محمد عبده يلقى دروسا فى التفسير بالجامع الأزهر، و لازمته كثير من طلابه و مريديه، و كان الشيخ رشيد أزم الناس لهذه الدروس، و أحرصهم على تلقيها و ضبطها، فكان بحق الوارث الأول لعلم الشيخ محمد عبده. فظهرت ثمرة ذلك فى تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم، و المشهور بتفسير المنار. نسبة إلى مجلة «المنار» التى كان يصدرها. و قد بدأ تفسيره من أول القرآن، و انتهى عند قوله تعالى (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. ١٠١- يوسف) ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن، و هذا القدر من التفسير مطبوع فى اثنى عشر مجلدا كبارا.

و هو تفسير غنى بالمأثور عن سالف هذه الأمة من الصحابة و التابعين، و بأساليب اللغة العربية، و بسنن الله الاجتماعى، يشرح الآيات بأسلوب رائع، و يكشف عن المعانى بعبارة سهلة، و يوضح كثيرا من المشكلات، و يرد على ما أثير حول الإسلام من شبهات خصومه، و يعالج أمراض المجتمع بهدى القرآن، و يصرح الشيخ رشيد بأن هدفه من هذا التفسير هو: «فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا و حياتهم الآخرة»

مباحث فى علوم القرآن، ص: ٣٧٣

٣- فى ظلال القرآن لسيد قطب

تعتبر حركة الإخوان المسلمين التى قام بها الشهيد حسن البنا كبرى الحركات الإسلامىة المعاصرة بلا مراء، و لا يستطيع أحد من خصومها أن ينكر فضلها فيما أحدثته من وعى فى العالم الإسلامى كافة، فجر طاقات الشباب المسلم لخدمة الإسلام، و إعزاز شريعته، و إعلاء كلمته، و بناء مجده. و استعادة سلطانه.

و مهما قيل فى الأحداث التى وقعت على هذه الجماعة فإن أثرها الفكرى لا يجحده إنسان.

و برز من رجال هذه الجماعة العالم الفذ، و المفكر الألمعى، الشهيد سيد قطب، الذى فلسف الفكر الإسلامى، و كشف عن مفاهيمه الصحيحة فى وضوح و جلاء، و قد لقي الرجل ربه شهيدا فى سبيل عقيدته و ترك تراثه الفكرى، و فى مقدمته كتابه فى تفسير القرآن، المسمى «فى ظلال القرآن».

و الكتاب تفسير كامل للحياة فى ضوء القرآن و هدى الإسلام. عاش مؤلفه فى ظلال الذكر الحكيم، كما يفهم من تسميته- يتذوق حلاوة القرآن، و يعبر عن مشاعره تعبيرا صادقا. انتهى فيه إلى أن الانسانية اليوم فى شقائها بالمذاهب الهدامة، و صراعها الدامى من حين لآخر، لا خلاص لها إلا بالإسلام: يقول فى المقدمة: «و انتهت من فترة الحياة فى ظلال القرآن- إلى يقين جازم حاسم ..

أنه لاصلاح لهذه الأرض، و لا راحة لهذه البشرية، و لا طمأنينة لهذا الإنسان، و لا رفعة و لا بركة، و لا طهارة، و لا تناسق مع سنن الكون و فطرة الحياة .. إلا بالرجوع إلى الله.

و الرجوع إلى الله - كما يتجلى في ظلال القرآن - له صورة واحدة، و طريق واحد ... واحد لا سواه .. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، و التحاكم إليه وحده

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧٤

في شئونها، و إلا فهو الفساد في الأرض، و الشقاوة للناس، و الارتكاس في الحمأة، و الجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله، (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافله و لا تطوعا و لا موضع اختيار، إنما هو الإيمان، .. أو فلا إيمان (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) «١».

و من هذا المنطلق نهج سيد قطب في تفسيره. و هو يأتي أولا- بظلاله في مقدمة السورة، تربط بين أجزائها، و توضح أهدافها و مقاصدها، ثم يشرع بعد ذلك في التفسير، فيذكر المأثور الصحيح، و يضرب صفحا عن المباحث اللغوية مكثفا بالإشارة العابرة، و يتجه إلى إيقاظ الوعي، و تصحيح المفاهيم، و ربط الإسلام بالحياة.

و الكتاب يقع في ثمانى مجلدات، و قد طبع عدة طبعات، في سنوات معدودة، لما له من رواج كبير لدى المثقفين.

و هو بحق ثروة فكرية اجتماعية هائلة لا يستغنى عنها المسلم المعاصر.

٤- التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطى

من نساتنا المعاصرات اللاتى أسهمن بنصيبهن فى الأدب العربى - و الفكر الاجتماعى الدكتور عائشة عبد الرحمن، المشهورة ببنت الشاطى.

(١) صفحة (٨) المجلد الأول - الجزء الأول.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧٥

و قد تولت التدريس فى كلية الآداب بالقاهرة، و فى كلية التربية للبنات.

و تناولت فى تدريسها تفسير بعض سور القرآن. القصار. و طبعت ذلك فى «التفسير البيانى للقرآن».

و بنت الشاطى تهتم فى تفسيرها بالبيان العربى و تذكر فى المقدمة أنها اهدت إلى هذه الطريقة لمعالجة مشكلاتنا فى حياتنا الأدبية و اللغوية، و أنها بحثت ذلك فى عدة مؤتمرات دولية، فى مؤتمر المستشرقين الدولى فى الهند سنة ١٩٦٤ - كان موضوع البحث الذى شاركت به فى شعبة الدراسات الإسلامية، هو «مشكلة الترادف اللغوى، فى ضوء التفسير البيانى للقرآن الكريم» تقول: «و فيه بينت كيف شهد التبع الدقيق لمعجم ألفاظ القرآن - و استقراء دلالاتها فى سياقها، بأن القرآن يستعمل اللفظ بدلالة محدودة، لا يمكن معها أن يقوم لفظ مقام آخر، فى المعنى الواحد الذى تحشد له المعاجم اللغوية و كتب التفسير، عددا قلا أو كثر من الألفاظ المقول بترادفها».

و تعيب بنت الشاطى على الانشغال فى دروس الأدب بالمعلقات و النقائص و المفضليات و مشهور الخمریات و الحماسيات عن الاتجاه إلى القرآن الكريم، ثم تقول: «و نحن فى الجامعة نترك هذا الكثر الغالى لدرس التفسير، و قل فىنا من حاول أن ينقله إلى مجال الدراسة الأدبية الخالصة التى قصرناها على دواوين الشعر، و نشر أمراء البيان».

و التفسير البيانى محاوله لا بأس بها لتحقيق الأغراض التى تهدف إليها بنت الشاطى، و هى تعتمد فى ذلك على كتب التفسير التى لها عناية بوجوه البلاغة القرآنية، و تعبر تعبيرا أدبيا راقيا. «١»

(١) من محاذير هذا النهج في التفسير أنه يغفل جوانب القرآن المتعددة من أسرار الإعجاز في معانيه و تشريعاته، و أحكامه و مبادئه للحياة الانسانية الفاضلة. و يتخذ من النص القرآني مادة للدراسة الأدبية كالنص الشعري أو النثري، و دراسة النصوص الأدبية تعتمد على الذوق اللغوي الذي يتفاوت من شخص لآخر بتفاوت ثقافته.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧٤

تفسير الفقهاء

إشارة

كان الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم يفهمون القرآن بسليقتهم العربية، و إن التبس عليهم فهم آية رجعوا إلى رسول الله فيبينها لهم.

و لما توفي صلى الله عليه و سلم و تولى فقهاء الصحابة توجيه الأمة بقيادة الخلفاء الراشدين. و جدت قضايا لم تسبق لهم كان القرآن ملاذا لهم لاستنباط الأحكام الشرعية للقضايا الجديدة. فيجمعون على رأى فيها، و قلما يختلفون عند التعارض، كاختلافهم في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها. أ هي وضع الحمل، أم مضى أربعة أشهر و عشر، أم أبعد الأجلين منهما؟ حيث قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ-٢٣٤ البقرة) و قال: (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ-٤ الطلاق) فكانت هذه الأحوال على قلتها بداية الخلاف الفقهي في فهم آيات الأحكام.

فلما كان عهد الأئمة الفقهاء الأربعة، و اتخذ كل إمام أصولا لاستنباط الأحكام في مذهبه. و كثرت الأحداث و تشعبت المسائل ازدادت وجوه الاختلاف في فهم بعض الآيات لتفاوت وجوه الدلالة فيها دون تعصب لمذهب بل استمساكا بما يرى الفقيه أنه الحق، و لا يجد غضاضة إذا عرف الحق لدى غيره أن يرجع إليه.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧٧

ظل الأمر هكذا حتى جاء عصر التقليد و التعصب المذهبي، فقصر أتباع الأئمة جهودهم على توضيح مذهبهم و الانتصار له، و لو كان ذلك بحمل الآيات القرآنية على المعاني المرجوحة البعيدة. و نشأ من هذا تفسير فقهي خاص لآيات الأحكام في القرآن، يشتد التعصب المذهبي فيه أحيانا، و يخف أخرى.

و تتابع هذا المنهج إلى العصر الحديث، و هذا هو ما نسميه بالتفسير الفقهي، و من أشهر كتبه:

- ١- أحكام القرآن للجصاص مطبوع ٢- أحكام القرآن للكنيا الهراس مخطوط ٣- أحكام القرآن لابن العربي مطبوع ٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي مطبوع ٥- الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي مخطوط ٦- التفسيرات الأحمدي في بيان الآيات الشرعية لملا جيون مطبوع بالهند ٧- تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد السائس مطبوع ٨- تفسير آيات الأحكام للشيخ مناع القطان مطبوع ٩- اضواء البيان للشيخ محمد الشنقيطي مطبوع و سنعرف ببعض منها:

١- أحكام القرآن للجصاص

أبو بكر أحمد بن علي الرازي المشهور بالجصاص - نسبة إلى العمل بالجص - من أئمة الفقه الحنفي في القرن الرابع الهجري. و يعتبر كتابه:

«أحكام القرآن» من أهم كتب التفسير الفقهي، و لا سيما عند الأحناف.

وقد اقتصر المؤلف في هذا الكتاب على تفسير الآيات التي تتعلق بالأحكام الفرعية، فيورد الآية أو الآيات، ثم يتولى شرحها بشيء من المأثور في معناها،

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧٨

و يستطرد في ذكر المسائل الفقهية التي تتصل بها من قريب أو بعيد، و يسوق الخلافات المذهبية، حيث يشعر القارئ أنه يقرأ في كتاب من كتب الفقه، لا في كتاب من كتب التفسير.

و الجصاص يتعصب لمذهب الحنفية تعصبا ممقوتا، يحمله على التعسف في تفسير الآيات و تأويلها انتصارا لمذهبه، و يشتد في الرد على المخالفين متعنتا في التأويل بصورة تنفر القارئ أحيانا من متابعة القراءة، لعباراته اللاذعة في مناقشة المذاهب الأخرى. و يبدو من تفسير الجصاص كذلك أنه ينحو منحى المعتزلة في العقائد.

فيقول مثلا في قوله تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ۚ ١٠٣- الْأَنْعَام): «معناه لا تراه الأبصار، و هذا تمدح بنفى رؤية الأبصار، كقوله تعالى: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ٢٥٥- البقرة) و ما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإنه إثبات ضده ذم و نقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال .. فلما تمدح بنفى رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده و نقيضه بحال. إذ كان فيه إثبات صفة نقص، و لا يجوز أن يكون مخصوصا بقوله تعالى: (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ٢٢، ٢٣- القيامة) لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روى عن جماعة من السلف، فلما كان ذلك محتملا للتأويل لم يجز الاعتراض به على ما لا مساغ للتأويل فيه، و الأخبار المروية في الرؤية إنما المراد بها العلم لو صح، و هو علم الضرورة الذي لا تشوبه شبهة، و لا تعرض فيه الشكوك، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة في اللغة» (١).

و الكتاب مطبوع في ثلاث مجلدات، و هو متداول بين أهل العلم، و من مراجع الفقه الحنفى.

(١) انظر صفحة ٥ ج ٣.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٧٩

٢- أحكام القرآن لابن العربي

أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافى الأندلسى الإشبلى. من أئمة علماء الأندلس المتبحرين. و هو مالكي المذهب. و كتابه «أحكام القرآن» أهم مرجع للتفسير الفقهى عند المالكية.

و ابن العربي فى تفسيره رجل معتدل منصف، لا يتعصب لمذهبه كثيرا، و لا يتعسف فى تنفيذ آراء المخالفين كما فعل الجصاص، و إن كان يتغاضى عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي.

و هو يذكر آراء العلماء فى تفسير الآية مقتصرًا على آيات الأحكام، و يبين احتمالاتها المختلفة لدى المذاهب المتعددة، و يفرد كل نقطة فى تفسير الآية بعنوان. فيقول: المسألة الأولى .. المسألة الثانية .. وهكذا، و قلما يقسو فى الرد على مخالفيه، كقوله مثلا فى تفسير قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... ٦- المائدة) «المسألة الحادية عشرة» قوله عز و جل (فَاغْسِلُوا) و ظن الشافعى - و هو عند أصحابه معد بن عدنان فى الفصاحة بله أبى حنيفة و سواه - أن الغسل صب الماء على المغسول من غير عرك، و قد بينا فساد ذلك فى مسائل الخلاف، و فى سورة النساء، و حققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء أو ما فى معنى اليد» (١).

و يحتكم ابن العربي فى تفسيره إلى اللغة فى استنباط الأحكام. و ينفر من الإسرائيليات، و يتعرض لنقد الأحاديث الضعيفة و يحذر منها.

و الكتاب مطبوع عدة طبعات، منها طبعه فى مجلدين كبيرين، و منها طبعه فى أربع مجلدات و يتداوله العلماء.

(١) انظر صفحة ٢٣٢ ج ١.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٠

٣- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي عالم فذ من علماء المالكية. له مصنفات كثيرة، أشهرها كتابه في التفسير «الجامع لأحكام القرآن».

و القرطبي في تفسيره لم يقتصر على آيات الأحكام وإنما يفسر القرآن الكريم تباعاً، فيذكر سبب النزول، و يعرض للقراءات و الإعراب، و يشرح الغريب من الألفاظ، و يضيف الأقوال إلى قائلها، و يضرب صفحا عن كثير من قصص المفسرين، و أخبار المؤرخين، و ينقل عن العلماء السابقين الموثوقين.

و لا- سيما من ألف منهم في كتب الأحكام، فينقل عن ابن جرير الطبري، و ابن عطية، و ابن العربي، و الكيا الهراس، و أبو بكر الجصاص.

و يفيض القرطبي في بحث آيات الأحكام، فيذكر مسائل الخلاف، و يسوق أدلة كل رأي، و يعلق عليها، و لا- يتعصب لمذهبه المالكي، ففي تفسير قوله تعالى: (أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ١٨٧- البقرة) يقول في المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية بعد أن ذكر خلاف العلماء في حكم من أكل في نهار رمضان ناسيا و ما نقل عن مالك من أنه يفطر و عليه القضاء يقول: «و عند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسيا لصومه، قلت: و هو الصحيح، و به قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسيا فلا قضاء عليه، و إن صومه تام، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أكل الصائم ناسيا أو شرب ناسيا فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، و لا قضاء عليه» (١) فأنت ترى أنه بهذا يخالف مذهبه، و ينصف الآخرين.

(١) انظر صفحة ٣٢٢ ج ٢.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨١

و يرد القرطبي على الفرق، فيرد على المعتزلة، و القدرية، و الروافض، و الفلاسفة، و غلاة المتصوفة، و لكن بأسلوب مهذب كذلك، و يدفعه الإنصاف إلى الدفاع عن مهاجمهم ابن العربي من المخالفين أحيانا- و يلومه على ما يصدر منه من عبارات قاسية على علماء المسلمين. و حين ينقد يكون نقده نزيها في أدب و عفة.

و قد كان كتاب «الجامع لأحكام القرآن» مفقودا من المكتبات حتى قامت دار الكتب المصرية بطبعه أخيرا فيسرت الحصول عليه للقارئ.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٢

٢٦- تراجم لبعض مشاهير المفسرين

ابن عباس

نسبه و حياته: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية، ولد و بنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث، و قيل بخمس و الأول أثبت.

وقد حجج عبد الله بن عباس سنة قتل عثمان بأمر منه، و كان على الميسرة يوم صفين، و ولاه على البصرة، فلم يزل ابن عباس عليها حتى قتل على فاستخلف على البصرة عبد الله بن الحارث و مضى إلى الحجاز. و توفي بالطائف سنة خمس و ستين، و قيل سبع، و قيل ثمان و هو الصحيح في قول الجمهور، قال الواقدي: لا خلاف عند أئمتنا أنه ولد بالشعب حين حصرت قريش بنى هاشم، و أنه كان له عند موت النبي صلى الله عليه و سلم ثلاث عشرة سنة.

منزلته و علمه: و ابن عباس ترجمان القرآن، و حبر الأمة، و رئيس المفسرين، فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس» و أخرج أبو نعيم عن مجاهد قال: «كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه» و أخرج ابن سعد بسند صحيح عن يحيى بن سعيد الأنصاري: «لما مات

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٣

زيد بن ثابت قال أبو هريرة، مات حبر هذه الأمة، و لعل الله أن يجعل في ابن عباس خلفاً».

وقد أحرز ابن عباس منزلته بين كبار الصحابة على صغر سنه بعلمه و فهمه تحقيقاً لدعوة رسول الله صلى الله عليه و سلم ففي الصحيح عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم ضمه إليه و قال:

«اللهم علمه الحكمة». و في معجم البغوى و غيره عن عمر أنه كان يقرب ابن عباس و يقول «إني رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم دعاك فمسح رأسك، و تفل في فيك» و قال «اللهم فقهه في الدين، و علمه التأويل». و أخرج البخارى من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا و إن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) فقال بعضهم: امرنا أن نحمد الله و نستغفره إذا نصرنا و فتح علينا، و سكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لى: أ كذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمه له، قال: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَذَلِكَ عَلامَةُ أَجْلِكَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول».

تفسيره: و قد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة، و جمع ما نقل عنه في تفسير مختصر ممزوج يسمى «تفسير ابن عباس» و فيه روايات و طرق مختلفة، و لكن أحسن الطرق عنه طريق على بن أبى طلحة الهاشمى عنه، و اعتمد على هذه البخارى في صحيحه، و من جيد الطرق طريق قيس بن مسلم الكوفى عن عطاء بن السائب.

و فى التفاسير الطوال التى أسندوها إلى ابن عباس مجاهيل: و أوهى طرقه طريق الكلبي عن أبى صالح، و الكلبي هو أبو النصر محمد بن السائب المتوفى سنة ١٤٦ هـ فان انضم إليه رواية محمد بن مروان السدى الصغير المتوفى سنة ١٨٦ هـ فهى سلسلة

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٤

الكذب، و كذلك طريق مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدى، إلا أن الكلبي يفضل عليه لما فى مقاتل من المذاهب الرديئة.. و طريق الضحاك بن مزاحم الكوفى عن ابن عباس منقطعاً، فإنه لم يلق ابن عباس و إن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة ضعيفة لضعف بشر، و إن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفاً، لأن جويبراً شديد الضعف متروك.

و طريق العوفى عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير و ابن أبى حاتم كثيراً، و العوفى ضعيف ليس بواه، و ربما حسن له الترمذى. و بهذا يستطيع القارئ أن ينقب عن الطرق و يعرف منها الجيد المقبول من الضعيف أو المتروك، فليس كل ما روى عن ابن عباس بالصحيح الثابت. و قد ذكرنا مزيداً من التفصيل عن ذلك عند الكلام عن تفسيره.

مجاهد بن جبر

نسبه و حياته: هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومى المقرئ، مولى السائب بن أبى السائب، روى عن على. و سعد بن أبى

وقاص، و العبادلة الأربعة، و رافع بن خديج، و عائشة، و أم سلمة، و أبي هريرة، و سراقه بن مالك، و عبد الله بن السائب المخزومي، و خلق كثير. و روى عنه عطاء، و عكرمة، و عمرو بن دينار، و قتادة، و سليمان الأحول، و سليمان الأعمش، و عبد الله بن كثير القارئ، و آخرون. و كان مولده سنة ٢١ هـ إحدى و عشرين في خلافة عمر، و مات سنة اثنين أو ثلاث و مائة، و قال يحيى القطان: مات سنة ١٠٤ هـ أربع و مائة.

منزلته: و مجاهد رأس المفسرين من طبقه التابعين حتى قيل أنه كان أعلمهم بالتفسير، و قد أخذ تفسيره عن ابن عباس ثلاثين مرة، و عنه أيضا قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية و أسأله عنها، فيم

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٥

نزلت، و كيف كانت؟ و قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، قال ابن تيمية: و لهذا يعتمد على تفسيره الشافعي و البخاري و غيرهما من أهل العلم.

و قال أبو حاتم: مجاهد لم يسمع عن عائشة، حديثه عنها مرسل، و قال:

مجاهد عن سعد و معاوية و كعب بن عجرة مرسل، و قال أبو نعيم: قال يحيى القطان: مراسلات مجاهد أحب إلي من مراسلات عطاء، و قال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد، و قال ابن سعد: كان ثقة فقيها عالما كثير الحديث، و قال ابن حبان: كان فقيها ورعا عبدا متقنا، و قال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد و الاحتجاج به، و قال: قرأ عليه عبد الله بن كثير.

و إذا كان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فليس معنى هذا أن نأخذ كل ما نسب إلى مجاهد، فإن مجاهدا كغيره من الرواة الذين نقل عنهم، و قد يكون من النقلة عنه الضعيف الذي لا يوثق به، فلا بد من التحري و ثبوت سلامة السند، شأنه في ذلك شأن ابن عباس فيما روى عنه.

الطبري

نسبه و حياته: هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير أبو جعفر الطبري، الآملي الأصل، البغدادي المولد و الوفاء- ولد سنة ٢٢٤ هـ أربع و عشرين و مائتين، و توفي سنة ٣١٠ هـ عشر و ثلاثمائة، و كان عالما فذا كثير الرواية ذا بصيرة بالنقل و الترجيح بين الروايات، و له باع طويل في تاريخ الرجال و أخبار الأمم.

تصانيفه: صنف ابن جرير من الكتب: جامع البيان في تفسير القرآن، و تاريخ الأمم و الملوك و أخبارهم، و الآداب الحميدة و الأخلاق النفيسة «و تاريخ الرجال، و اختلاف الفقهاء، و تهذيب الآثار، و كتاب البسيط في الفقه، و الجامع في القراءات، و كتاب التبصير في الاصول.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٦

تفسيره: و كتابه في التفسير «جامع البيان في تفسير القرآن» أجل التفاسير و أعظمها، و هو المرجع الأصيل للمفسرين بالأثر، و ابن جرير يورد التفسير مسندا إلى الصحابة و التابعين و أتباعهم، و يتعرض لتوجيه الأقوال و ترجيح بعضها على بعض، و قد اجمع العلماء المعترفون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله، قال النووي في تهذيبه: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله، و يمتاز ابن جرير بالاستنباط الرائع، و الإشارة إلى ما خفى في الإعراب، و بذلك كان تفسيره فوق أقرانه من التفاسير، و أكثر ما ينقل ابن كثير عن ابن جرير.

ابن كثير

نسبه و حياته: هو إسماعيل بن عمر القرشي ابن كثير البصري ثم الدمشقي، عماد الدين أبو الفداء الحافظ المحدث الشافعي.

ولد سنة ٧٠٥ هـ خمس و سبعمائة، و توفي سنة ٧٧٤ هـ أربع و سبعين و سبعمائة، بعد حياة زاخرة بالعلم، فقد كان فقهيا متقنا، و محدثا بارعا، و مؤرخا ماهرا، و مفسرا ضابطا، قال فيه الحافظ ابن حجر «إنه كان من محدثي الفقهاء» و قال «سارت تصانيفه في البلاد في حياته، و انتفع بها بعد وفاته».

تصانيفه- و من تصانيفه: البداية و النهاية في التاريخ، و هو من أهم المراجع للمؤرخين، و الكواكب الدراري في التاريخ، انتخبه من البداية و النهاية و تفسير، القرآن، و الاجتهاد في طلب الجهاد، و جامع المسانيد، و السنن الهادي لأقوم سنن، و الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس.

تفسيره:- قال فيه محمد رشيد رضا:- «هذا التفسير من أشهر كتب التفسير في العناية بما روى عن مفسري السلف، و بيان معاني الآيات و أحكامها، و تحامى ما أطال به الكثيرون من مباحث الإعراب و نكت فنون البلاغة، أو الاستطراد لعلوم أخرى لا يحتاج إليها في فهم القرآن، و لا التفقه فيه، و لا الانعاط به».

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٧

و من مزاياه العناية بما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، فهو أكثر ما عرفنا من كتب التفسير سردا للآيات المتناسبة في المعنى، و يلي ذلك فيه الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية و بيان ما يحتج به منها، و يليهما آثار الصحابة و أقوال التابعين و من بعدهم من علماء السلف.

و منها تذكيره بما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات و تحذيره منها بالإجمال، و بيانه لبعض منكراتها بالتعيين، و ياليتها استقصى ذلك أو ترك إيراد ما لم تتوفر فيه داعية التمحيص و التحقيق) اه.

فخر الدين الرازي

نسبه و حياته: هو محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري الطبرستاني الرازي فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعي الفقيه. ولد بالري سنة ٥٤٣ هـ ثلاث و أربعين و خمسمائة، و توفي بهراء سنة ٦٠٦ هـ ست و ستمائة- و درس العلوم الدينية و العلوم العقلية، فتعمق في المنطق و الفلسفة، و برز في علم الكلام، و له في هذا كله الكتب و الشروح و التعليقات، حتى عدوه من فلاسفة عصره، و لا تزال كتبه مراجع هامة لمن يسمونهم بالفلاسفة الإسلاميين.

تصانيفه: و لفخر الدين الرازي تصانيف كثيرة، منها: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن، و تفسيره أسرار التنزيل و أنوار التأويل، و إحكام الأحكام، و المحصل في أصول الفقه، و البرهان في قراءة القرآن، و درة التنزيل و غرة التأويل في الآيات المتشابهات، و شرح الإشارات و التنبهات لابن سينا، و إبطال القياس، و شرح القانون لابن سينا، و البيان و البرهان في الرد على أهل الزيغ و الطغيان، و تعجيز الفلاسفة، و رسالة الجوهر، و رسالة الحدوث، و كتاب الملل و النحل، و محصل أفكار المتقدمين و المتأخرين من الحكماء و المتكلمين في علم الكلام، و شرح المفصل للزمخشري.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٨

تفسيره:- و قد أثرت العلوم العقلية على الرازي في تفسيره، فمزجه بخليط من الطب و المنطق و الفلسفة و الحكمة، و خرج به عن معاني القرآن و روح آياته، و حمل نصوص الكتاب ما لم تنزل له من مسائل العلوم العقلية و اصطلاحاتها العلمية، ففقد كتابه بهذا روحانية التفسير و هداية الإسلام، و لذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير) كما ذكرنا آنفا.

الزمخشري

نسبه و حياته: هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري- ولد في السابع و العشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧ هـ سبع و ستين

و أربعمائه بزمخشر» و هي قرية كبيرة من قرى خوارزم، و تلقى العلم في بلاده، و رحل إلى بخارى في طلبه، و أخذ الأدب عن شيخه منصور أبي مضر، ثم رحل إلى مكة و جاور بها زمنا، فقبل له (جار الله) و بها ألف كتابه في التفسير (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأفاويل في وجوه التأويل) و توفي الزمخشري سنة ٥٣٨ هـ ثمان و ثلاثين و خمسمائة، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، و رثاه بعضهم بأبيات منها:

فأرض مكة تدرى الدمع مقلتها حزنا لفرقة جار الله محمود علمه و مؤلفاته: و الزمخشري إمام من أئمة اللغة و المعاني و البيان، و كثيرا ما يجد القارئ في كتب النحو و البلاغة استشهادات له من كتبه للاحتجاج بها، فيقولون: قال الزمخشري في كشافه، أو في أساس البلاغة، و هو صاحب رأى و حجة في كثير من مسائل العربية، و ليس من هؤلاء النفر الذين ينهجون نهج غيرهم فيجمعون و ينقلون، و لكنه صاحب رأى يقتفى غيره أثره و ينقل عنه، و له تصانيف في الحديث و التفسير و النحو و اللغة و المعاني و البيان و غير ذلك، منها:

كتابه في تفسير القرآن (الكشاف)، و الفائق في تفسير الحديث، و المنهاج في الأصول، و المفصل في النحو، و أساس البلاغة في اللغة، و رءوس المسائل الفقهية.

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٨٩

مذهبه عقيدته: و الزمخشري حنفي المذهب، معتزلي العقيدة، يؤول الآيات وفق مذهبه و عقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة، و يسمى المعتزلة إخوانه في الدين من أفاضل الفئة الناجية العديلة.

تفسيره:- و كتاب الكشاف للزمخشري من أشهر كتب المفسرين بالرأى، الماهرين في اللغة، ينقل عنه الألوسي، و أبو السعود، و النسفي، و غيرهم من المفسرين بدون نسبة إليه، و اعترالياته في التفسير قد تولى التنقيب عنها العلامة أحمد النير. و سماها بالانتصاف، و فيها يناقش الزمخشري فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة و يورد ما يقابلها، كما يناقشه في كثير من أبواب اللغة، و قد طبعت المكتبة التجارية بمصر الكشاف طبعه أخيرة رتبها مصطفى حسين أحمد، و ذيلت بأربعة كتب، الأول: الانتصاف السابق، و الثاني الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني، و الثالث: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف (كالانتصاف)، و الرابع: مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للمرزوقي المذكور- و قد ضمن مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للمرزوقي المذكور- و قد ضمن تفسيره كثيرا من عقائد المعتزلة على طريق الإشارة، و قد ذكرنا قبل ما نقل عن البلقيني أنه قال: استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقش.

الشوكاني

نسبه و حياته:- هو القاضي محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني الإمام المجتهد، ناصر السنة، و قانع البدعة. ولد سنة ١١٧٣ هـ ثلاث و سبعين و مائة و ألف في بلدة هجرة شوكان، و نشأ بصنعاء، فقرأ القرآن، و أخذ يطلب العلم، و يسمع من العلماء الأعلام، و حفظ كثيرا من متون النحو و الصرف و البلاغة، و الأصول و آداب البحث و المناظرة، حتى مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٩٠

صار إماما يشار إليه بالبنان، و ظل مكبا على العلم قراءة و تدريسا إلى أن توفي سنة ١٢٥٠ هـ خمسين و مائتين و الف. مذهبه و عقيدته:- تفقه على مذهب الإمام زيد، و برع فيه، و ألف و أفتى، و طلب الحديث، و فاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربقته التقليد، و صار مناصرا للسنة و مناوئا لأعدائها، و كان يرى تحريم التقليد حتى ألف في ذلك رسالة أسماها (القول المفيد في أدلة الاجتهاد و التقليد).

مؤلفاته: له مؤلفات عديدة في شتى الفنون منها تفسيره «فتح القدير» و شرحه نيل الأوطار على منتقى الأخبار للمجد بن تيمية جد شيخ

الإسلام. و هو من خير ما كتب في الحديث على أبواب الفقه، و كتابه في الأصول (إرشاد الفحول) و فتاواه المسماة (بالفتح الرباني). تفسيره:- و فتح القدير للشوكانى تفسير يجمع بين الرواية و الاستنباط وفقه نصوص الآيات، اعتمد فيه على فحول المفسرين كالتحاس، و ابن عطية، و القرطبي. و هو متداول في جهات كثيرة من أنحاء العالم الإسلامى.

و صلى الله على رسولنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

مناع القطان مدير المعهد العالى للقضاء بالرياض

مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٩١

المراجع

اسم الكتاب اسم المؤلف ١- الإتيقان في علوم القرآن السيوطى ٢- الإصابه فى تمييز الصحابه ابن حجر العسقلانى ٣- الأعلام خير الدين الزركلى ٤- اعجاز القرآن الباقلانى ٥- البرهان فى علوم القرآن الزركشى ٦- تفسير الطبرى جامع البيان ابن جرير ٧- تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٨- الكشاف الزمخشري ٩- التفسير المفسرون محمد حسين الذهبى ١٠- تهذيب التهذيب ابن حجر العسقلانى ١١- رساله التوحيد محمد عبده ١٢- الرد على المنطقين ابن تيمية ١٣- التدمرية ابن تيمية ١٤- اقتضاء الصراط المستقيم ابن تيمية مباحث في علوم القرآن، ص: ٣٩٢

اسم الكتاب اسم المؤلف ١٥- الإكليل فى التشابه و التأويل ابن تيمية ١٦- العقل و النقل ابن تيمية ١٧- أعلام الموقعين ابن القيم ١٨- أقسام القرآن ابن القيم ١٩- اعجاز القرآن مصطفى صادق الرافعى ٢٠- الوحي المحمدى السيد محمد رشيد رضا ٢١- القاموس المحيط الفيروزآبادى ٢٢- مفردات غريب القرآن الراغب الأصبهاني ٢٣- روضة الناظر ابن قدامة ٢٤- فوائح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ابن عبد الشكور ٢٥- المستصفى الغزالي ٢٦- مناهل العرفان الزرقانى ٢٧- مباحث فى علوم القرآن صبوحى الصالح ٢٨- النبأ العظيم محمد عبد الله دراز ٢٩- منهج الفرقان فى علوم القرآن محمد على سلامة ٣٠- بلاغة القرآن محمد الخضر حسين ٣١- مقدمه فى أصول التفسير ابن تيمية ٣٢- كشف الظنون عن أساس الكتب و الفنون حاجى خليفة ٣٣- هديه العارفين اسماعيل البغدادي ٣٤- فى ظلال القرآن سيد قطب ٣٥- الفلسفة القرآنية العقاد ٣٦- رياض الصالحين النووى ٣٧- مقدمه ابن خلدون ٣٨- الأحكام للآمدى

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رحم الله عبداً أحيا أمرنا... يتعلم علومتنا و يعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا... (بناذر البحار - فى تليخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافية بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" - رحمه الله - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبى (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ هجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة كم ينطفى مصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشبَاب و عموم الناس إلى التَحَرِّي الأَدَقَّ للمسائل الدِّيَنِيَّة، تخليف المطالب النَّافِعَة - مكانَ البَلاتِيَّةِ المبتدلة أو الرَّدِيئَة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضِيَّة واسعة جامعة ثقافيَّة على أساس معارف القرآن و أهل البيت عليهم السَّلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطُّلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هُوَءَ برامج العلوم الإسلاميَّة، إنالهُ منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة في الجامعة، و...
- منها العَدالة الاجتماعيَّة: التي يُمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أَنه يُمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الاسلاميَّة و الإيرانيَّة - في أنحاء العالم - من جهةٍ أُخرى.
- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبه، نشره شهريَّة، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيَّة و مكتبيَّة، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثَلَاثِيَّة الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرُّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيَّة، السياحيَّة و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدَّة مواقع أُخرى

(ه) إنتاج المُنتجات العرضيَّة، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيَّة، الاخلاقيَّة و الاعتقاديَّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كَشِك، و الرُّسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيَّة و اعتباريَّة، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميَّة، الجوامع، الأماكن الدينيَّة كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليميَّة عموميَّة و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع "بنج رَمضان" و "مفترق" و "فائي" / "بنايه" القائمية"
تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريَّة الشمسيَّة (=١٤٢٧ الهجريَّة القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيَّة، تبرعيَّة، غير حكوميَّة، و غير ربحيَّة، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفى الحجَم

المتزايد و المتسع للامور الاديبيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفّق الكلّ توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

